نواف القديمي

جداريّات بيروتيّة ولوحات قاهريّة

يوميات صحفي في أزمنة التحول



نواف القديمي

جداريات بيروتية
لوحات قاهرية

يوميات صحفي في أزمنة التحول

بسم الله الرحمن الرحيم

جداريّات بيرونيّة ولوحات قاهريّة

يوميات صحفي في أزمنة التحول

نواف القديمي

الرسومات :

عوض الرضي

الطبعة الأولى

إصدارات | 1429 - 2008

ص . ب: 245430 الرياض 11312

المملكة العربية السعودية

ت / 4451171 - 4451132 تحويلة 110

الناشر

وهج الحياة للإعلام

Wahj Alhayat Communications

رقم الإيداع: ١٤٢٦ / ١٩٧٤

ردمك: ٩٩٦٠ - ٩٤ - ٩٢٢

مدخل ،،

على مشجب الجداريّات واللوحات

بمجرد أن تطأ أرض مدينة ، تغدو جزءاً من ترابها ، وهوائها ، ووجدانها .. وحين تتعفر قدماك بشوائب طُرقاتها المغبرّة وأمكنتها العتيقة ، تُصبح حينئذ بعضاً من روحها الحميمة ودواخلها المسيّجة بالغموض .. عندما تقضي في مدينةٍ بضعة أيام ، أنت تستحوذ على شيءٍ من ذاكرة تاريخها بمقدار ما أهدَرْتَه من زمنٍ في متاهات أزقّتها القديمة ، ليظلَّ بعضك فيها ، ويبقى أثر خُطاك محفوراً على أرصفة شوارعها ودروبها.

بقدر ما كانت الأرض موغلة في أعماق الأزمنة ، وممتدةً في مسارب ماضٍ مكتظ بسجالات السياسة والأفكار ، بقدر ما يبقى عبق الأمكنة عالقاً في جسدك ، وهواؤها لا يفتأ يتردد في رئتيك ، وتظلُّ حروف اسمك منحوتة في مدونة الانتماء لهذه الأرض وإنسانها وتاريخها، دون الحاجة لـ (بطاقة هوية) و (جواز سفر)!

لم أكن أحسب يوماً أني سأنشر هذه اليوميّات بين دفتي كتاب .. لكونها لم تكن تتجاوز عادةَ التدوينات الشخصية لتفاصيل بعض الرحلات خارج الوطن ، بصحبة بعض الأصدقاء أحياناً ، وبدونهم في مرّات أخرى .. وكنتُ أرسل هذه التدوينات على قائمة بريديّة (قروب) تضمّني مع عددٍ من أعز الرفاق ، لا يعدون الخمسة عشر ، اعتدنا - منذ أزيد من ست سنين - أن نتبادل فيها الأفكار ، والأخبار ، والحوارات ، واليوميّات ، والمشاكسات ، وحتى السخرية المتبادلة بيننا ، دون تكلّف أو تزويق يستدعيه النشر في العلن .

ما يتضمنه هذا الكتاب ، لا يعدو نزراً يسيراً مما احتوته تضاعيف هذا (القروب) .. هي عبارة عن يوميّاتٍ سردية كتبتها خلال العامين ٢٠٠٦م و ٢٠٠٧م ، وكانت عن ثلاث رحلات إلى بيروت ، واثنتين إلى القاهرة.

زرتُ بيروت أول مرة في إبريل ٢٠٠٦م .. قبلها لم أكن أعرف عن بيروت إلا تاريخ السياسة ، والحرب الأهلية ، وتنوّع الطوائف ، وسِجالات الفرقاء .. وحتى

تاريخ إصدار هذا الكتاب ، لم أزر بيروت سوى مرّاتٍ ثلاث ، هي التي تتضمن هذه الصفحات يومياتي فيها .

أما القاهرة ـ التي أشعر تجاهها بمزيد من الألفة ـ فأتردد عليها منذ زمن ، وزرتها حتى اليوم أربع عشرة مرة ، كان غالبها في الوقت الذي تُشرع فيه أبواب المعرض الدولي للكتاب أواسط الشتاء من كل عام .. وما دونته في هذه الصفحات ، لا يعدو فقط يومياتِ آخر رحلتين إلى هذا المعرض .

ولكوني حديثُ عهد بزيارة بيروت ، بدت يوميّاتها مشبعةً ـ بعض الشيء ـ بتفاصيل المشهد السياسي والثقافي لهذا البلد ، الذي هو كومَة من التعقيدات الطائفية والإثنيّة ، والتداخلات السياسيّة والفكرية ، وداخل حدوده تقع كثيرٌ من خطوط التماس والصراع بين القوى الدوليّة .. ولا أخفي أن بعض الخجل ساورني وأنا أهمُّ بنشر هذا الكتاب ، حين تصورت باحثاً أو سياسياً لبنانيّا يقرأ هذه المعلومات الأوليّةَ والبدهيّة عن وطنه .. لذا أنا أُعلن هنا ـ وبالفم الملآن ـ أن حديثي هو عن بيروت (لغير الناطقين بها)! .

أما يوميّات القاهرة ، فكانت في غالبها حديثٌ عن الناس ، والرفاق ، والأزقة القديمة، وتفاصيل حياتنا اليوميّة ، بكلِ ما تلبّسني من عفوية الإنسان المصري الصميم .. لذا يتضاءل فيها الحديث عن النشاَط الثقافي والسياسي ، لكوننا ألفنا هذه الأرض منذ زمن، وخَفَتت في دواخلنا شعلة (اكتشاف الجديد) . وأيضاً لأن كثيراً من الحوارات الفكرية التي أجريتها في القاهرة ، قمت بنشرها في عدد من الصُحف والمطبوعات ـ تضمّن كتابي (محاورات) ما يُقارب العشرةً منها ـ لذا لم يكن ثمة داع للحديث عنها مجدداً في هذه اليوميات .. وهي على العكس من بيروت، التي لمَّ أنشر أي حوارٍ جرى فيها ، لذا تضمَّنت يومياتها نزراً مما جرى في هذه الحوارات .

هذه اليومِيات ، صيغت بعفويّةِ من يُحادث رفاقه المقرّبين ، حيثُ لا متّسع لرَصف جماليات اللغة ، واستحضار إبهار البلاغة .. أمنيتي فقط ، أن يجد القارئ في ثناياها ما يُمتع ، إن لم يُلاقِ بها ما يُفيد.

نواف القديمي

nawafaj76@yahoo.com

جداريات

بيرونية

الرحلة الأولى ..

من ٢٠ إلى ٢٧ نيسان (أبريل) ٢٠٠٦م

الطريق إلى بيروت ..
وحديث الطوائف



1

أحدثكم من بيروت المحاصرة والصامدة في وجه الأعداء..

هكذا كان ياسر عرفات يصدِّر خطاباته حين حاصره الإسرائيليون في بيروت الغربية - حيث نسكن الآن - عام ١٩٨٢م ، وعجز فيها الجيش الإسرائيلي عن اقتحام بيروت الغربية رغم ٨٨ يوماً من الحصار، بسبب استبسال المقاتلين الفلسطينيين، وقوة النضال والصمود الذي أبداه عرفات.

ترتيبات السفر إلى بيروت جاءت على عجل.. عندي بعض الأعمال تستدعي سفري إلى هناك.. حاولت إغواء اثنين من الأصدقاء (سليمان وأحمد) لمشاركتي الرحلة، واكتشفت أن إغواءهم للسفر إلى بيروت كان أيسر من دعوتهم لوليمة عشاء! . رغم يقيني أنني لو بذلت كل أنواع الغواية، بهدف دعوتهم لمشاركتي في إحدى الرحلات المتجهة نحو الجنوب، لفشلتُ دون شك.

وطأنا أرض بيروت المحاصرة والصامدة في وجه الأعداء .

رغم أنها المرة الأولى التي أطأ فيها أرض بيروت، إلا أن لهذه المدينة في داخلي مخزوناً ضخماً من الأحداث والتفاصيل، عن زمن الحرب الأهلية التي امتدت خمسة عشر عاماً، وكانت في تداخلاتها وتشابكها من أعقد الحروب . أضف إلى ذلك ما تقذفه الحياة السياسية الصاخبة في لبنان من أخبار يومية، عن سجالات هذه الفسيفساء من الطوائف والأحزاب والتنظيمات.

في لبنان أكثر من عشرين طائفة . يمنح الدستور ثلاث عشرة طائفة منها حق الترشح البرلماني، والمشاركة في الإدارة السياسية، من بينها أربع طوائف مسلمة بحسب الدستور، هي السنة والشيعة والدروز والعلويّون . وتسع طوائف مسيحية، أكبرها الطائفة المارونية، إضافة للروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، والأرمن الأرثوذكس، والأرمن الكاثوليك، وسواهم .

كان الدستور اللبناني المتكئ على ميثاق عام ١٩٤٣م، والمصاغ على عين الانتداب الفرنسي، ينص على أن للمسيحيين ستة مقاعد في البرلمان مقابل كل خمسة مقاعد للمسلمين . أي أن ٥٥٪ من مقاعد البرلمان للمسيحيين، مقابل ٤٥٪ للمسلمين.. ولكن بعد اتفاق الطائف الذي أنهى الحرب الأهلية عام ١٩٨٩م، وبسبب التغير الواضح في ديمغرافيا البلد، حيث بدا واضحاً الانخفاض الحاد في أعداد المسيحيين، في مقابل النمو السكاني للطوائف المسلمة، فقد تم الاتفاق على أن تكون نصف مقاعد البرلمان للمسلمين ونصفها الآخر للمسيحيين .

وحالياً يحوي البرلمان اللبناني ١٢٨ مقعداً، منها ٦٤ مقعداً للمسلمين (٢٧ مقعداً للسنة و٢٧ للشيعة و٨ للدروز و٢ للعلويين) و ٦٤ مقعداً للمسيحيين (منها ٣٤ مقعداً للطائفة المارونية، ولباقي الطوائف المسيحية مقاعد محدودة).. ورغم هذه المناصفة، إلا أن العدد التقريبي للديانتين في لبنان، بحسب آخر تقدير أجرته صحيفة النهار، أن ٦٥٪ من السكان مسلمون، فيما تعداد المسيحيين لا يتجاوز ٣٥٪ . ويعود سبب انخفاض أعداد المسيحيين إلى تدني نِسب الإنجاب مقارنة بالمسلمين، إضافة إلى كثافة الهجرات خارج الوطن عند الطوائف المسيحية . وربما يشوب الحديث العلني للسياسيين عن هذا الأمر بعض الحساسية، خاصة وأن النظام السياسي بتوزيعاته البرلمانية والسياسية، قد وضِع في زمن الانتداب الفرنسي بميثاق عام ١٩٤٣م، والذي تضمن أن يكون رئيس الدولة من الطائفة المارونية، ورئيس الوزراء من الطائفة السنية، ورئيس البرلمان من الطائفة الشيعية، وقائد الجيش ماروني.... وهكذا .

والطائفية في لبنان ربما هي الوحيدة في العالم التي تُبرز هذه التمايزات بشكل علني.. حيث يتوجب كتابة طائفة كل مواطن على بطاقته الانتخابية.. وحين يرغب أحد بالترشح للانتخابات، فإنه يجب أن يترشح على مقعد طائفته.. وعلى سبيل

المثال، ففي مدينة بيروت ١٩ مقعداً برلمانياً بحسب القانون الانتخابي الأخير، المعتمد عام ٢٠٠٠م، ويتم تفصيل هذه المقاعد كالتالي : ٩ مقاعد للمسلمين (٦ مقاعد سنية و مقعد واحد شيعي ومقعد درزي ومقعد علوي)، طبعاً هذا التفوق للمقاعد السنية، يعود لكون بيروت مدينة سنية في الأصل، وذلك قبل الهجرات التي حدثت في العقود الأخيرة.. كما أن في بيروت عشرة مقاعد للمسيحيين، منها خمسة مقاعد للطائفة المارونية، والبقية موزعة بين الطوائف المسيحية التي لها تواجد قديم في بيروت. لذا يجب أن يتقدم كل مرشح للترشح على مقعد طائفته .

لكن الناخب اللبناني أياً كانت طائفته، يقوم بانتخاب المرشحين على كل المقاعد من كل الطوائف في دائرته الانتخابية . فالمواطن الذي ينتمي للطائفة المارونية، ويعيش في بيروت، عليه أن ينتخب مرشحاً على المقعد السني، وآخر على المقعد الشيعي، وآخر على المقعد الماروني... وهكذا، بحسب أعداد المقاعد وتنوعها الطائفي في الدائرة الانتخابية التي ينتمي إليها.. هذا النظام، جعل بعض المرشحين، من بعض الطوائف، يصل إلى البرلمان بسبب أصوات طائفة أخرى . ويحصل ذلك غالباً في المقاعد المسيحية، بسبب عدم انسجام أعداد المقاعد البرلمانية لهذه الطائفة مع كثافتها السكانيّة.. ففي بيروت مثلاً، هناك ما يقارب الخمسمائة ألف ناخب، يقوم هؤلاء بانتخاب ١٩ مرشحاً عن مقاعد بيروت في البرلمان، وذلك بحسب التوزيع الطائفي للمقاعد الذي ذكرته قبل قليل . وإذا ما حاولنا معرفة الطبيعة الطائفية لنصف مليون ناخب في بيروت، سنجد أن منهم ٣٥٠ ألف ناخب سني، أي ما يقارب ٧٠٪ من مجموع الناخبين، لذا تجد أن غالبية النواب المسيحيين المنتخبين في بيروت، وصلوا بأصوات سنية، وهو ما يعني أن ولاءهم سيكون لناخبيهم، أكثر مما هو لطائفتهم . وهذا ما يفسر أن عدداً غير قليل من نوّاب تيار المستقبل ـ الذي يمثل الواجهة السنية في لبنان ـ هم من المسيحيين، وذلك لأن هؤلاء النواب وصلوا بأصوات مناصري تيار المستقبل، الذين ينتمون للطائفة السنية.. ويحصل ذلك أيضاً في الجنوب، حيث يصل غالبية الناخبين المسحيين بأصوات شيعية .

وإذا ما عدنا لموضوع التعداد التقريبي للطوائف في لبنان . آخذين في الحسبان أنه لم تجرِ أي عمليات تعداد رسمية منذ العام ١٩٤٣م . إلا أنه في تقديري يمكن

الاعتماد على مصدرين حديثين، قد يعطيان دلالة دقيقة على النسب الحقيقية للطوائف في لبنان.. المصدر الأول هو ما ذكرته سابقاً عن التقدير الإحصائي الذي أجرته صحيفة النهار أواخر العام ٢٠٠٦م . والذي أظهر أن نسبة المسلمين باتت ٦٥٪ من مجموع السكان، في مقابل ٣٥٪ للمسيحيين . ذكر هذا الإحصاء أيضاً أن نسب الطوائف داخل الديانة المسلمة هي كالتالي : (٢٩,٦ شيعة، و ٢٩,٥ سنة، و ٥,٦ دروز، ونسبة طفيفة للعلويين) . وفي المقابل لم يذكر الإحصاء تفاصيل النسب داخل الديانة المسيحية، ربما لكثرة طوائفها، وللطغيان العددي الواضح للطائفة المارونية.. أما المصدر الآخر الذي قد يعطي أيضاً دلالة دقيقة لتعداد الطوائف، فهو إحصاء البطاقات الانتخابية لكل طائفة، بحسب أرقام وزارة الداخلية المسؤولة عن متابعة شؤون الانتخابات . وذلك ـ كما ذكرت سابقاً ـ لأنه يتم ذكر طائفة كل مواطن في بطاقته الانتخابية، مما يجعل عملية إحصاء عدد البطاقات الانتخابية الصادرة رسمياً لكل طائفة، مؤشراً جيداً إلى حقيقة حجمها على الأرض . ووفق تعداد البطاقات الانتخابية، تُعد الطائفة السنية هي الأكبر، لكونها تمتلك ٧٩٨ ألف ناخب، ثم الطائفة الشيعية التي تمتلك ٧٨٤ ألف ناخب، ثم الطائفة المارونية التي لديها ٦٣٤ ألف ناخب ـ ومع ذلك لهم ٣٤ مقعداً في البرلمان.. وبذلك يُصبح مقابل كل مقعد سني أو شيعي ٢٩ ألف ناخب تقريباً، بينما يقابل كل مقعد ماروني ١٩ ألف ناخب فقط .

لا أريد الاستطراد في إيراد كثير من المعلومات، التي لازالت عالقة في ذهني منذ مرحلة الانتخابات الأخيرة في لبنان، والتي جرت قبل شهور، أواخر العام ٢٠٠٥م، لأن تفاصيل الطوائف في لبنان كثيرة ومتشعبة ، وفي ثناياها كثير من الغموض الذي يمنحك متعة اكتشاف هذه الدهاليز المظلمة في الخريطة اللبنانية المعقدة طائفياً .

ولكن كل هذه التفاصيل والتعقيدات، لا تلبث أن تتهاوى، أمام تعقيدات وتشعبات الحرب الأهلية التي جرت في لبنان، واستمرت خمسة عشر عاماً (١٩٧٥م ـ ١٩٩٠م).. ويجب أن أعترف أنني أصبت بصدمة وخيبة أمل، حين اكتشفت أن كل ما قرأته في الكتب، وتتبعته في الموسوعات عن تاريخ وتفاصيل الحرب الأهلية في لبنان، لا يمثل إلا الجزء الظاهر من جبل الجليد!!، وأن مقدار ما أعرفه عنها، لا يجاوز المقدار الذي يعرفه جورج بوش عن السياسة الدولية! .

وحصل ذلك بعد أن بحثت في بعض المكتبات في بيروت عن الكتب التي دونت تاريخ الحرب الأهلية (كنت أسأل عن كتب!).. وإذا بي أجد أن هناك مجلدات وموسوعات متعددة، وكل موسوعة تتحدث عن دور حزب أو فصيل واحد في الحرب الأهلية!، فهناك مثلاً موسوعة تتحدث عن (الحزب التقدمي الاشتراكي / ٩ مجلدات)، وأخرى عن (حزب الله / ١٢ مجلداً)، وثالثة عن (القوات اللبنانية / ٦ مجلدات)، وهكذا.. أي أنها مما تفنى الأعمار دون تمامها!!

* * * *

كنت أهدف من سفري إلى بيروت عدة أمور.. أولها إتمام عملي الذي أتيت لأجله، وثانيها محاولة الإمساك بتلابيب الجغرافيا اللبنانية على الأرض، ومعرفة مناطق وأحياء بيروت، ورؤية الحدود الفاصلة بين بيروت الغربية والشرقية والضاحية الجنوبية بكل ما تحمله من ذكريات الحرب، ومشاهدة خطوط التماس التي كانت مقاصل يومية بشعة راح ضحيتها الآلاف، والتجول بقدر ما هو متاح في المناطق اللبنانية، المدن الأخرى، الجبل، الشوف، الشمال، مغارة جعيتا، جبال الثلج، وسواها.. وثالثها زيارة مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان (ومخيم عين الحلوة بالذات)، والقيام بجولة في المناطق الجنوبية المحررة، ورؤية الحدود الفاصلة مع فلسطين (الخط الأزرق)، وزيارة معتقل الخيام الواقع على خط الحدود، والذي كان من أبشع وأشهر مقرّات التعذيب والاعتقال في زمن احتلال الجنوب .

نزلنا في فندق يقع على شارع الحمرا ببيروت الغربية، وهذا الشارع يعد الأكثر شهرة في لبنان، وله تاريخ ثقافي عريق، حيث تنتشر على جنباته كثير من أشهر المقاهي في العالم العربي، والتي كان يرتادها عشرات المثقفين والمفكرين والسياسيين والفنّانين، حتى أن كثيراً من حَكَايا هذا الشارع تم تدوينها في العديد من الكتب والروايات والأفلام التسجيلية واللوحات الفنية . وفي زمن الحرب الأهلية، كان أيضاً لهذا الشارع تاريخه الذي ينز بالدم، لكثرة المواجهات والاقتتال الذي جرى في ثناياه .

بعد أن أنهينا ترتيب حاجياتنا، تجولنا سيراً على الأقدام في شارع الحمرا، بعد

أن اتفقنا مع سائق أجرة (ختيار) اسمه محمد نادر (أبو وليد)، أن يأخذنا غداً في جولة إلى الجزء الجنوبي من جبل لبنان .

وفي صباح الغد، وأثناء سيرنا باتجاه الجبل، سألَنا أبو وليد ـ الذي ينتمي لإحدى قرى الجنوب ـ عن أسمائنا.. قلت له مداعباً : أنا اسمي نواف القديمي، ابن عم نواف الموسوي (والأخير هو مسؤول العلاقات الدولية في حزب الله).. عندها قال أبو وليد بصوت مرتفع : ياألله، هؤلاء من بيوت السادة ـ الأشراف ـ، هذا يعني أنك سيِّد؟!.. هنا تدخّل سليمان وأحمد ليواصلا هذا المشهد التمثيلي، وقالا وهما يشيران إليّ : ألا تعرف هذا الرجل من قبل؟! . ألم تشاهد صورته في الصحف؟!. هذا من السادة المعروفين في السعودية! . واستمرا طبعاً في ذكر بعضٍ من فضائل السيد!

كانت أولى المكاسب التي جنيتها بعد أن ألبسني أبو وليد ـ دون قصد ـ عمامة السيِّد، أن غدوتُ طوال الرحلة وكأنني الحاكم بأمر الله.. والرفاق الذين تولوا أمر التعبير عن رغبات السيِّد، لم يكفوا عن إلقاء الأوامر والطلبات على أبي وليد، بعد أن يسبقوها بالإشارة إلى أنها إحدى رغبات السيد.. حتى زخات المطر وكثافة الغيوم التي صادقتنا ذاك النهار، نُسبت إلى كونها من بركات السيد!

ذهبنا في هذه الجولة إلى معاقل وليد جنبلاط، حيث منطقة الشوف، القابعة على مساحة كبيرة وممتدة من الجزء الجنوبي في جبل لبنان.. هذه المنطقة يغلب على سكانها الانتماء إلى الطائفة الدرزية، إضافة إلى أن حدودها الشمالية تتداخل مع عدد من القرى والبلدات ذات الكثافة المسيحية .

منذ مئات السنين والمسيحيون يسكنون في جبل لبنان، الممتد من محاذاة طرابلس في الشمال، إلى أن يقترب من محاذاة مدينة صيدا الجنوبية، في مسافة تمتد إلى ما يقارب مائة وخمسين كيلومتراً . وهو بسبب ارتفاعه، كان ملاذاً لهم من قساوة السلطة السياسية، ومن الحروب التي حدثت في القرون السابقة من تاريخ المنطقة. ويشاطرهم الدروز في الجزء الجنوبي من الجبل – وإن بكثافة سكانية أقل –، الذين يقطنون قرى الشوف وعاليه وسواها .

وفي تاريخ هذه المنطقة قبل عدة قرون، كان الدروز – رغم قلة عددهم مقارنة

بالمسيحيين - هم الذين يحكمون إمارة (جبل لبنان) بتكليف من الدولة العثمانية، لكونهم أبدوا ولاء للعثمانيين، وشجاعة في القتال معهم ضد الهجمات الصليبية المتكررة على سواحل الشام. لذا كان الجزء الجنوبي من الجبل يُسمى أحياناً في الكتب التي أرّخت للمنطقة بـ (جبل الدروز)، فيما يسمى الجزء الشمالي منه - ذو الكثافة المسيحية - بـ (جبل لبنان). وفي المقابل كان كثيرٌ من المسيحيين موالين للقوى الغربية، ومتعاونين مع دول الانتداب، وهو ما رجّح كفة الدروز عليهم في تولي إمارة الجبل.

هذا التنافس والخِصام التاريخي بين الدروز والمسيحيين، ظهر بأجلى صورة في زمن الحرب الأهلية، حيث دارت معارك طاحنة ودامية في مناطق التلاقي بين الطرفين، وسُمّي هذا الاقتتال الشهير بـ (معارك الجبل)، وكان بين الحزب الاشتراكي الذي يقوده وليد جنبلاط (دروز)، والقوات اللبنانية التي يقودها سمير جعجع (مسيحيون)، وأنتج تفوقاً قتالياً واضحاً لصالح الحزب الاشتراكي، الذي كان يمتلك - طوال الحرب - ميليشيا على درجة رفيعة من القوة والتدريب، على الرغم من قلة عدد الدروز مقارنة بأعداد الطوائف الأخرى. وقد تسبب هذا الاقتتال في تهجير كثير من سكان القرى المسيحية إلى مناطق أكثر أمناً في الشمال.. هذه المعارك لا زال يستحضرها ويواصل التذكير بها بعض الشخصيات في كتلة المعارضة، بهدف دق أسفين بين الحزب الاشتراكي والقوات، بعد أن صارا من أقرب الحلفاء في كتلة ١٤ آذار، التي تدير الحكومة اللبنانية الحالية.

لكل الطوائف في لبنان جغرافيتها الخاصة، فإذا كان المسيحيون يمتدون على طول جبل لبنان، وفي سفوح الجبل الغربية، حيث شواطئ البحر الأبيض المتوسط، كمناطق البترون وجبيل وجونيه وسواها من مناطق ساحلية، إضافة إلى مدينة زحلة في البقاع، وطبعاً في بيروت الشرقية المحاذية للجبل. ويشاركهم الدروز في القسم السفلي من الجبل حيث منطقة الشوف الواسعة.. فإن المناطق الجنوبية من لبنان والتي تمتد من أواخر الجبل وحتى الحدود الفلسطينية، هي مناطق تغلب عليها الطائفة الشيعية، وإن كان ثمة جيوب، تمثلها عدة قرى متقاربة، تقطنها طوائف أخرى، كالجيب السني القريب من الحدود السورية، والذي يحوي قرى كفر شوبا

وحاصبيّا وشبعا (التي تتبع لها المزارع المحتلة) وعشرات القرى الصغيرة، وكعدد من القرى المسيحية المنثورة في أرجاء الجنوب، إضافة إلى التواجد الكثيف للطائفة الشيعية في منطقة بعلبك الهرمل، الواقعة شمال البقاع، وطبعاً في الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت .

أما الطائفة السنية فتتمركز في المدن، حيث إن كبرى المدن اللبنانية هي سنية في الأصل، كبيروت وطرابلس وصيدا، إضافة إلى وجود منطقتين ريفيتين واسعتين في أقصى الشمال، تُسمّيان الخزان البشري للطائفة السنية، وهما منطقتا الضنّية وعكّار. كما أن للطائفة السنية وجود كبير في منطقة البقاع الأوسط الواقعة شرق الجبل .

في جولتنا هذه مررنا بالعديد من (الضِيَع) والقرى الجبلية، مثل زحلتا (التي ينتمي لها النائب باسل فليحان الذي قُتل مع رفيق الحريري في الانفجار)، وقرى الشوف، وصوفر، وبوحمدون، وعاليه، وحمّانا والمدرج، وسواها من ضِيَع . واقتربنا من قصر المختارة التاريخي الذي يسكنه وليد جنبلاط . وقمنا بجولة داخل قصر (بيت الدين) الذي يُعد من أهم وأكبر القصور التاريخية في لبنان، وقد بناه الأمير شهاب الدين، ليكون مقراً للحكم في زمن إمارة جبل لبنان . ولا زال هذا القصر يشهد كثيراً من المناسبات المهمة، وتقام فيه سنوياً احتفالات فنية، لا يُسمح بالغناء فيها إلا لكبار المطربين، وذلك لقيمته التاريخيّة.

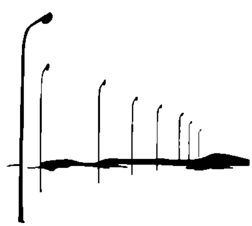
كما توقفنا عند قصر حجري جميل، يطلقون عليه اسم (قصر موسى)، ويحكون عنه قصة، اتفقنا أنا ورفاقي أثناء سماعها ـ بعد أن تبادلنا الابتسامات ـ على أن نتعامل معها كما لو كنا نستمع لحكواتي يقص علينا شيئاً من أساطير الزمن القديم.. وتحكي القصة عن رجل اسمه موسى المعماري، ويعمل مهندس بناء، كان مغرماً بفتاة، ويرغب في الزواج بها . ولكن فقره أعاق مشروع الزواج من هذه الفتاة، التي كانت تحلم دوماً بأن تسكن قصراً كبيراً، ولذلك فضّلت الزواج من رجل غني، تاركةً موسى في حسرته، بعد أن اتخذ قراره بأن يبني ـ لوحده ـ قصراً حجرياً ضخماً، تخليداً لحبه الكبير . وتروي القصة أن موسى استغرق في بناء هذا القصر خمسين عاماً.. طبعاً موسى المذكور هنا لا ينتمي لعصور سابقة، بل لازال حياً، بعد أن تجاوز عمره الخامسة والسبعين، وقد رأيناه رغم توعكه الصحي في

نهاية جولتنا داخل قصر العشق الذي بناه .

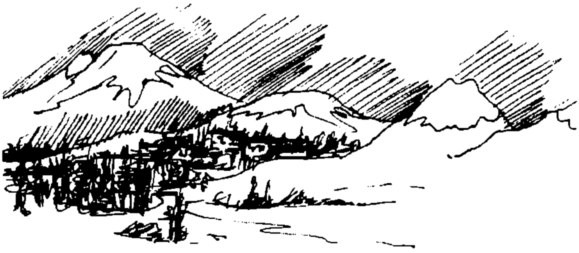
بعد أن حكيتُ لها هاتفياً قصة هذا القصر، قلتُ لزوجتي : لقد فوّتِ على نفسكِ بناء قصر مشابه، حين وافقتِ مباشرة على الزواج! .

وفي نهاية جولتنا عند المساء، مررنا على منطقة سياحية تسمى (نبع الصفا)، وتحوي مجموعة من المطاعم والمقاهي المنتشرة على أطراف نبع ماء وشلال بارد.. طبعاً كانت كل المطاعم مغلقة، لأنها لا تفتح أبوابها إلا في مواسم السياحة الصيفية.

عدنا أدراجنا إلى بيروت مع اقتراب حلول الليل، بعد أن تشبّعت أجسادنا بقدر من الإنهاك السياحي اللذيذ .



إذ يهطل الثلج في
غابات الأرز



2

في نهار اليوم التالي قررنا الذهاب برفقة أبي وليد إلى المنطقة الوسطى من جبل لبنان، والتي تحوي قمم جبال فاريّا المكسوة بالثلوج، وتحيطها عدة قرىً جبليّة غارقة في غابات السرو الكثيفة .

رغم أنني بتُ متمسكاً بكل امتيازات ونفوذ الموقع الديني لـ (السيّد)، إلا أنني فوجئتُ بالحرص الشديد الذي أبداه سليمان وأحمد على التقريب بين المذاهب، خاصة حين مازحهم أبو وليد عارضاً عليهم زواج المتعة .

الطريق إلى الجبل طويل وممتع ، ويمر بعدة قرىً جبلية كـ عجلون ومايروبا وسواهما. ومع أننا في أواخر إبريل، حيث ولّى الشتاء، ومضى شطرٌ من الربيع ، إلا أن كثيراً من جبال الجليد لازالت مكسوة بردائها الثلجي الكثيف. . وتُعد هذه الجبال في الشتاء من أكثر المناطق السياحية شهرة في لبنان، حيث ميادين التزلج الواسعة، والألعاب الثلجية، وازدحام السيّاح القادمين من كل بلاد العالم .

وحين وصلنا لقمة الجبل، بدا واضحاً أن الجليد قد انحسر وذاب عن عدد من القمم الجبلية، فيما ظلَّ يكسو عدداً آخر من تلك القمم.. ومهما كان القدر الذي بقي، فهو لا شك سيكون كافياً لإشباع شغف القادمين من الصحراء إلى حيث يسترخي الثلج .

سليمان الذي ما فتئ يذكرنا بتاريخه الطويل في المغامرات الثلجية، عندما

كان يدرس في أمريكا، حتى ظننا أنه كان يعيش في كوخ ثلجي في أقصى القطب الشمالي!، أراد أن يردّ على ابتساماتنا غير البريئة والمحملة بالتشكيك، وذلك عبر استعراض رشاقته في الركض على الثلج.. المشكلة أن تلك الرشاقة ما لبثت أن تحولت إلى نزعة عدوانية، حاول فيها استرداد كرامته المسلوبة، وتمثلت في اعتدائه على مقام السادة، حين قذف نحوي عدداً من الكرات الثلجية. وهنا اضطر السيد ـ بكل حكمة ـ إلى تفادي هذه الأفعال غير المسؤولة عبر الركض على الجليد، فما هي إلا لحظات وسمع الجميع (طرررطخ)، حيث انزلق السيد في هذه المرحلة الزمنية الهامة من تاريخ الأمة.. وما كان لسليمان أن يفوت هذه الفرصة دون أن يطلق ضحكاته الشريرة، التي ستنعكس عليه حسرة وندامة في قادم أيامه.

بعد أن قام سليمان بفعلته الشنيعة تجاه السيد، وحظي على إثرها بمباركةٍ وتثمين للموقف من أحمد، قررنا أن نعود أدراجنا، بعد أن اشترى سليمان ثلاثةً أطنانٍ من الفستق والمكسرات، كي يتسلى بها في طريق العودة، رغم شكواه الدائمة من سمنته التي لم يعرف بعد مبرراً لها!!

في طريق العودة اكتشفنا أن أحمد يتكلم بلغة غريبة.. ظننت في البداية أن لها علاقة ببعض اللغات الزنجية التي تعلمها في رحلاته المتعددة إلى أفريقيا.. ولكن بعد مزيد من الجهد في محاولة فهم هذه اللغة، اكتشفت أنها مزيجٌ من لهجة نجدية مكثفة، تحاول التعلق بأهداب اللهجة اللبنانية، مضافٌ إليها عدد من الكلمات الحجازية! (بعد أن أكدت لأحمد تفهمي لمقاصده النبيلة في محاولته الحديث باللهجة اللبنانية، سألته: ما علاقة اللهجة الحجازية بالموضوع!!).. وغدت من أمتع لحظات الرحلة، حين يريد أحمد أن يسمي بعض المناطق اللبنانية مثل (عاليه) أو (جونيه)، التي يلفظها اللبنانيون بطريقة رشيقة، بينما تظن أنها ـ حين تسمعها من أحمد ـ من بعض خبوب القصيم.

اتجهنا بعد جبال فاريّا الثلجية إلى حيث مغارة جعيتا. وهي عبارة عن مغارتين ضخمتين. إحداهما في أعلى الجبل، وتدخلها عبر الجسور المعلقة المبنية على امتداد المغارة. والأخرى دونها بقليل، وتدخلها عبر قوارب نهرية، لكون الماء

الذي ذاب من ثلوج الجبال بات يغطي الأجزاء السفلية من المغارة.. وتمتد هاتان المغارتان الضخمتان لأكثر من ألفي متر في جوف الجبال.. وقد تم اكتشافهما على يد علماء آثار ألمان، وقد اكتشفوا المغارة الأولى في نهايات القرن التاسع عشر، فيما اكتشفوا الثانية في بدايات القرن العشرين.

هاتان المغارتان آية من آيات الله.. حين تلج داخل فوهتيهما الحجريتين، تجتاحك حالة من الوجوم والرهبة وأنت ترى عظيم صنع الله.. هذه العظمة، والضخامة، والجمال، والهدوء المتناهي، والظلام الدامس، وأصوات خرير الماء الذي يأتي من مكان سحيق، والقطرات الكلسية المتحجرة، التي تكونت على شكل سكاكين حادة، كل ذلك يبعث في النفس إيماناً عميقاً يتسرب إلى داخل وجدانك دون أن تشعر .

بدأت أتخيل.. ماذا لو انطفأت الأضواء فجأة عن هذا المكان..

شيء لا يوصف.

نزلنا من الجبل بعد انتهائنا من زيارة المغارتين، واتجهنا إلى منطقة جونيه، وهي منطقة ساحلية تقع شمال بيروت، وتحوي عدداً كبيراً من المطاعم والمقاهي. وحين وصلنا، توجهنا في البداية إلى (تلّفريك) يصل بين الساحل وقمة الجبل الذي يُسمى جبل حريصا . وصعدنا إلى قمته، حيث توجد هناك كاتدرائية قديمة وشهيرة، وعلى طرفها المواجه للبحر يقف تمثال ضخم، يمكن رؤيته من أماكن بعيدة، ويبصره في الليل والنهار من يسيرون على الطريق الساحلي الذي يربط بيروت بطرابلس.. وفي هذه المنطقة المرتفعة، جلسنا في مقهىً يطل على سفح الجبل، حيث ترى البحر من ارتفاع شاهق، وترى كثيراً من المناطق الساحلية القريبة، حتى بيروت بدت لنا من هذا المكان.. لا شيء يعدل الاسترخاء في مقهىً بهذه المواصفات، الغابات الكثيفة والممتدة، التي تتداخل مع عدد من المدن الساحلية، والبحر الذي يبدو بآماده البعيدة وزرقته الصافية، والبواخر التي تقدم باتجاهنا من وراء الأفق، وأشعة الغروب التي تتكسر على أمواج هذا البحر الكبير، وعبق أشجار الأرز، ورياح نيسان العذبة . كل ذلك يجعل من هذا المكان مخدعاً للحُلم، وملاذاً للهروب من أزمنة الضجر .

وبعد أن أقمنا على أهل هذه المنطقة المسيحيّة حجة الإسلام، حين صلينا الظهر والعصر في شرفة المقهى، نزلنا إلى أحد المطاعم الساحلية الرائقة، لتناول طعام الغداء . ولنعود بعد ذلك أدراجنا إلى بيروت .

جميع المناطق التي تضمنتها جولتنا هذا النهار (جبال فاريّا، مغارة جعيتا، جونيه) كانت في دائرة انتخابية واحدة، تسمى دائرة المتن الشمالي . وهذه الدائرة تكاد تكون مسيحيّة خالصة، حيث يوجد بها أكثر من عشرين طائفة مسيحية، على رأسها طبعاً الطائفة المارونية، إضافة إلى تواجد عدد كبير من أبناء الأرمن، حيث تُعد المتن الشمالي منطقة ثقلهم ونفوذهم، وثمة أحياء يمثلون هم غالبية سكانها، كحي برج حمود، إضافة إلى كثافتهم في حي سن الفيل وغيره من أحياء متاخمة . ويمثل حزبهم الأبرز (الطاشناق) مرجحاً مهماً في أي انتخابات تجري بهذه الدائرة . كما يوجد في المتن الشمالي مركز ثقل حزب الكتائب، حيث تُعتبر بلدة بكفَيّا في أعلى الجبل المقر التاريخي لعائلة الجميّل، التي تتزعم حزب الكتائب منذ تأسيسه.. وبها أيضاً مركز ثقل للعماد ميشيل عون، الذي يقيم في حي الرابية، التابع لدائرة المتن الشمالي الانتخابية .

اطلعت قبل مدة على تقرير مثير، يحكي قصة الطوائف وتعدادها في هذه الدائرة الانتخابية، وهو يبرز حجم التنوع الهائل في الطوائف المسيحية . ورغم أن الدستور يُعطي لتسعة طوائف مسيحية فقط حق الترشح للبرلمان، إلا أن لكل الموطنين ـ أياً كانت طائفتهم ـ الحق في الانتخاب، لذا يتوجب تحديد الهوية الطائفية لكل مواطن في بطاقته الانتخابية.. وإذا كانت معلومات وزارة الداخلية اللبنانية تشير إلى وجود ما يقارب ١٧٠ ألف ناخب في دائرة المتن الشمالي . فإن تقسمهم الطائفي بحسب وزارة الداخلية هو كالتالي :

(٧٣٤١٣ موارنة / ١٨٠٢ دروز / ٢٢٦٧ سنّة / ٤٠٣٤ شيعة / ٣٠ علوي / ٤٢٩ مسلماً غير محدد / ٢٥٤٧٥ أرمن أرثوذكس / ١٥ أرمن إنجيلي / ٢٠٦٦ أرمن بروتستانت / ٦٨٦٥ أرمن كاثوليك / ٥٦٦ أشوري / ٧ أشوريين أرثوذكس / ٣٠٩٧ مختلف / ١٤ غير محدد / ١٣٢ إنجيلي / ٣٨١ بروتستانتي / ٢٣٩٥٠ روم أرثوذكس / ١٥٠٦٨ روم كاثوليك / ٢٥٧٥

سريان أرثوذكس / ٦٣ سريان بروتستانت / ١٣٥١ سريان كاثوليك / ٦ أقباط أرثوذكس / ١ كاثوليك / ٢٤٨ كلداني / ٢٩٥ كلدان كاثوليك / ١٦٠١ لاتين / ٢٥٣ مختلف / ٢٣ يهودي).

بصراحة ، لم أجد في داخلي سوى الدهشة الممزوجة بالضحك، كأفضل تعبير عن غرابة هذا التنوع الهائل، الذي تضمه منطقة صغيرة، داخل دولة صغيرة.. هل ثمة مبرر بعد هذا للتساؤل عن أسباب نشوب حرب أهلية في لبنان، ونحن نرى حروباً طاحنة تجري بين جماعات تتشابه في الدين والمذهب والقبيلة والانتماء!!

وفي صباح اليوم التالي، قررنا أن نواصل جولتنا في جبل لبنان، لنتجه هذه المرة إلى شمال الجبل، حيث أكثر المناطق ارتفاعاً، وجبال الجليد لا تعرف فرقاً بين صيف وشتاء، وحيث غابات الأرز الشهيرة، التي ينتمي إليها وجدانياً كل شيء هنا، حتى أنها صبغت هذا الوطن بصورتها، بعد أن توسطت شجرة الأرز علم لبنان، وصارت كثيرٌ من الأحداث التاريخية ترتبط بشعار أشجار الأرز، وكان آخرها (ثورة الأرز) كما يُطلق عليها قادة ١٤ آذار، التي أخرجت لبنان من الهيمنة السورية، ووضعت البلد على طريق السيادة والاستقلال .

رغم أن سليمان وأحمد فضّلوا الاستعانة هذه المرة بسائق آخر، يكون أكثر شباباً، كي يتمكن من السير بسلاسة في هذه الدروب الجبلية، التي سمعنا عن صعوبتها ووعورتها.. إلا أن الشك بدأ يساورني من أن ثمة رغبة خفية في التخلي عن أبي وليد، بعد أن سحب مشروع زواج المتعة الذي عرضه عليهما بداية الأمر!!

أياً كانت الدوافع وراء قرار التغيير هذا، الذي تم اتخاذه بغالبية مريحة، مع تجاهل تام للخسارة التي سأنالها بفقداني لنفوذ وامتيازات السيد.. إلا أنه لم يكن بمقدوري إلا الرضوخ لرغبات الجماهير، والانصياع لقرارات الشعب .

مع وعورة الطريق المتجه إلى أقصى شمال الجبل . ورغم محاولاتي المتكررة لإقناع سليمان أنه (لا رُز في الجبال!) بعد أن كان يُسمي الغابات المنتشرة في جبال الشمال بغابات الأرُز (بضم الراء) . إلا أن كثافة الأشجار، وعذوبة الطقس،

والضباب الذي يكسو الآفاق، لم يدع مجالاً سوى للتأمل في جمال الطبيعة .

ولم نشعر بمضي الوقت، وطول ما قطعناه من طريق، إلا بعد أن وصلنا إلى بلدة (بشرّي) . هذه البلدة الحالمة في قمة الجبل، تُعد من أهم مقرّات القوات اللبنانية، وبها يسكن الدكتور سمير جعجع أو (الحكيم) كما يناديه الجميع هنا. ورغم أن الرفاق كانوا قد أبدوا اعتراضهم وتحذيرهم لي من حضور أي فعاليات سياسية أو ثقافية في سفرتنا هذه إلى لبنان، إلا أنهم في هذه اللحظة أبدوا حرصاً شديداً على لقاء (الحكيم)، وطبعاً ـ وهو الأهم ـ لقاء عائلته الكريمة، بعد أن شاهدوا صور ستريدا جعجع زوجة الحكيم، النائبة في البرلمان عن القوات اللبنانية.. سليمان الذي ذكر أنه بدأ يحب السياسة اللبنانية، كان مصرّاً على أن نلتقط له صورة، تظهر في خلفيتها إحدى صور ستريدا جعجع على ملصق انتخابي، بعد أن قال لي بمكر : يجب أن نُثبت لبقية الأصدقاء في الرياض أن رحلتنا هذه كانت ذات طابع سياسي، لذا سألتقط لنفسي صورة مع ملصق ستريدا جعجع ، واذهب أنتَ للتصوير مع وليد جنبلاط !!

وبالقرب من بلدة بشرّي، هطلت علينا كرات الثلج القطنية بعذوبتها المنعشة، فالتقطنا بعض الصور ونحن نستمع لمزيد من الذكريات الجليدية لرجل الثلج سليمان.. ثم ما لبثنا أن لجأنا إلى مقهىً خشبي قريب، هرباً من لسع الصقيع ، وبرودة الثلج الذي ما فتئ يتزايد في الهطول .

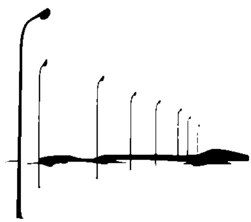
اكتشفنا أننا الزبائن الوحيدون في هذا المقهى الاستثنائي، الذي بدا ككوخ غارق في أدغال الأسكيمو . صاحبة المقهى العجوز رحّبَت بنا بكثير من اللطف، وقامت بإشعال موقد حديدي كبير يتوسط المقهى، فجلسنا حول الموقد، نحتسي الشاي والقهوة، ونرمي بقطع الحطب داخل فوهة الموقد كلما هدأ اشتعاله . ونحكي مع السيدة العجوز- التي قالت لنا أنها من بيت جعجع ـ عن الحكيم، وذكريات الحرب ، وعن سحر الطبيعة في هذه (الضَيْعَة) الحالمة وسط غابات الأرز .

لم نزد عن ساعة قضيناها في هذا المقهى التائه وسط بياض الثلج، ثم اتجهنا نزولاً من طريق مختلف، نحو مدينة طرابلس الشمالية . ووسط عشرات القرى والضِيَع الجبلية الهادئة، مروراً ببلدة حدشيت، ثم زغرتا ـ مقر تيار المردة الذي

يقوده سليمان فرنجية ـ، وصلنا إلى مدينة طرابلس قبيل العصر بقليل . وصلينا العصر في جامع كبير في المدينة، حيث رأينا لأول مرة منذ بداية رحلتنا، الشباب السني المتدين بتنوع اتجاهاته، بعد أن بتنا في المدينة التي تُعد مركز كثافة الطائفة السنية، وأكثر المدن محافظة في لبنان . وربما يتاح لاحقاً مجال أوسع للحديث عن تنوع التيارات الإسلامية في مدينة طرابلس .

تجولنا بعد العصر في الشارع الساحلي بالمدينة، وطفنا ببعض الأحياء السكنية، كحي المعرض، وحي أبي سمرا . ثم اتجهنا إلى مطعم ساحلي متخصص في المأكولات البحرية، الذي قرر فيه سليمان ـ ككل مرة ـ أن يدعونا للغداء على حسابه، رغم أنه سيدفع من ميزانية الرحلة التي بحوزته، وذلك قطعاً للطريق عن إبداء أي ملاحظات على هِوايته التي تتمثل بأكل طن من الروبيان، أثناء حديثه المتكرر حول عجزه عن فهم مبررات سمنته!!

بعد هذه الوجبة البحرية الدسمة، التي تبعها تجول على الشاطئ مشياً على الأقدام، في هذا المساء الربيعي الرائق . وعند حلول الليل، قررنا العودة إلى بيروت.



أفتش عن خطوط التماس
زمن الحرب الأهلية



3

لم نقض كل أيام رحلتنا في جولات طويلة خارج بيروت، بل اتجه كل منا في أيام أخرى لَقضاء بعض أعماله . لكن ساعة الغداء في الرابعة عصراً بقيت موعداً مقدساً، نجتمع فيه بأحد المطاعم البيروتية.. بالنسبة لي، كنت أخرج في الصباح أحياناً مع أبي وليد لقضاء بعض الأعمال التي أتيت لأجلها.. زرتُ عدداً من دور النشر، الساقي، الفارابي، المؤسسة العربية للدراسات . واستمتعت جداً بمكتبة زاخرة لم أرها من قبل، اسمها (المكتبة الشرقية) .

في أحد النهارات، طلبتُ من أبي وليد أن يأخذني بجولة في أرجاء بيروت. كنتُ أرغب في رؤية أحياء هذه المدينة الخاضعة للتقاسيم الشهيرة زمن الحرب الأهلية.. تجولتُ في الحمرا، عائشة بكّار، فردان، قريطم ـ حيث قصر الحريري ـ، الصنايع، وسواها من أحياء بيروت الغربية التي تُعتبر مقراً للطائفة السنية . وكانت زمن الحرب الأهلية معقلاً للكتلة الوطنية، التي تضم الفلسطينيين، والحزب الاشتراكي (الدروز)، والحزب الشيوعي، وعدداً من حركات اليسار، والمرابطين الناصريين، وعدداً من المجموعات السنية الصغيرة.. هذه المجموعات شكّلت حلفاً وطنياً ذا ميول يسارية في غالب مراحل الحرب الأهلية .

وامتد التجوال لرؤية أحياء بيروت الشرقية، وأشهرها حي الأشرفية، الذي كان مقراً للقوى المسيحية زمن الحرب الأهلية، حيث يوجد المقر التاريخي لحزب

الكتائب الذي أسسه بيير الجميل، وكان مقراً لميليشيا القوات اللبنانية ـ بعد انفصالها عن الكتائب ـ التي يقودها سمير جعجع، وحزب الوطنيين الأحرار الذي كان يتزعمه داني شمعون.

وفي زمن الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ٨٢، وحصاره الشهير لبيروت الغربية الذي امتد ٨٨ يوماً، وكان ياسر عرفات هو من يقود هذا الصمود في الدفاع عن بيروت، حتى انتهى هذا الحصار بالقصة المؤلمة لخروج الفلسطينيين عبر البحر إلى تونس، وسط تراجيديا ضاربة في عمق الوجدان العربي حتى اليوم.. في ذاك الزمن، كانت بيروت الشرقية، التي دخلها الإسرائيليون بعد تحالفهم مع بعض القوى المسيحيّة، من أهم مراكز الحصار والتجويع للقوى الوطنية المتمركزة والصامدة في بيروت الغربية.

كنتُ حريصاً على التجول في كلِ مواقع خطوط التماس بين بيروت الشرقية والغربية.. هذه الخطوط تُعد من أكثر الأمكنة دماراً زمن الحرب، وكانت نقاط تمركز للقنّاصين من كلا الجهتين، ولازالت كثيرٌ من المباني المدمرة في هذه المواقع شاخصة للعيان، ولم تحظ بإعادة إعمار، ربما كي تظل شاهدة على قدرة البشر ـ مهما بلغ تحضرهم ـ على التوحش، متى ما استُفزّت نوازعهم الأرضية وكوامنهم الوضيعة، حينها تغدو الحياة بلا نظام.. في ذاك الزمن، بيروت كانت خراباً.

أما الضاحية الجنوبية لبيروت ـ التي تُعد انتخابياً خارج المدينة ـ فتبدو وكأنها مدينة مختلفة، تعيش خارج النسق اللبناني المألوف. الاكتظاظ السكاني، وضعف الخدمات والمرافق، وتدني الوضع المعيشي، هو أول ما يلفت انتباه الزائر إلى هذه الضاحية، التي تُعد مركز الثقل للطائفة الشيعية، ومقراً لعمل ونفوذ حزب الله.. وفي أحياء الغبيري، وبئرالعبد، وحارة حريك، وسواها، ترى في كل مكان صوراً كبرى للخميني وخامنئي وحسن نصرالله وسواهم. حتى ليُخيل إليك أنك تطوف في أحياء قم أو مشهد، لا في لبنان!!

هذه الضاحية، كانت زمن الحرب معقلاً للحركتين الشيعيتين حزب الله وحركة أمل.. وهي التي شهدت في أواخر الحرب معارك طاحنة بين الحركتين، استمرت لشهور طويلة، وسُميت آنذاك (حرب الإخوة)، واستطاع فيها حزب الله أن يطرد حركة أمل من الضاحية.

كان يغلب على الضاحية في الستينيّات الطابع المسيحي . ولكن المسيحيين هاجروا أو طُردوا من الضاحية لحظة الاستقطاب الحاد في زمن الحرب الأهلية.. كما شهدت الضاحية في أواسط الثمانينيات سلسلة من الاغتيالات للمثقفين اليساريين والشيوعيين، وكان حزب الله هو من يقف وراء هذه الاغتيالات كما تؤكد أغلب المصادر .

في الضاحية الجنوبية تنشط العناصر الأمنية لحزب الله بشكل مكثف، وهي المسؤولة عن حماية المنطقة.. كنتُ حريصاً على رؤية المربع الأمني لحزب الله، المعروف بصرامته الأمنية، لكونه يحوي كل المقار الرئيسة للحزب.. ولأن أبا وليد لا يعرف أين يقع هذا المربع الأمني، اضطررنا للسؤال . الغريب أنه كلما سألنا أحداً ممن تبدو عليه سمات القرب من حزب الله، أجابنا بأنه لا يعرف! . سألنا أكثر من خمسة أشخاص . بعضهم يبدو من هيئته وكأنه عضو في القيادة العليا للحزب!. ومع ذلك، قد تجد في الضاحية من يرشدك - بوصف دقيق- إلى موقع مطعم فول في طرابلس!، دون أن تجد من يرشدك إلى موقع المربع الأمني لحزب الله !!.

وبعد أن يئستُ من الوصول إلى موقع المربع الأمني.. سألت أبو وليد بضجر : هل توحي أشكالنا بأننا رجال استخبارات من أوكرانيا مثلاً! حتى يتم التعامل معنا بهذا الحذر!! (باعتبار أن الاستخبارات الإسرائيلية تعرف تفاصيل المكان أكثر من بعض كوادر الحزب).

في آخر جولتي البيروتية، تجولتُ داخل مخيمي صبرا وشاتيلا، اللذَين شهدا المجزرة الشهيرة، التي راح ضحيتها ما يقارب الألفين وخمسمائة مدني فلسطيني، على يد الكتائب المارونية، التي أخذت الضوء الأخضر من الجيش الإسرائيلي، وذلك عقب الحصار الشهير عام ٨٢، وخروج المسلحين الفلسطينيين عبر البحر إلى تونس.. صبرا وشاتيلا يقعان اليوم على تخوم الضاحية الجنوبية، وقد صارا أشبه بأحياء فقيرة وسط المحيط البيروتي.. تجولت داخل شارعها الرئيسي الوحيد (عرضه قرابة الستة أمتار).. الأسواق، منازل الصفيح والطوب، العربات، الأطفال، واللهجة الفلسطينية الصميمة التي نميزها بسهولة . كل شيء يوحي بعالم مختلف، ومسحوق، ومتداعٍ، يقبع في زواريب هذا المخيم .

مساء البارحة رأيت ـ مصادفة ـ في إحدى القنوات، فيلماً عن ناجي العلي (رسام الكاريكاتير الذي قُتل في لندن أواخر الثمانينيّات).. يبدو أن الفيلم أُنتج في نهايات الحرب الأهلية.. كانت كثيرٌ من مشاهده تدور في ثنايا الحرب . ومشهد بيروت المدمرة، وحرب الفصائل، والحصار الإسرائيلي، وناجي العلي، وصحف السفير والنهار، والمقاتلون الفلسطينيّون . كل شيء يعيد ذكرى الحرب التي سُفكت في تضاعيفها دماء مائتي ألف بائس.

في مساءات بيروت كنا نقوم بنشاطات متشابهة.. جولة في (السوليدير)، الحي التجاري الحديث الذي يصفه بعض اللبنانيين، بأنه جزيرة متحضرة، محاطة بشريط من البؤس . احتساء الشاي في بعض المقاهي . والتجول سيراً على الأقدام لساعات في الطرقات البيروتية .

قبل عودتنا بيومين، قرأت في جريدة النهار إعلاناً عن فيلم سينمائي شهير، كنتُ متشوقاً لرؤيته منذ شهور، بعد أن قرأت خبراً عن نية أحد المخرجين في هوليود إنتاج هذا الفيلم.. اسمه (ميونخ)، ويحكي قصة مثيرة من تاريخ النضال الفلسطيني، قامت بها منظمة أيلول الأسود الفلسطينية، التي تكونت عقب معارك (أيلول الأسود) بين الجيش الأردني، والمنظمات الفلسطينية عام ١٩٧٠م، ونتج عنها طرد المقاتلين الفلسطينيين إلى لبنان.. وهذه المنظّمة الغامضة، قامت بعدد من العمليات المثيرة، والتي هزّت الحكومات الدولية، وشغلت العالم لأيام طويلة . من أشهر هذه العمليات، عملية (ميونخ) التي يرويها الفيلم . والتي تحكي قصة أسر عدد من المناضلين الفلسطينيين للاعبي الفريق الأولمبي الإسرائيلي، المشارك في دورة عالمية كانت تُقام في مدينة ميونخ الألمانية . وكيف جرت مواجهات بين المقاتلين ورجال الكوماندوز الإسرائيلي ، وراح ضحيتها بعض المقاتلين الفلسطينيين، وكل أعضاء الفريق الإسرائيلي. هذه القصة لم تتجاوز الربع الأول من الفيلم، وبقيته تخصص في رواية الحرب الاستخباراتية المعقدة والعنيفة، التي جرت بين الموساد الإسرائيلي المكلف بقتل عدد من القيادات السياسية والعسكرية الفلسطينية انتقاماً من هذه العملية، وبين المنظمات الفلسطينية التي لاحقت رجال الموساد بكل احتراف، وقامت بتصفيتهم واحداً تلو الآخر .

بدأ عرض الفيلم قبل يومين فقط من رجوعنا.. ولا أخفي أن هوسي بمتابعة تفاصيل تلك المرحلة، والإمكانات الإخراجية الرائعة للفيلم، والتوصيف الدقيق لأحداث ذلك الزمن، كل ذلك جعلني أكرر مشاهدة الفيلم في كلا الليلتين المتبقيتين.

لا أدري لم أبدو مسكوناً بتفاصيل الحرب اللبنانية أكثر مما يجب.. مرة، ونحن نتجول في السوليدير، قام سليمان بممارسة إحدى هواياته، التي تتمثل في أن يسأل عن أمور، يعرف يقيناً أن صاحبه يهتم بها كثيراً، في حين أنها لا تعني له هو أي شيء، ولكن يبدو أن رغبته في استمرار (السوالف) تدفعه للقيام بهكذا أسئلة، دون أن يهتم أصلاً بالاستماع للإجابة.. سألني سليمان عن شيء من تفاصيل الحرب الأهلية . فرُحْتُ أحكي له بحماس عن ذلك الموضوع، وأشير بيدي إلى جغرافية التقسيمات الفصائلية على الأرض - بما أننا نتجول بالقرب من خطوط التماس -، وأروي كيف كان الإسرائيليون والقوى المسيحية تحاصر القوى الوطنية من بيروت الشرقية.. وإذ بسليمان يقول في هذه اللحظة وهو يقضم (الفصفص) : نعم، المسيحيّون مثل جنبلاط.. طبعاً أنا توقفت فجأة عن الحديث.. وشعرتُ وكأن قرون الشر بدأت تطلع في رأسي.. بعد أن عرفت أنني وقعت في مخ خداعه طوال هذه الفترة.. قلت له بغضب : بعد كل هذا الشرح تقول لي أن جنبلاط مسيحي!! . إذاً ربما ستقول بعد قليل أن داني شمعون سلفي!، وبيير الجميّل بوذي! . يبدو أنني لو كنتُ أحكي لك عن الحرب الأهلية في كمبوديا، لما أحسستُ بالفرق!!

سليمان كان الأكثر أناقة في هذه الرحلة دون منازع - بمعزل عن موضوع انعدام الرشاقة -، خاصة إذا ما ارتدى ليلاً نظاراته السوداء.. صحيح أنه إذا لبس معطفه المخطط بألوان فاقعة، يذكرنا بزمن الانتداب الفرنسي! . لكننا قررنا أن نغض الطرف عن هذه الهوة الزمنية في الذوق العام .

مخيم عين الحلوة ..
جولة في الشوارع الخلفية لعاصمة الشتات



4

قبل عودتنا بيوم، قررت أن أقوم بجولتي الجنوبية، مستعيناً بـ أبي وليد (هناك رغبة خفية في بقاء التفوق العِرقي، وعودة امتيازات السيد).. سليمان وأحمد كانا قد اتخذا قراراً هاماً، يتمثلَ في أنهما متخصصان فقط في رحلات الشمال، وأنهما سيقاطعان أي رحلاتٍ تتجه جنوباً، طبعاً إلا إن كانت هذه الرحلات إلى شواطئ دافئة.

كانت الرحلة تهدف إلى زيارة مكانين رئيسين.. الأول هو مخيم عين الحلوة الفلسطيني. والثاني هو مُعتقل الخيام في أقصى جنوب البلاد، إضافة إلى رؤية الخط الأزرق الحدودي بين لبنان وفلسطين.

لا أدري كيف نما في داخلي هذا الشغف بتتبع تاريخ النضال الفلسطيني.. الذي أعرفه هو أنني أوغل في مزيد من المتعة الثقافية، كلما اكتشفت زوايا معتمة في تاريخ هذا النضال.. شيء آخر بتُّ أؤمن به.. هو أن هذا التاريخ، بكل تفاصيله، ونضالاته، وفصائله، وحروبه، ودهاليزه، وعذاباته، يتكثف بامتياز في مخيم عين الحلوة الفلسطيني، الواقع على تخوم مدينة صيدا في الجنوب اللبناني.

لذا لم يكن ممكناً تفويت هذه الفرصة في زيارة المخيم بعد أن وطأت أرض لبنان.

مخيم عين الحلوة يُعد أكبر تجمع للاجئين الفلسطينيين.. وفي لبنان اثنا عشر مخيماً، يقطن بها قرابة الأربعمائة ألف لاجئ فلسطيني.. من أشهرها صبرا وشاتيلا

(لوقوع المجزرة بهما) وبرج البراجنة، ويقعون على مشارف بيروت.. ومخيمات الجنوب مثل عين الحلوة والمية مية والرشيدية.. ومخيمات الشمال كـ البداوي ونهر البارد وغيرهم.. والفلسطينيون في لبنان يعيشون في أسوأ الظروف المعيشية.. هم محصورون داخل مخيمات تفتقر إلى أبسط مقومات الحياة.. ولا ينالون حتى خدمات التعليم المجاني ولا العلاج إلا من وكالة الأنروا الدولية.. إضافة إلى أنهم ممنوعون وفق الدستور اللبناني من العمل في ثمانين مهنة في البلاد (لا أدري ماذا تبقى من مهن!!).. كل ذلك خوفاً من التوطين الذي سيُخل بالمعادلة الطائفية شديدة الحساسية في لبنان.

مخيم عين الحلوة يحوي بمفرده ثمانين ألف لاجئ.. هو أكبر تجمع يخضع للفلسطينيين خارج أرض فلسطين.. وفيه تتمركز المقار الرئيسة لكل الحركات والأحزاب والتنظيمات الفلسطينية المسلحة.. لذا يُطلق عليه في لبنان (عاصمة الشتات).

يُعد مخيم عين الحلوة من أكثر المواقع خطورة في لبنان. لكونه مكتظ بالسلاح، ولا يخضع للجيش أو الأمن اللبناني اللذين لا يدخلان المخيم إطلاقاً، وذلك منذ اتفاقية القاهرة في العام ١٩٦٩م، التي أقرّت ألا تخضع المخيمات أمنياً للسلطة اللبنانية، والاكتفاء بخضوعها للأمن الذاتي للفصائل الفلسطينية. ومع ذلك فعين الحلوة لا يخضع لأمن فلسطيني محدد. بل إن كل الفصائل تمارس حريتها في الحركة والتسلّح. لذا هو يُعد أفضل مكانٍ لهروب واختباء المطلوبين أمنياً للسلطة اللبنانية. وبسبب ذلك يحوي هذا المخيم عشرات من أهم وأخطر المطلوبين أمنياً. ومع علمه بوجودهم داخل عين الحلوة، إلا أن الأمن اللبناني لا يستطيع عمل شيء بهذا الخصوص.. ورغم محدودية مساحة المخيم التي لا تتجاوز كيلو متر مربع واحد، إلا أنه وبسبب اكتظاظه، وللفوضى الأمنية السائدة به، يعد المكان الأكثر ملاءمة لنشأة ونمو الفصائل الفلسطينيّة المتطرفة.

ثمة فصيلين يعدان الأكثر قوة ونفوذاً وتسلحاً داخل المخيم. الأول هو حركة فتح، التي تنتسب تاريخياً لياسر عرفات. والثاني هو عصبة الأنصار، التي نشأت في أواخر الثمانينيات تحت مسمى (عصبة النور)، وكان يتزعمها الشيخ هشام الشريدي، الذي كان يكفّر كل الفصائل الفلسطينية الأخرى - ربما باستثناء الفصائل

الإسلامية، وقد اغتيل في عام ١٩٩١م، ولا زال رجالات العصبة يتهمون حركة فتح بتنفيذ هذا الاغتيال . وربما كان هذا الحدث من أهم بواعث التوتر الدائم والعداء الشرس بين العصبة وحركة فتح . وبعد اغتيال الشريدي تولى أحمد عبدالكريم السعدي المعروف بـ(أبي محجن) الرجل الأكثر شهرة وخطورة داخل المخيم إمارة العصبة، بعد أن تحولت من (عصبة النور) إلى (عصبة الأنصار).. ويعد مجموعة من رجالات العصبة من أهم المطلوبين أمنياً للسلطات اللبنانية، وعدد كبير منهم محكوم عليهم غيابياً بالإعدام لتورطهم في عمليات مواجهة وقتل لكثير من أفراد الأمن والجيش اللبنانيين، وعلى رأسهم أبو محجن المتهم أيضاً باغتيال نزار الحلبي شيخ (الأحباش) ورئيس جمعية المشاريع الإسلامية في العام ١٩٩٥م .

وبعد العام ٢٠٠٠م حاولت عصبة الأنصار أن تُهدِئ قليلاً من موقفها الحاد تجاه السلطة اللبنانية والفصائل الفلسطينية الأخرى، وذلك بمساعدة بقية الفصائل على ضبط الأمن داخل عين الحلوة، وعدم التورط مجدداً في مواجهات دامية مع الأمن اللبناني، رغم أنها بقيت الفصيل الأبرز في تهيئة وإرسال المقاتلين إلى العراق عبر الحدود السورية.. هذا التغير الطفيف باتجاه التهدئة في سلوك عصبة الأنصار لم يَرُق لعدد من مقاتلي العصبة، الذين فضّلوا الانشقاق، وتكوين فصيل جديد أكثر راديكالية هو (جند الشام) . إلا أن العصبة لم تدع لهذا الفصيل الجديد مجالاً واسعاً للحركة داخل المخيم . لذا انتقل بعضٌ من مقاتلي جند الشام إلى منطقة التعمير، وهي المنطقة المتاخمة للمخيم، والتي تعيش حالة مقاربة من غياب الأمن وفوضى السلاح.. لذا لا يبدو غريباً سماع أخبار شبه يومية عن إطلاق رصاص، وقتلى، ومواجهات بين الفصائل في مخيم عين الحلوة، وبالخصوص بين فتح وعصبة الأنصار .

وربما بدا غريباً أيضاً أن أحد أهم المطلوبين أمنياً للسلطة اللبنانية هو ممثل حركة فتح في لبنان، العميد سلطان أبو العينين، الذي صدر بحقه هو أيضاً حكم بالإعدام منذ عدة سنوات .

مخيم عين الحلوة بات أشبه بـ «الجيتو» المعزول عن الأثير اللبناني المحيط .

* * * *

في الطريق إلى الجنوب، حاول أبو وليد إقناعي بخطورة الدخول إلى عين الحلوة، وأنه لا شيء في المخيم يستحق الدخول . وأضاف : أنا بلغت السبعين عاماً ولم أدخل إلى عين الحلوة من قبل . حتى أثناء الحرب الأهلية ـ وكان عسكرياً في الجيش ـ لم أدخل إلى المخيم، ولا أريد أن أتورط في آخر عمري.. طبعاً أنا بدوري حاولت إقناعه أن الحياة تجارب.. وأن مخيماً مكتظاً بالنساء والأطفال لا يمكن أن يكون خطراً .

أخبرني أبو وليد ـ بعد أن يئس من تغيير المسار ـ بوجوب حصولنا على تصريحين اثنين من قِبل الجيش اللبناني، الأول لدخول عين الحلوة، والثاني لدخول أقصى الجنوب حيث الشريط الحدودي الذي كان محتلاً من إسرائيل.. اتجهنا إلى ثكنة للجيش بالقرب من مدينة صيدا، ولا تبعد كثيراً عن المخيم.. وبعد أن استلم حرس الجيش أجهزة الجوال والكاميرا التي كانت بحوزتي، أدخلونا للثكنة.. اتجهت أولاً إلى المكان المخصص لإصدار تصاريح الجنوب، وبعد أن أكملت تسليم أوراقي الرسمية، لم يزد الأمر عن عشر دقائق إلا وقد استلمنا تصريح مرور إلى الجنوب.. اتجهت بعدها إلى المكان المختص بإصدار تصاريح دخول عين الحلوة.. وإذ بالشخص المسؤول ضابط ذو رتبة عسكرية رفيعة.. بعد التحية، قلت له : من فضلك أريد تصريحاً للدخول إلى عين الحلوة.. حملق بي قليلاً، ثم قال بنزق : وما الذي تريده من دخول عين الحلوة ؟.. قلت : أريد رؤية المخيم.. رد: وما الذي تريد رؤيته!!، أنت ماذا تعمل؟.. قلت له : أنا صحفي، ومددت له بطاقتي الصحفية (كنت أظن أن ذلك سيسهل الحصول على تصريح.. وإذا بي أقع في الورطة!).. قال : أها صحفي، إذن يجب أن تذهب إلى الاستخبارات لتنال تصريحاً، الصحفيون ينالون تصريحاتهم من هناك، الموضوع ربما يحتاج إلى عشرة أيام.. قلت متداركاً : لا، لكنني لا أريد الدخول بصفتي الصحفية، لن أقوم بأي عمل صحفي في المخيم، أريد الدخول بصفة شخصية.. هنا زادت جرعة النزق وقال بصوت مرتفع : ما الذي تريد رؤيته في عين الحلوة، ماذا ستعمل هناك، إذا تعرضت للقتل أو الخطف من إحدى الفصائل فمن المسؤول عنك؟!.. قلت : أنا المسؤول، يعني إذا أعطيتموني تصريحاً هل سترسلون معي كتيبة من الجيش!!، في

كل الأحوال سأدخل وحدي.. قال بغضب: روح، لن أعطيك تصريحاً.. خرجت وأنا غاضب.. لكن رغبتي العارمة في دخول المخيم دفعتني للرجوع له بعد دقائق، قلت له بحدّة: لماذا ترفض منحي تصريحاً والنظام المكتوب والمعلق خلف كرسيك يقول أنه يمكن دخول الأجانب للمخيم بشرط الحصول على تصريح.. وبعد أخذ ورد قال صارخاً: لن أعطيك تصريحاً و (اضرب راسك في الحيط)، أنت صحفي، إذا أردت تصريحاً فاذهب للاستخبارات.. خرجت وأنا أتميز من الغيظ.

عند خروجنا من الثكنة قلت لأبي وليد: ما رأيك لو حاولنا الدخول إلى المخيم؟ في النهاية هو مخيم فيه أطفال ونساء، وليس قاعدة عسكرية، ولا أظن الأمر صعباً.. أبو وليد الذي ازدادت رغبته في عدم الدخول حاول إقناعي مرة أخرى بأنني لن أجد شيئاً مفيداً في عين الحلوة.. لكنه انقاد لإلحاحي وأنا أكرر عليه: فقط لنحاول، فإن أرجعونا فلن نتسلق الأسوار بالطبع!!.. المخيم محاط بثلاثة أطواق أمنية.. الأول ـ وهو الأهم ـ للجيش اللبناني.. والثاني والثالث لمسلحين من منظمة التحرير الفلسطينية.. اقتربنا من الحاجز الأول.. كان جنود الجيش اللبناني ـ لحسن الحظ ـ مشغولين بشيء ما بعيداً عن الحاجز.. اقترب أحدهم قليلاً.. رمقنا بعين شزرة.. ثم أشار لنا بالدخول.. مررنا بعدها بحاجزين لمنظمة التحرير اللذيَن أدخلونا مباشرة ودون عَطَلَهْ.. قلت لأبي وليد: هل رأيت كيف بدا الأمر أسهل مما تصورنا!؟

سرنا في شارع المخيّم الرئيس.. عرضه لا يزيد عن ثمانية أمتار.. يسمونه (الشارع الفوقاني)، وفي جنوب المخيّم شارع آخر يسمونه (الشارع التحتاني).. رأينا الدكاكين، منازل الصفيح والطوب، العربات، الأطفال، واللهجة الفلسطينية الصميمة .. كل شيء يوحي بعالم مختلف يتشابك في زوايا هذا المخيّم.. طلبت من أبي وليد التوقف بعد أن تجاوزنا منتصف الشارع.. رأيت جمعية لرعاية الأيتام.. طرقت الباب.. لكن لا أحد يرد.. تجولت في الشارع قليلاً، وذهبت إلى دكان صغير بدا أنه مخصص لبيع المشروبات الغازية بالجملة.. سلّمت على الشاب الذي كان يعمل في مدخل الدكّان، وقلت له: لِمَ هذه الجمعية مغلقة.. قال لي دون أن يعير سؤالي اهتماماً: لا أعرف، شوف المعلّم.. وأشار إلى داخل الدكان.. ولجتُ إلى الداخل، وإذ برجل يجلس على مكتب خشبي متواضع وقد انهمك في

تقليب أوراقه.. سلمت عليه وقلت: من فضلك لمَ الجمعية المقابلة مغلقة.. تأمل فيَّ قليلاً وقال: من أنت؟.. قلت: أنا زائر وأسأل عَن الجمعية.. ردَّ بحدة: من أنت!! ولماذا أنت هنا؟.. استغربت من سؤاله المستفز!!.. أخرجت بطاقتي الصحفية مبتسماً وقدمتها له.. ثم أخرجت جواز سفري وقلت: إذا كنت تريد أن ترى جوازي أيضاً فلا مانع لدي.. قال بعد أن شعر بشيء من الخجل: لا أبداً ولكنني استغربت وجودك.. قلت: أنا صحفي، وأحببت أن أتعرف على المخيم وأرى بعض التنظيمات الفلسطينية، هل يمكن ذلك؟.. عندها أصر عليّ بالجلوس، وفتح لي إحدى علب المشروبات الغازية، وبدأ بالحديث بعد أن شعر تجاهي بالاطمئنان.. قال: الزوار لهذا المخيم قليلون.. وهم عندما يريدون الزيارة يأتون بالتنسيق مع بعض القوى في المخيم، ولا يدخلون هكذا.. وأضاف وهو يبتسم: هل تعرف ماذا كان يمكن أن يجري لو واجهت أثناء دخولك رجالاً من (عصبة الأنصار) أو (جند الشام)، ربما قاموا بخطفك، أو على أقل تقدير الاكتفاء بضربك.. قلت والدهشة تعلوني: لماذا؟! قال: لأن كثيراً منهم مطلوبون أمنياً للسلطات اللبنانية، لذا هم يخشون من الغرباء، ويظنون دائماً أنهم مبعوثون لمتابعتهم.

وبعد أن تحدثنا قليلاً عن بعض شؤون المخيم، عرفني بنفسه.. اسمه عامر الخطيب.. أبو براء.. من مواليد عام ١٩٦٦م.. ولد ووعى وعاش في ثنايا هذا المخيم.. هو ينتمي إلى قرية قرب حيفا (معظم اللاجئين الفلسطينيين في لبنان ينتمون إلى الشمال الفلسطيني).. وله خمسة أبناء.. تخيل فقط.. أربعون عاماً وأنت في مخيم.. وتنتظر شيئاً ـ لن يأتي ـ يسمّونه «العودة».. أبو براء قال لي: أي الفصائل تريد رؤيتها؟ قلت: ما هو ممكن منها، فتح، حماس، الجبهة الشعبية، القيادة العامة، عصبة الأنصار، الجهاد، أي فصيل يمكن زيارته.. أردف: هل تريد رؤية حماس.. قلت له: بالطبع.. أنا حريص على رؤية حماس بالذات، أريد أن أعرف رأيهم في الأزمة السياسية بعد أن صاروا جزءاً من السلطة الحاكمة.. رفع سماعة الهاتف، وأجرى بعض الاتصالات، ثم قال: خلاص، عملت لكَ موعداً بعد ساعة مع قائد حماس في عين الحلوة، اسمه أبو أحمد فضل، ويدير مكتب حماس في المخيم الذي يسمى مكتب الشهيد محمود أبو هنّود (اتضح أن أبا براء

من حماس).. قلت له: وهل يمكنني خلال هذه الساعة التجول في المخيم.. قال: طبعاً، لنذهب سوياً.. أردفت وأنا أضحك: خلاص، أنا الآن في حماية حماس.

تجولنا في واحدة من مواطن الشقاء البشري.. مخيم لا تتجاوز مساحته الأصلية كيلومتراً مربعاً واحداً.. مكتظ بثمانين ألف لاجئ.. لا تعليم مجاني.. ولا علاج.. إلا ما تقدمه وكالة غوث اللاجئين (الأنروا) أو بعض المحسنين.. ازقة المخيم تتفاوت في عرضها بين الثلاثة أمتار والمتر الواحد.. في بعض الأزقة يعجز اثنان عن السير بمحاذاة بعضهما لضيق الممرات.. وفي منتصف أرض هذه الأزقة الضيقة مجارٍ مكشوفة لتصريف المياه.. فإذا جاء الشتاء وهطلت الأمطار غرق المخيم بالكاملٍ.. المطر يشكّل رُعباً هنا، خشية الغرق، وتعطل الحياة.. البيوت مزيج من الطوب والصفيح، يتم بناؤها عن طريق ما يمكن تهريبه من شحنات الطوب والإسمنت، لكون الجيش اللبناني الذي يطوِّق المخيم يرفض دخول أي مواد بناء، ويعمل وفق قرار (لا توسع).. ولكن لا أحد يستطيع الإجابة عن سؤال: وماذا عن أكوام البشر التي تولد في المخيم كل يوم؟!

تجولنا في سوق المخيم.. عبارة عن شارع عرضة قرابة الستة أمتار، ويمتد على طول أربعمائة متر.. وفي جانبي الشارع أكشاك وعربات تبيع الخضروات والملابس والحاجيات البسيطة.. يبدو أن أبا براء شخصية معروفة في المخيم.. طوال الطريق وهو لا يكف عن السلام على هذا، والمزاح مع ذاك، وسؤال هذه السيدة عن ابنها المريض.

وفي الموعد المحدد، ذهبنا لمكتب الشهيد محمود أبو هنّود، مقر حماس، وهو عبارة عن ثلاث غرف متواضعة . كان في إحدى هذه الغرف مجموعة أشخاص يتحاورون بصوت مرتفع بعض الشيء . بعد أن أطل عليهم أبو براء، قال لي: هؤلاء قادة الفصائل الفلسطينية في عين الحلوة، مجتمعون هنا للنقاش حول التوتر الذي ساد المخيم بعد تصريحات خالد مشعل الأخيرة.. كان خالد مشعل قد ألقى خطاباً عنيفاً قبل يومين، تحدث فيه عن (خونة) و (عملاء) في صفوف السلطة وبعض الفصائل، وهو ما أدى إلى استفزاز جميع الفصائل الفلسطينية الأخرى.. المخيم (ثيرمومتر) دقيق لنبض الشارع الفلسطيني.. غزَّة مصغرة، لكن خارج أثير

فلسطين.. رحب بنا بعض أعضاء المكتب، واعتذروا عن الانشغال بسبب الظروف الاستثنائية التي تسود المخيم هذه الأيام.. تحاورنا قليلاً.. وبعد قليل قَدِم الأستاذ أبو أحمد فضل ممثل حماس في عين الحلوة.. لم أُرِد أن أكون سبباً في انقطاع الحوار مع الفصائل لمجرد إشباع فضول زائر ثقيل الظل.. تحاورنا قليلاً، ثم شكرته على لطفه، وعاد من حيث أتى.. تجولنا بعدها على بعض المراكز التي تديرها حماس، من مثل دار الفرقان المختصّة بالإغاثة والتعليم، التي يديرها رجل فاضل اسمه صالح أبو طيّون (أبو بلال)، الذي شرح لي نشاطات الدار وأعمالها، وكان ودوداً للغاية.. توجهنا بعدها إلى جمعية الرأفة لرعاية الأيتام.. ثم إلى مستوصف خالد بن الوليد الذي بُني على نفقة محسنين من الإمارات.. أخذوني في جولة داخل المستوصف.. العيادات المتواضعة.. والمختبر المكون من غرفة صغيرة.. ثم أروني شيئاً.. جهاز مناظير صغير اشتروه حديثاً.. قيمته ـ حسبما فهمت ـ لا تتجاوز الخمسين ألف ريال.. ياألله.. لو رأيتم عيونهم وهي تمتلئ فخراً بامتلاك هذا الجهاز.. والألق الذي يكسو وجوههم وهم يتحدثون عن قصة شرائه، وكيف وفروا المال لذلك.. لشعرتم بزخم الصدق والبراءة التي تتدفق من قلوبهم.. ولـ لعنتم إنسانيتنا المسلوبة والتائهة في غابات الإسمنت البارد.. هنا تتكثف الروح، لتصنع إنساناً بسيطاً وصادقاً وشغوفاً بمساعدة المكدودين والمعذبين.. وسط هذا الكم من البؤس.. تُنحر إنسانية هؤلاء كل يوم على مذبح السياسة.

أمضيت في المخيم ثلاث ساعات.. وحين عدت مع أبي براء إلى حيث السيارة.. وإذ بـ أبي وليد يلوّح بكلتا يديه غاضباً وهو يقول: (لا خيي نواف)، نحن لم نتفق على هذا، أين ذهبت ياعمي، أنا أنتظرك هنا وركبتاي ترتجفان، وأقول في نفسي يمكن خطفوه، أو عملوا له أي شيء.. لم يتجاوز الأمر أن طيبت خاطره بكلمتين حتى هدأ قليلاً.. ودّعت أبا براء وشكرته على لطفه الغامر، وتوجهنا للخروج.. أبو وليد ـ بعد أن أمضى انتظاره في معرفة أفضل البوابات للخروجِ ـ اقترح علي أن نخرج من غير المدخل الذي أتينا منه، وأشار إلى أن المدخل الآخر ربما يكون أقل تدقيقاً ورقابة على هويات الخارجين.. هو كان يخشى أن يتم التدقيق على تصاريح الدخول قبل السماح لنا بالخروج.. وبالفعل توجهنا إلى بوابة مختلفة..

وبعد أن عبرنا على نقطتي التفتيش التابعتين لمنظمة التحرير، أقبلنا على الحاجز الأخير والذي يديره الجيش اللبناني.. تقدم لنا عسكري ضخم، ونظر في السيارة وقال لأبي وليد: بطاقتك.. ثم نظر إليّ وقال : أعطني بطاقتك أنت أيضاً.. أخرجت له جواز سفري.. وبعد أن تصفحه باندهاش قال لي : أين تصريح الدخول.. قلت : أنا لا أملك تصريحاً.. هنا تدخل أبو وليد وقال له أننا دخلنا من البوابة الأخرى ولم نكن نعلم أنه يجب أن نحصل على تصاريح، وأنه رقيب متقاعد في الجيش (أبو وليد كان يحكي لكل من يراه أنه رقيب متقاعد في الجيش.. كنت أتساءل : ماذا لو كان عقيداً!!).. لم يعر الجندي اهتماماً لكلام أبي وليد.. وطلب منا التوقف على جانب نقطة التفتيش.. وأخذ جواز سفري، وشرع ينقل منه بعض المعلومات، ثم هاتف الضابط في المدخل الرئيس للمخيم، وقال له : هنا رجل غريب دخل من دون تصريح.. وقام بإعطائه اسمي وجنسيتي.. وبعد عدة مكالمات باللاسلكي وبالهاتف مع وحدة الجيش في المدخل الرئيس ومع الثكنة العسكرية، وبعد عشر دقائق من الانتظار قال لنا : لا أستطيع إخراجكم، يجب أن تعودوا إلى المخيم، وتذهبوا إلى المدخل الرئيس الذي دخلتم منه، هناك سيكون الضابط في انتظاركم.. قلت في داخلي ونحن نعود أدراجنا إلى المخيم: الله يستر.. كنت أخشى أن يقوم الضابط في الثكنة بإخبار وحدة الجيش المسؤولة عن عين الحلوة بمعلومة منعهم لي من زيارة المخيم، ورفضهم منحي تصريح دخول.. وأنني مع ذلك دخلت.

قلت لأبي وليد : لن نذهب إلى المدخل الرئيس، لنمر أولاً على أبي براء، أظنهم معتادون على هكذا حالات.. وبالفعل.. عدنا لأبي براء.. حكيت له ما حصل.. قال : لا تهتم، الأمر بسيط، وسأتدبر الأمر.. وبعد عدة اتصالات أجراها، أتى شاب بحافلة خاصة بشحن المشروبات الغازية.. قال لي أبو براء : اترك سيارة الأجرة، واركب في الحافلة، سيقوم بإخراجك من بوابة مختلفة، مخصصة عادة لدخول وخروج سيارات البضائع والشحن.. وبالفعل ركبت برفقة سائق الحافلة.. شاب لطيف نسيت اسمه.. تحدثت معه قليلاً ونحن في طريقنا إلى البوابة.. ولمّا اقتربنا من حواجز منظمة التحرير، قال لي ساخراً وهو يشير إلى مسلحي المنظمة : انظر لهؤلاء، صار لهم أربعين عاماً لا يصنعون شيئاً سوى هكذا (ورفع يده ملوحاً

بالسلام).. وبالفعل.. عندما اقتربنا من الحاجز لم يتحرك أحد منهم (كانوا في حدود خمسة جنود).. وحين رفع يده إليهم ملوحاً بالسلام.. تحركوا في لحظة واحدة ـ وكأنهم كائنات آلية ـ يردون عليه بنفس الطريقة.. التفت إليّ وقال: هذا هو عملهم المقدس!! (شايف شو شغلة عظيمة).. وحين وصلنا إلى الحاجز اللبناني.. اقترب الجندي منا.. نظر إلينا على عجل، وركز نظره أكثر على ما بداخل سيارة الشحن من بضائع.. ثم أشار لنا بالخروج.. خرجنا إذن.. بعد خمس دقائق خرج أبو وليد من نفس البوابة.. ركبت معه وقلت: (شايف شو حلوه هالجولة).. هنا خرجت رجولية أبي ليد ـ في الوقت الضائع طبعاً ـ وبدأ يشتم الفلسطينيين ويقول: أنت لا تعرفهم، هؤلاء كانوا يذبحون بعضهم بعضاً أيام الحرب الأهلية!!.. وقال كلاماً كثيراً لا أظنه يعنيكم.

بعد يومين من زيارتي لعين الحلوة، وإذ بقناة الجزيرة تنقل الخبر التالي (عدد من القتلى والجرحى في مواجهات بين مسلحين ينتمون إلى فتح وجند الشام في مخيم عين الحلوة).. صرت أردد مبتسماً: (وينجّي الله الذين آمنوا).

* * * *

بعد خروجنا من المخيم توجهنا مباشرة إلى الجنوب.. كانت الساعة في حدود الثالثة عصراً.. الطريق إلى أقصى الجنوب يمر على عدد كبير من القرى والضِيع.. مررنا بمحافظة النبطية (مقر نفوذ حركة أمل)، وكفر رمان، وزفتا، وإقليم التفاح الذي كان يحوي مراكز للمقاومة، وكان دائماً ما يتعرض للقصف الإسرائيلي.. الجنوب في غالبه يسكنه مواطنون شيعة.. ولكن هناك عدداً من القرى المسيحية أيضاً مثل دير ميماس و القليعة وبرج الملوك وسواهم.. من هذه القرى تشكل معظم أفراد جيش لبنان الجنوبي الذي شكّله وقاده سعد حداد، وقاده من بعده انطوان لحد.. جيش لبنان الجنوبي الذي كان عميلاً للإسرائيليين طوال فترة الحرب الأهلية، وحتى بعد انتهائها بقي متواجداً في الشريط الحدودي المحتل الذي حرره حزب الله عام ٢٠٠٠.. وكان أفراده يُشرفون على تعذيب المقاومين اللبنانيين والفلسطينيين في معتقلات الخيام والأنصار وسواها.. ولما تحرر الجنوب

سلَّم بعضهم نفسه لحزب الله.. والبعض الآخر هرب إلى إسرائيل، ولا زال يعيش هناك. وعلى رأسهم انطوان لحد ذاته، الذي هرب إلى إسرائيل، واستقر بها لفترة، وكان دائم الحديث للإعلام عن ظلم الإسرائيليين وخداعهم له، وأنهم رفضوا حتى منحه جواز سفر إسرائيلي كي يتحرك به كما يشاء.

في الجنوب أيضاً بعض القرى السنية من مثل حاصبيّا وشبعا وكفر شوبا ومروحين وسواها، ومزارع شبعا المحتلة تعود ملكيّتها لمواطنين سنة.. المعلومة التي اندهشت لها حين حدثني عنها الجنرال أبو وليد، هي أن (سمير القنطار) عميد الأسرى اللبنانيين في السجون الإسرائيلية، والذي أُسِر منذ أزيد من ٢٨ سنة (في العام ١٩٧٨م) خلال عملية قام بها داخل إسرائيل هو ومجموعة من الكوادر المنتمية لقوى اليسار، ويتبنى حزب الله قضيته منذ مدة، ويطالب بشدة بضرورة الإفراج عنه في أي عملية تبادل أسرى، أن سمير القنطار هو درزي الطائفة، وليس شيعياً كما كنت أظن طيلة الوقت.. وصلنا إلى الشريط الحدودي.. ومررنا بحاجز للجيش اللبناني، الذي أوقفنا لبعض الوقت أيضاً.. وطلب مني جواز السفر.. وقام بالاتصالات اللازمة، بعد أن رأى تصريح المرور للجنوب.. ثم سمح لنا بالعبور.

الجنوب يتكون من مناطق جبلية في غالبه.. توجهنا إلى الشريط الحدودي.. على الشريط توجد قرية اسمها (كفر كلا)، تقع على الشبك الفاصل مع حدود فلسطين.. وهناك بوابة شهيرة اسمها (بوابة فاطمة)، توصل إلى الداخل الإسرائيلي.. ونحن في كفر كلا نرى المستوطنات الإسرائيلية عن قرب. وباستطاعتك أن ترمي بحجر من قرب البوابة (طبعاً إذا كان ساعدك صلباً، كأن تكون رقيباً في الجيش اللبناني)، وسيستقر في وسط هذه المستوطنات.

توجهنا بعد ذلك إلى قرية الخيام.. هناك حيث يوجد المعتقل الرهيب.. في هذا المعتقل سُجنت سهى بشارة، التي كتبت حكايتها النضالية الدامية في قصة (مقاوِمة) الصادرة عن دار الساقي.. وسُجن مئات المقاومين الفلسطينيين واللبنانيين.. معتقل الخيام كان من أكثر المعتقلات قسوة وامتهاناً للكرامة البشرية.. الإسرائيليون لم يستجيبوا على مدى سنوات عديدة للطلبات المتكررة من الصليب

الأحمر الذي كان يُلح بضرورة زيارة المعتقل.. ثم بعد أن تكاثرت الضغوط الحقوقية والسياسية عليهم.. استجابوا في عام ١٩٩٥م.. وقبل زيارة الصليب الأحمر اضطر الإسرائيليون إلى إجراء تحسينات نسبية على الزنازين.. كأن يوضع المعتقلون في زنازين جماعية ضيّقة (كان أغلبهم يبقى لسنوات في زنازين انفرادية مظلمة)، وأن يُسمح للمعتقلين بالخروج للتشميس كل عشرين يوماً - ولمدة عشرة دقائق فقط - وما إلى ذلك. وكان كثير من الأفراد الذين يقومون بالتعذيب تابعين لجيش لبنان الجنوبي الذي يقوده انطوان لحد.

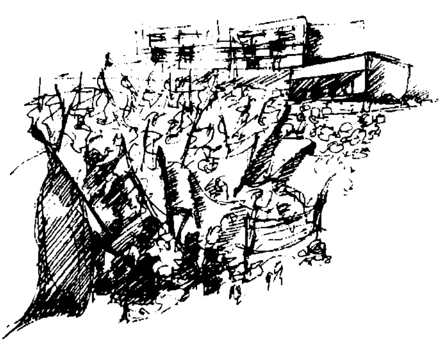
دخلت المعتقل.. هو عبارة عن ثكنة عسكرية قديمة بناها الفرنسيون زمن استعمارهم، ثم صار ثكنة للجيش اللبناني، قبل أن يحولها الإسرائيليون إلى معتقل.. هو مقسم إلى أربعة معتقلات.. أولها سجن النساء.. وهو عبارة عن مجموعة زنازين جماعية تقدر مساحة الزنزانة في حدود ١٥ متراً مربعاً، يقابلها زنازين انفرادية مساحتها متر مربع واحد.. وفي آخر هذا العنبر توجد غرفة التحقيق.. أدوات التعذيب لازالت موجودة.. أسلاك الكهرباء، حبال التعليق، عصي الضرب، وأدوات أخرى كثيرة أبدعها الشر البشري.. بعد ذلك دخلنا لبقية المعتقلات الثلاثة المخصصة للرجال.. حين رأيتها، عرفت أن معتقل النساء كان - بالمقارنة - أشبه بمنتجع بحري.. دهاليز وممرات ضيقة، غرف جماعية يتكدس فيها عشرة أشخاص وهي بالكاد تكفي لثلاثة.. وزنازين انفرادية لا تتجاوز مساحتها المتر المربع الواحد، يبقى السجين فيها لعدة شهور في ظلمة معتمة، لا يرى النور إطلاقاً، ولا يعرف الليل من النهار.. رغم أن أبواب المعتقل أثناء دخولنا كانت كلها مفتوحة.. إلا أننا كدنا نختنق من ضنك المكان، وقلة وجود منافذ لدخول الهواء.. كيف سيكون الحال مع وجود مئات المعتقلين وإغلاق جميع الأبواب!!

هذا معتقل الخيام.. هنا نحر البشر إنسانيتهم على مذبح السياسة.

الرحلة الثانية ..

من ١٢ إلى ١٦ شباط (فبراير) ٢٠٠٧م

بيروت مرة أخرى ..
ومعارك الساحات



1

فجر الثلاثاء، الثالث عشر من شباط (فبراير) ٢٠٠٧م :

رغم أن فكرة المشاركة بحضور فعاليات الذكرى الثانية لاغتيال الحريري في ١٤ شباط (فبراير) كانت تراودني منذ أسبوعين، إلا أنني لم أتخذ قرار السفر سوى قبل يوم واحد فقط من لحظة ركوبي الطائرة .

ثمة هاجس لحوح لا يفتأ يتوالى على عقلي وذهني، يتمثل في أن المشاركة والاقتراب من فعاليات سياسية استثنائية تحصل هنا أو هناك، كالانتخابات والتظاهرات وسواها، سيسهم في اكتساب مزيدٍ من الاستيعاب والفهم لجغرافيا التعقيدات السياسية، ورؤية أدق لتقاسيم المشهد الفكري والثقافي في العالم العربي.

حين سألت موظف مكتب الخطوط عن إمكانية توفر مقعد فارغ يوم غدٍ إلى بيروت، قال لي بعد أن أسدى نصائحه بألا أذهب إلى هناك : الطائرات المتّجهةً إلى بيروت فارغة دائماً .

حجزت.. وتوكلّت على الله .

عذوبة الطقس كان أول شيء تلقاني وأنا أخرج من بوابة المطار.. صحيح أننا في آخر الشتاء، ولكن لم تكن برودة الجو بالتي تبعث على الإزعاج، خاصة وهي

مشبعة ببعض الرطوبة التي كسرت خشونة الجفاف.

عندما ركبتُ مع سائق الأجرة كانت الساعة تقارب العاشرة مساءً.. بدت بيروت أشبه بمدينة فارغة، لم يكن ثمة زِحام اعتادت عليه طرق المدينة في مواسم الصيف. سائق الأجرة تحدث عن الركود الذي يجتاح البلد. وكيف باتت العيشة صعبة. وأنه صار يفكر في السفر للعمل في الخارج.. الغريب أن الكل هنا يتضجر من كساد سوق العمل وركود الاقتصاد. وكل فريق يلقي باللائمة على الفريق الآخر. وحين رفع فريق ١٤ آذار شعار (بدنا نعيش) إشارة للفريق الآخر الذي أغلق وسط المدينة التجاري، وتسبب في حرب تموز التي أرعبت السياح، وأخرجت لبنان من دائرة الخرائط السياحية. رفع فريق ٨ آذار شعاراً مشابهاً هو (بدنا نعيش بشرف)، مشيراً إلى أنه لا عيش بلا كرامة، ولا كرامة وأرضنا في شبعا لا زالت محتلة.

وصلتُ إلى الفندق الذي يقع في ذات الوسط التجاري (السوليدير) المُحاط بخيم الاعتصام. يبدو أنه الفندق الوحيد في هذه المنطقة.. ميزة هذا الفندق أنه يقع في وسط المدينة التجاري، حيث تقع على طرفية ساحة رياض الصلح التي تمتلئ بخيم اعتصام المعارضة، وساحة الشهداء (الحرية) التي تنوي قوى ١٤ آذار أن تقيم بها حشدها في الذكرى السنوية الثانية لاغتيال رفيق الحريري.. بعد أن لقيت وافر الترحيب من العاملين في هذا الفندق الصغير، لكوني - كما يبدو - النازل الوحيد، وبعد أن استلمت غرفتي ووضعت حقائبي، قررت النزول للتجول قليلاً في (السوليدير) والاقتراب من خيم الاعتصام.. لا أظن أن كثيرين حظوا بمتعة التجول مساءً في السوليدير وهو فارغ. لأنه عادة ما يغص بالمرتادين، ولا فرق في ذلك بين موسم سياحة أو سواه. لكنه بعد الأزمة السياسية الأخيرة، واعتصام المعارضة، غدا فارغاً وهادئاً بعد أن أغلقت معظم المتاجر أبوابها، والبقية التي لازالت مصرة على فتح متاجرها، تكتفي بالعمل في النهار، وتقوم بإغلاق متاجرها أول المساء.. وأنت تجول في السوليدير تتنامى المتعة في داخلك حين تتأمل هذا الإبداع المعماري الذي شُيِّد به وسط المدينة، حيث البنايات الحجرية على الطراز الأوربي القديم، والأزقة المرصوفة بعناية، والإضاءة المرسومة بأناقة واحتراف.. رجال الأمن هم الوحيدون الذين لا تكف عيونهم عن مراقبة أي

متجول في هذه الساعة المتأخرة من الليل . ومع ذلك لا أحد منهم يتعرض لك بسؤالك عن هويتك.. وعندما اقتربت من ساحة رياض الصلح، وجدت حواجز حديدية قد سدت الشارع المؤدي إلى الساحة، وعلى طرفها يقف رجل أمن، ومن ورائه تبدو خيم الاعتصام الممتدة على كل أرجاء الساحة الكبيرة.. سألت الدركي (كما يسمون الشرطي في العامية اللبنانية) أن يسمح لي بالمرور إلى الساحة.. فما زاد على أن سحب طرفاً من الحاجز، وقال لي : تفضّل . .

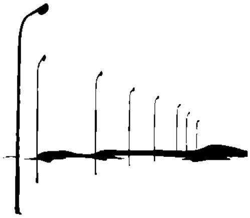
لدى دخولي إلى الساحة كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ليلاً . صادفتني مجموعة خيم متراصة، تقع بقرب السراي الحكومي (مقر الحكومة)، بدا واضحاً من خلال الأعلام وصور السادة المعممين التي تتواجد في محيطها بكثافة، أنها مقر اعتصام حزب الله.. اقتربت أكثر، وإذ بثلاثة شبان يجلسون في ساحة صغيرة تحيطها بعض الخيم، وقد أشعلوا ناراً للتدفئة.. يمكن لك - وبسهولة- أن تلحظ التوجس الذي يكسو وجوه كوادر حزب الله من مشاهدة الغرباء . سحنات وجوههم التي لا يرتسم عليها الترحيب بقدر ما تمتلئ بالحذر، تبدو أكبر من قدرتهم على إخفائها، ربما كانت تربيتهم القتالية، ومقاومتهم الطويلة للعدو الصهيوني، هي التي صبغتهم بالصرامة العسكرية، ونزعت عنهم بشاشة الترحيب التي تسود الشارع اللبناني بكل طوائفه .

لذا أحرص في هكذا حالات أن أعرِّف بنفسي على الفور، ولا أجعل مساحة للتساؤل عن الهوية.. سلّمتُ عليهم، وعرفتهم بنفسي، ومددت لهم كرتي الصحفي.. تمتاز الهوية الصحفية بكونها تبرر عادة كثيراً من مواطن الغرابة، التي يتم تفهمها تحت لافتة (التقصي والفضول الصحفي) . لكنها في الوقت ذاته لا تزيل الشكوك، خاصة عند الكوادر الأمنية التي تمتاز بالصرامة والسرية، لأنها عادة -أي الهوية الصحفية - ما تكون غطاءً سهلاً للتخفي، ويستخدمها على الدوام رجال الاستخبارات وسواهم .

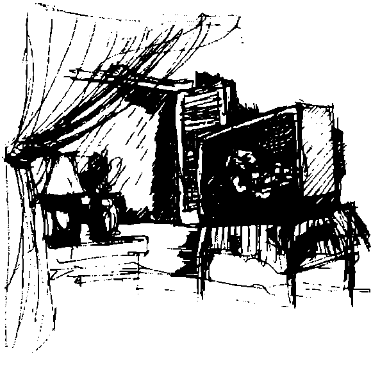
بعد التحية والسلام، سألتهم إن كان ثمة فعاليات ثقافية ستجري في خيم الاعتصام خلال الثلاثة أيام القادمة . بدورهم أخبروني ألا شيء سيجري خلال الأيام القليلة القادمة، وذلك تقديراً للمناسبة التي ستحل بعد يومين وهي الذكرى

الثانية لاغتيال رفيق الحريري، التي ستجري فعالياتها بقربهم (أي في ساحة الشهداء). ثم أضاف أحدهم متداركاً : هذه مناسبة وطنية تعنينا جميعاً، ولا فرق فيها بين معارضة وموالاة.. وبعد بعض الأحاديث المتبادلة قلت لهم مداعباً : ما شاء الله، تبدون صامدين هنا رغم مرور عدة شهور.. رد أحدهم : لا مانع لدينا في أن نبقى عشر سنين إذا لم تتخلَ الحكومة عن عنتها .

بعد أحاديث بسيطة، ودعوة للجلوس بدت مشبعة بروح المجاملة وعدم الجدية. سلَّمتُ عليهم . وقفلتُ راجعاً إلى غرفتي . وشرعت أكتب يوميّاتي قبل حلول الفجر.



مع التيار العوني..
سجال في خيم الاعتصام



2

فجر الأربعاء، الرابع عشر من شباط (فبراير) ٢٠٠٧م :

بعد أن أتممت تسطير يومياتي قبيل فجر البارحة، أخذت جولة على القنوات الفضائية اللبنانية لقراءة شريط الأخبار، ومتابعة أي برامج حوارية تقوم عادة بعرض إعادات في هذا التوقيت الميِّت من اليوم.. لم يكن ثمة حاجة لاكتشاف حجم القلق الذي يسود الشارع اللبناني بعد أن بدا واضحاً في البرامج والأخبار وحديث الناس.. هناك خشية من حدوث عمليات تفجير جديدة تضاف إلى رصيد الرعب والتخويف الذي مورس ضد قوى ١٤ آذار. وعلى الخصوص عند اقتراب أي مناسبة سياسية لهذا التيار.

أثناء مغالبتي للنعاس الذي بدأ يجتاحني وأنا أسترخي على مقعد وثير. وإذ بدوي صوت مفزع، أشبه بانفجار هائل يرج المكان.. قمت فزعاً بفتح النوافذ لمعرفة مصدر الصوت. وإذ بالمطر الغزير يهطل بشدة، ودوي الرعد - الذي لم أسمع مثله من قبل - يصم الآذان.. لا أدري حينها إن كنت قد وقعت فريسة النبوءة الإعلامية، وبت في اللاوعي أترقب أخبار انفجار.. إلا أن هذا السؤال لم يكن ليفسد عليّ استمتاعي بوخز البرد اللذيذ، ومشهد المطر الكثيف الذي امتزجت عذوبته بعذوبة صوت المنشاوي وهو يرتل آيات من القرآن - عبر جهاز

التسجيل - من مئذنة المسجد الملاصق للفندق قبيل أذان الفجر .

لكن يبدو أن هذه النبوءة لم تكن مجرد تخرّصات عرّاف .. إذ ما كدت أفتح شاشة التلفزيون بعد استيقاظي صباح هذا اليوم، إلا ويسود جميع الفضائيات المحلية والإخبارية خبر تفجير كبير حصل في قرية صغيرة في جبل لبنان اسمها (عين علق) راح ضحيته عدد من القتلى والجرحى .. التفجير كان مقلقاً أكثر من أي تفجير سابق. لكونه شكّل انعطافة مهمة في مسلسل الاغتيالات التي شهدها لبنان في السنتين الأخيرتين . إذ أنها المرة الأولى التي تُستهدف فيها حافلات لمدنيين أبرياء كانوا في طريقهم إلى أعمالهم ومدارسهم صباح هذا اليوم . في السابق لم تكن هذه الحوادث تتجاوز إطار الاغتيال السياسي الذي يطال شخصيات برلمانية وسياسية، وإن راح ضحيته عدد من الأشخاص الآخرين الذين كانوا في محيط الانفجار .

بعد ساعة من سماع التعليقات ومتابعة آخر التطورات، جلست على مكتبي الصغير بغرفتي أراجع مسودة كتاب لي اتفقت مع إحدى دور النشر البيروتية على نشره .

في ظهيرة هذا اليوم كنت على موعد مع محلل سياسي شاب ومقرب من ١٤ آذار، برز أخيراً كأحد أهم المعلقين على مجريات المشهد اللبناني في الفضائيات العربية، وهو السيد عقاب صقر .

كان موعدنا في الثانية ظهراً بمقهى ليناس في شارع الحمرا .. وهو مقهىً هادئ ورائق، وتبدو لك الذائقة الرفيعة في تنسيق الديكور والألوان منذ الوهلة الأولى لدخولك إليه . خاصة وهو يقع في الشارع الأكثر شهرة في لبنان، الذي توجد على ضفّتيه عدد من المقاهي التاريخية العريقة، التي ما فتئت تزدحم - حتى في أيام الحَرب الأهلية - بروادها من المثقفين والسياسيين والفنّانين وسواهم .

السيد عقاب - وهو ابن الضاحية الجنوبية - يُعد واحداً من المثقفين والسياسيين الليبراليين الذين يسعون لتدشين تيّار ثالث في الوسط الشيعي تحت عنوان (التيار الشيعي الحر) بهدف كسر الهيمنة والاحتكار السياسي الذي يمارسه بكل صلابة حزب الله وحليفته حركة أمل .

جلسنا قرابة الساعتين.. تحدثنا فيها مطولاً عن الخيارات السياسية المتاحة والمتوقعة وفق الاحتقان الذي يسود المناخ السياسي في البلد.. وسألته عن كثير من دهاليز الشارع السياسي اللبناني، وتفاصيل الدستور، وسبب هذا التغير الذي بدا حاداً في مواقف بعض الكُتَل، وعن قوانين اللعبة السياسية وتوازناتها بعد انتهاء مرحلة الوصاية السورية .

سألته أيضاً عن حظوظ الجنرال ميشيل عون في الرئاسة.. فتحدث باستفاضة عن طبيعة الجنرال عون الذي سماه (رجل الخيارات الخاطئة)، وكيف أنه حين تمت شرعنة الوجود السوري في لبنان بعد اتفاق الطائف تحالف مع العراق (الطرف الأضعف). وحين تعاظم النفوذ الأمريكي داخلياً تحالف مع الفرنسيين . وعندما خرج الجيش السوري من لبنان وانتهت مرحلة وصايته رجع ليتحالف مع سوريا والقوى المساندة لها محلياً كحزب الله.. لذا فإن حظوظه بالوصول لمقعد الرئاسة تلاشت مع هذا التحول الحاد الذي وقف فيه ضد القوى المطالبة بالاستقلال والسيادة، رغم أنه كان الأوفر حظاً في الجلوس على كرسي الرئاسة بقصر بعبدا لو استطاع أن يدير مساره السياسي بقدر من التعقل الدبلوماسي، وبعيداً عن نزق الجنرالات العسكريين .

بعد هذا التتبع الممتع لتفاصيل المشهد السياسي اللبناني، خرجت على عجل لتناول وجبة غداء سريعة في أحد المطاعم الهادئة بشارع الحمرا.. لأنني كنت على موعد في الساعة الخامسة مع السيد ألن عون في أحد مقاهي شارع الجميّزة المطل على ساحة الشهداء المحاذية للوسط التجاري في بيروت .

السيد ألن عون ـ وهو ابن أخ الجنرال ميشيل عون ـ من أهم الناشطين في التيار العوني (التيار الوطني الحر)، وقضى شطراً من حياته مع عمّه في منفاه الباريسي.. وتعرض هو مع عدد من الناشطين في التيار لكثير من المضايقات والعنف السياسي أثناء مرحلة الهيمنة السورية . إذ كان التيار الوطني الحر هو الأكثر قدرة على النشاط والتظاهر والتصريح برفضه للوجود السوري، وبسبب ذلك تعرض أفراده لكثير من الخشونة الأمنية التي وصلت في كثير من مراحلها إلى الاعتقال والسجن .

بعد كلمات الترحيب التقليدية سألت السيد ألن عن التحولات التي بدت حادة في مواقف التيار .

وكيف كان يدعو وبشدة للعلمانية السياسية، ثم يتحالف مع القوى التي كان يُعِدها دينية أصولية.

وكيف كان من أشد المطالبين باحتكار الدولة للسلاح، ثم يقوم بالتحالف مع ترسانة سلاح حزب الله الخارجة عن هيمنة الدولة .

وكيف كان يطالب بإنهاء عهد الوصاية السورية، ثم يعود لينضم إلى كتلة حلفاء سوريا، في ذات الوقت الذي تتواصل فيه الاغتيالات لعدد من السياسيين المعارضين للهيمنة السورية على القرار السياسي الوطني .

وكيف يقبل أن يكون أحد أدوات المشروع السياسي الإيراني السوري المرتكز على ثنائية ولاية الفقيه الدينية وأيديولوجيا البعث القومية، وكلاهما تتضادان مع أدبيات (التيار الوطني الحر) ومشروعه السياسي الذي اختطه خلال السنين الماضية.

كل ذلك وسواه هو ما تسبب في انحسار شعبيته في الشارع المسيحي . هذا الشارع الذي كان قد انتخب ميشيل عون (المناضل والمعارض للهيمنة السورية)، والداعي لسيادة الدولة واحتكارها للسلاح، ونزع سلاح حزب الله الذي تعده كثير من القوى المسيحية مهدداً لها على الصعيد الداخلي، ومخلاً بالتوازن الطائفي. لن يكون بذات الكثافة في تأييد ميشيل عون حليف سوريا وإيران، ومن أضفى الغطاء المسيحي لمشروعية سلاح حزب الله .

دار نقاش طويل حاول فيه ألن عون تبرير مواقف التيار، حيث ذكر أن التيار الوطني الحر لم يغيِّر شيئاً من استراتيجيته، وأنه لم يكن يوماً معادياً لسوريا، بل كان يطالبها فقط أن تخرج من لبنان، وإذا ما خرجت فهو حريص على أن تظل العلاقة جيدة ووثيقة مع الشقيق السوري.. كنت أعقب على كلامه بعدد من الاستدراكات والمعلومات التي تثبت حجم التغيّر - بل وجذريّته - في مواقف التيار.. بعد ذلك بدأ حديث ألن عون يأخذ منحىً آخر، يرتكز على إلقاء التبعة في حدوث بعض هذه التحولات على كاهل قوى ١٤ آذار التي كانت منذ اليوم الأول من رجوع الجنرال تقف منه - كما يقول - موقف الرافض والمنتقص لحقوقه

وشعبيته وتاريخه. وأنها هي التي تتحمل جريرة دفع الجنرال لاتخاذ هكذا مواقف! ولإجراء هكذا تحالفات!

طبعاً هذا التفسير - وإن بدا الأقرب للحقيقة - لا يمكن احتسابه في قائمة التكتيك السياسي، بقدر ما هو داخل في إطار المناكفة الشخصية، لأن الخاسر الأكبر من هذه التحولات غير المحسوبة هو الجنرال نفسه ، وتياره الذي شهد كثيراً من التقلص في حجم الشعبية والحضور بالوسط المسيحي .

الحوار الذي استمر لأكثر من ساعتين لم يخلُ من بعض التوتر والسجال الحاد، حتى أن السيد ألن عون قال لي مرة - في لحظة انفعال - ونحن نستعرض مواقف التيار مقارنة بمواقف ١٤ آذار : شو إنتا معاهم!.. قلت له ضاحكاً : أعدك أن أفكر بالانضمام إليكم، لكن بعد أن أحصل على الجنسية اللبنانية .

بعد هذا الحوار الساخن، رجعت إلى الفندق لأنال بعض الاسترخاء الذي يعيد حقن الوقود في توربينات النشاط الذهني والجسدي .

* * * *

كنت قد عزمت على أن أقضي هذه الليلة بالتجوال على خيم الاعتصام.. وفي قرابة الساعة الثامنة والنصف، وبعد أن استعدت بعض نشاطي، لبست معطفي وحملت الكاميرا، وتوجهت إلى حيث يبيت المعتصمون .

حين تدلف إلى ساحة رياض الصلح، ترى للوهلة الأولى خيم الاعتصام وهي تغطي قدراً كبيراً من مساحة الميدان، تبدو متراصّة وبالية، وتمدك بإيحاء أنك أمام مخيم للاجئين الفارين من أحد الحروب.. كانت الخيم التي تحتل المكان الأكثر أهمية وخطورة في ساحة رياض الصلح تعود لكوادر لحزب الله، حيث تغطي خيم الحزب كامل مساحة منطقة التلاقي بين السراي الحكومي والوسط التجاري والبرلمان.. السراي الحكومي هو المنطقة الأهم عند المعارضة، لكونه يمثل مركز صمود الموالاة وقوى ١٤ آذار، حيث يقيم فيه معظم وزراء الحكومة بشكل متواصل، ويديرون كثيراً من شؤون وزاراتهم من خلاله، لا من خلال مباني الوزارات ذاتها . طبعاً كل ذلك لأسباب أمنية، وخشية الاغتيالات . لذا قامت

كوادر حزب الله المعتصمة باستخدام أجهزة تصدر أشعة ليزر حمراء ـ تستخدم عادة في العروض الليلية ـ وذلك لتسليطها على جدران السراي الحكومي وكتابة شعارات الحزب والمعارضة المنادية بإسقاط الحكومة .

بعد ذلك تأتي مجموعة خيم لحركة أمل، تبدو بوضوح أقل نشاطاً وتفاعلاً، وفي وسطها تجد صورة كبيرة لموسى الصدر مؤسس الحركة في سبعينيات القرن العشرين. . ثم تأتي في النصف الآخر من الساحة خيم التيار الوطني الحر بشاراته البرتقالية الفاقعة، وخيم تيار المردة بشاراته الخضراء. . ثم تأتي قليل من الخيم الأخرى لبعض الحركات الصغيرة مثل تيار التوحيد الذي يتزعمه وئام وهاب وحركة الشعب وسواهم.

يمثل حزب الله الثقل الأكبر في كتلة المعارضة، لكونه يملك امتداداً شعبياً واسعاً ومنضبطاً، وقوة مالية ضاربة، وميليشيا مسلحة، وغطاءً خارجياً تمثله إيران وسوريا. أما شريكه في اقتسام الشارع الشيعي (حركة أمل) فيبدو أقل حضوراً عند الجماهير، حيث لا وجود يذكر له في بعض مناطق الكثافة الشيعية كالضاحية الجنوبية لبيروت ومنطقة بعلبك الهرمل . وإن كان لا زال يحظى ببعض الشعبية ـ تفوق أحياناً شعبية حزب الله ـ في بعض مدن الجنوب وقراه كما في منطقة النبطية وما يحاذيها . إضافة لافتقاده للقوة المالية والتسليح الميليشيوي .

أما القوة الثانية من حيث الأهمية والامتداد في كتلة المعارضة فهو التيار الوطني الحر، الذي كان بمثابة صك براءة للمعارضة من تهمة المذهبية، حين سكب ألواناً أخرى ـ بحضور الشارع المسيحي ـ على لوحتها الطائفية، وأحدث قدراً من التنوع الديني صبغ كتلة المعارضة بطلاء المطلبية السياسية ونزع عنها إيهاب الاصطفاف الطائفي. . إضافة لثقل التيار العوني في الشارع المسيحي ، خاصة في منطقتي المتن وكسروان وسواهما من مناطق الكثافة المسيحية في جبل لبنان .

كما أن الحضور التاريخي لتيار المردة ذي الإرث العائلي، والذي يقوده سليمان فرنجية- حفيد سليمان فرنجية الرئيس الأسبق للجمهورية اللبنانية ـ صبغ مزيداً من المشروعية على المشاركة المسيحية في كتلة المعارضة . خاصة وأن لتيار المردة نفوذه التاريخي والعائلي في منطقة الشمال حيث يتداخل الشارع المسيحي

بالكثافة السنية الكبيرة. ورغم أن مركز ثقل التيار في قضاء زغرتا المتاخم لمدينة طرابلس، إلا أنه خسر في الانتخابات البرلمانية الأخيرة بفارق بسيط في هذا القضاء، وذلك بسبب ترجيح الصوت السني ـ الذي يمثل ثقلاً كبيراً في هذه الدائرة ـ لكفة المرشحين المقربين من تيار المستقبل، كالنائبة نائلة معوض زوجة الرئيس السابق رينيه معوض الذي كان أول من تولى الرئاسة بعد اتفاق الطائف، واغتيل بعد توليه ببضعة شهور.

أول ما دخلت لساحة الاعتصام، اتجهت إلى حيث تتواجد خيم حزب الله، التي تنتظم بشكل متراص، تاركة ميداناً صغيراً يتوسط هذه الخيم، في طرفه تقع خيمة الإدارة، وبقربها خيمة مخصصة للفعاليات الثقافية، وفي محيطهما هناك عشرات من الكوادر الشبابية التي تمارس نشاطات مختلفة . دلفت إلى خيمة الإدارة بعد أن ألقيت التحية على بعض الوقوف أمام الباب . سلّمتُ على المسؤول، وعرّفته بنفسي، وسألته إن كان ثمة ندوات أو مهرجانات خطابية أو أي فعاليات ثقافية ستجري خلال هذين اليومين . وبعد أن أجاب بالنفي، حدثني قليلاً ـ بعد أن دعاني للجلوس ـ عن أهداف الاعتصام، وتطرق للحديث عن وجوب نبذ الخلافات السياسية، خاصة بين المسلمين، ولزوم التقارب بين السنة والشيعة، وأن الغرب وأمريكا يحاولان تفريق المسلمين عبر إثارة النَعَرات الطائفية.. بدا كلام محدثي أشبه بالموعظة، وكان واضحاً أنه كادر قديم ومنضبط، لكنه ميداني الطابع، ومحدود القدرات في الحديث السياسي. كان الحديث يتسع أحياناً ليشمل عدداً من المتواجدين في خيمة الإدارة، وتطرقنا لطبيعة النشاطات اليومية التي يمارسها المعتصمون . وبعد عدد من الأحاديث الودية، استأذنتهم بالانصراف، وفضّلتُ الانتقال إلى حيث تتواجد الحركات الأخرى .

اتجهت إلى مقر حركة أمل الذي كان على مقربة من خيم حزب الله . ورغم أنني لم أجد إلا بضعة أشخاص في محيط الخيم التابعة للحركة، مررت على خيمة الإدارة التي لم يكن فيها غير ثلاثة أشخاص منهمكين في تدخين الأرجيلة . ألقيت التحية التي تبعتها بعض الأحاديث البسيطة . ومن ثم توجهت إلى حيث تتواجد خيم التيار الوطني الحر .

الشارات البرتقالية أعطت روحاً مختلفة وسط هذا الشحوب الذي يسود ساحة الاعتصام . في الخيم التابعة للتيار العوني يعود النشاط ليسري من جديد . أعداد من شباب التيار ومن ضمنهم بعض الفتيات ينشطون في مقر الاعتصام . وصورة ضخمة للعماد ميشيل عون تتوسط المكان . بعد أن أخذت جولة سريعة في محيط خيم التيار، توجهت إلى حيث مقر القيادة . وفي خيمة الإدارة المتواضعة رحب بي الدكتور أرش يوربانست يعقوب ـ وهو كما يبدو أرمني الأصل ـ الذي أبدى اهتماماً بتواجد صحفي سعودي، واستعداداً لنقاش أية تساؤلات عن موقف التيار .

وبعد أن تحدثنا عن بعض تفاصيل المشهد السياسي، دخل علينا البروفيسور بسّام هاشم، وهو رجل كبير في السن، وبدا واضحاً أنه من القيادات البارزة والمرموقة في التيار، وله مساهمة في صياغة مشروعه السياسي والفكري، وقد قضى سنوات طويلة كأستاذ في الجامعات الفرنسية، ويحظى باحترام كبير لمسته من التقدير المفرط له من قبل الدكتور أرش يعقوب، الذي عرّفه بي، وطلب منه مشاركتنا في الحديث. جلس البروفيسور بعد أن ذكر أن بإمكانه مشاركتنا فقط لبضعة دقائق، لكونه مرتبط بمواعيد أخرى .

هذه الدقائق التي قرر البروفيسور بسّام هاشم مشاركتنا بها، تحوّلت إلى ما يقارب الساعتين والنصف.. حيث توغلنا في نقاش كثير من التفاصيل السياسية والفكرية التي تخص موقف التيار . وتحدثنا عن التحولات الحادة في مواقفه الأخيرة . وتطرّقنا لنقاشات تاريخية مطولة أراد بها البروفيسور أن يثبت أنه لا مشكلة تاريخية بين المسيحيين والشيعة في لبنان، وأن مشكلة المسيحيين الأولى كانت من الدولة العثمانية، ثم من القوى الدينية والقومية السنيَّة.. وبالطبع تخلل الحوار بعض مواطن الحدة والسخونة المتوقعة، لحجم التضاد الذي كان يمثله رأيانا بخصوص الواقع السياسي والتاريخ .

وعند قرابة الساعة الثانية عشرة والنصف، وبعد أن بدا الإنهاك واضحاً على كلينا، قمت بتوديعهم بعد أن عبّرت لهم عن شكري وامتناني للطفهم ومجاملتهم بالجلوس معي حتى هذا الوقت المتأخر من الليل، رغم برودة الجو، وربما ارتباطهم بأعمال أكثر أهمية .

وأنا أهمّ بالخروج من ساحة رياض الصلح، حاولت إجراء تقدير لعدد الخِيَم المتواجدة في ساحة الاعتصام، ووجدتُ أنها تتراوح بين المائة وخمسين ومائتي خيمة.. وحين تجولت حولها في طريق عودتي بعد أن تجاوزت الساعة منتصف الليل، ذهِلت حين وجدت أن أغلبها كان فارغاً، إذ لم يتبقَ في الساحة إلا أعداد محدودة من المعتصمين، يبيتون في قليل من الخِيَم المجهزة بوسائل تدفئة.. وقد وجدت حضوراً أكبر ساعة المبيت في الخِيَم التابعة لحزب الله، لكون الحزب يمتلك كوادر منضبطة ومتفرغة. وبسبب قوته المالية فهو يمتلك مجموعات مدربة عسكرياً، ومتفرغة للعمل في الحزب الذي يمثل مصدر دخلها الوحيد. حيث تتحدث بعض التقارير عن وجود بين ألف وألفي كادر حزبي متفرغ في صفوف ميليشيا حزب الله.. لذا لا أظن أن هذه الكوادر المعدة للقتال في الميدان ستجد لحظات أمتع من الاسترخاء في خِيَم الاعتصام الدافئة بوسط العاصمة، خاصة إذا صاحب ذلك شرب للشاي وتدخين للأرجيلة وسط حديث الأصدقاء عن الصمود السياسي.

وحين رجعت إلى غرفتي التي لا تبعد عن ساحة الاعتصام سوى مئات الأمتار. فوجئت بجلبة وضوضاء انتهكت صفو السكون الذي اعتدته في أروقة الفندق ليلة أمس. قال لي موظف الاستقبال بعد أن رأى دهشتي: الفندق هذه الليلة ممتلئ تماماً. لأن كثيراً من العوائل التي قررت المشاركة غداً في حشود ١٤ آذار بساحة الشهداء فضّلت المبيت هنا، حتى لا تكون مضطرة إلى قضاء ساعات وسط الزحام في طريق قدومهم إلى الساحة صباح الغد.

صعدت إلى غرفتي بعد أن عرفت أنني أبيت في فندقٍ سيقضي طوال الليل وهو يشدو بشعارات الاستقلال والسيادة والمحكمة الدولية. وسيهتف غداً لدم الحريري الذي فجَّر ثورة الأرز، ووضع لبنان في طريق الخلاص من الهيمنة السورية.

أهتف مع ١٤ آذار:

«ألله مع السنيّة»



3

فجر الخميس، الخامس عشر من شباط (فبراير) ٢٠٠٧م :

استيقظت صباح اليوم على وقع هدير الحشود، فتحت نافذة غرفتي لأطل على الشارع الموازي للفندق، والمؤدي إلى ساحة الشهداء، وإذ به مكتظ بأعداد هائلة من المتظاهرين، الذين يرفعون الأعلام اللبنانية وصور رفيق الحريري.. كانت الساعة لم تتجاوز بعد العاشرة والنصف. ارتديت ملابسي، وأكلت شيئاً مما توفر في غرفتي مع كأس من الشاي، وحملت الكاميرا وبعض الأفلام الإضافية، وتهيأت للخروج.

وأنا أهم بالنزول، خطرت في ذهني فكرة الصعود إلى سطح الفندق. ساحة الشهداء تقع خلف هذا المبنى مباشرة، والصعود إلى سطح يرتفع خمسة أدوار سيمكنني دون شك من التقاط مشهد بانورامي رائع لساحة التظاهر، ورؤية الحشود التي تتدفق على الميدان من كل الجهات. سألت شاباً لطيفاً يعمل كموظف خدمة عن إمكانية فعل ذلك، فقال لي بعد أن أبدى اهتماماً: لنحاول، أتمنى ألا تكون هناك إجراءات أمنية تحول دون الصعود.. وبالفعل، حين أطللت على ساحة الشهداء من سطح الفندق رأيت الرايات الحمراء التي لا تكف عن التلويح وهي تتوافد بأعداد كبيرة إلى محيط الساحة، ورغم أن أطرافاً من ساحة الشهداء

الكبيرة والممتدة لا تظهر أمامي بوضوح، إلا أنه بدا واضحاً أن هذا الميدان سيعجز عن استيعاب كل هذه الأعداد الضخمة للحشود، المصممة على إحياء الذكرى الثانية لاغتيال رفيق الحريري، غير مكترثة بما استهدفه انفجار البارحة في عين علق من أن يثير قلقهم ورعبهم من الاستهداف ثانية في هذه المناسبة.

وبعد أن التقطت عدداً من الصور المميزة لجموع المتظاهرين، نزلتُ إلى الشارع المحاذي للفندق، واتجهت إلى الشارع المقابل له والذي كانت الحشود تتوافد إليه أول الصباح عندما أطللت عليها من نافذة غرفتي، لكونه أحد الشرايين التي تصب مباشرة في ساحة الشهداء.

رغم الإجراءات الأمنية المشددة، إلا أنني لم أستطع فهم سبب ازدحام الحشود عند مدخل الساحة. بدأت بالدخول فيما بينهم وأنا أستحضر ميكانزمات الحركة وسط الزحام أثناء أداء الحج أو العمرة في رمضان. كان الهدف بالنسبة لي هو الوصول إلى داخل ساحة الشهداء، حتى يتاح لي التنقل بين أرجائها ورؤية أكبر قدر من تنوع فئات المتظاهرين وشعاراتهم السياسية وأعلامهم الحزبية.

الأعداد الضخمة للمحتشدين التي تسودها فئة الشباب، لم تخلُ من الكهول. بدا غريباً أن تجد شيوخاً على عكّازات وسط فورة هذا الزحام. يبدو أن الأمر كان بالنسبة لكثيرين أكبر من مجرد التعبير عن موقف سياسي. ربما رغبة في إثبات وجود، ودفاع عن هوية، وإثبات ولاء وانتماء. أظنه كان شيئاً من ذلك.

بعد لأي استطعت الوصول إلى محيط الساحة. فهمت حينها سبب هذا الزِحام الاستثنائي عند هذا المدخل بالذات، وذلك لكونه قريب من بوابة دخول الزعماء السياسيين إلى منصة إلقاء الخطابات.. كانت مكبرات الصوت الضخمة تصدح بالأغاني الوطنية، وتردد عدداً من الأغنيات التي كُتبت رثاءً وتوديعاً لرفيق الحريري بعد اغتياله.

في الطرف الغربي لساحة الشهداء يقع مسجد ضخم حديث البناء، اسمه مسجد محمد الأمين، بناه رفيق الحريري بعد سجال قانوني طويل، جرى مع أطراف سياسية حول إمكانية بناء مسجد يشير إلى طائفة محددة، في الوسط التجاري للمدينة، الذي يُفترض أن يكون ممثلاً لكل الطوائف. لكن كانت

مسوغات البناء أن هذه المنطقة في تاريخها كانت سنية خالصة، فلماذا يتم منع بناء مسجد عليها لمجرد أنها تحولت إلى وسط تجاري للمدينة!.

من يتجول في الوسط التجاري لبيروت (السوليدير) سيكتشف بسهولة دقة هذا الكلام. حيث يوجد في هذه المنطقة الصغيرة - التي لا تزيد مساحتها عن نصف كيلو متر مربع - قرابة الخمسة مساجد.. وتقع ساحة الشهداء على الطرف الشرقي للسوليدير، حيث تفصل بين الوسط التجاري ومنطقة الأشرفية التي كانت مركزاً لطائفة الروم الأرثوذكس في بدايات القرن العشرين. وكانت هذه الساحة في زمن الحرب الأهلية من أهم خطوط التماس بين بيروت الشرقية (التي كانت تهيمن عليها القوى المسيحية كالكتائب والقوات اللبنانية) وبيروت الغربية (التي كانت تسيطر عليها الكتلة الوطنية المكونة من الفلسطينيين واليساريين والدروز وبعض القوى السنية).

لكن مسجد محمد الأمين الضخم لم يتم افتتاحه حتى الآن، لأنه لم يكن قد اكتمل بناؤه ساعة اغتيل رفيق الحريري رحمه الله. ولا أدري عن سبب تأخير افتتاحه حتى الآن. ربما كان بقصد توقيت افتتاحه مع لحظة كشف حقيقة من يقف وراء جرائم الاغتيال كما حكى لي البعض.

تحت خيمة كبيرة بقرب مسجد محمد الأمين يقع قبر رفيق الحريري، وبقربه قبور ستة من معاونيه الذين قضوا معه ساعة الانفجار. هذا المكان يبقى مفتوحاً للزيارة على مدار الساعة، والأصوات الندية وهي تتلو القرآن - عبر أجهزة التسجيل - لا تتوقف أيضاً. وبقرب الضريح بُنِي نصب كبير من الكتب، هو عبارة عن كتاب واحد أرسله كل مبتعث على نفقة رفيق الحريري، كانت نتيجته بناء هرم كبير مكون من خمسة وثلاثين ألف كتاب، تمثل أعداد الطلبة المبتعثين.

حين دلفت إلى ساحة الشهداء، حاولت أن أجول في كل أرجائها. أحياناً تتجمع في هكذا تظاهرات كوادر من أنصار تيار أو حركة أو حزب في مكان متقارب، لينشدوا هتافاتهم الخاصة، وليميزوا حضورهم بمزيد من التنظيم أمام عدسات الكاميرا.

بعد أن قضيت مدة في التنقل بين أرجاء الساحة وزواياها، بدا لي بوضوح أن

الغالبية الساحقة من المتظاهرين كانوا من الطائفة السنيّة . يبدو أن العنف الإعلامي الحاد لحزب الله في المعارضة، واتهاماته التخوينية المتوالية لرئيس الحكومة وزعيم تيار المستقبل، اللذين يعدهم جمهور الطائفة السنية من أهم زعمائهم السياسيين، زاد من جرعة التوتر في الأوساط السنية، وهو ما دفعها إلى زيادة التفافها حول زعاماتها السياسية.. لا أظن أن سعد الحريري كان سيحلم بكل هذه المكاسب الجماهيرية على يد خصومه السياسيين .

كلما انتقلت من جانب إلى آخر وسط هذه الساحة أسمع مزيداً من الشعارات والهتافات السياسية . كانت في غالبها لا تخرج عن ثلاثة تنوعات . إما نقداً ـ وربما شتيمة ـ للخصوم السياسيين، وهنا يحتل حزب الله المساحة الأكبر من الهتافات والنقد . أو هتافات تفخر بالانتماء إلى طائفة، كتلك التي كانت لا تنقطع عن مسامعي أينما تجولت، حين يردد المحتشدون (ألله مع السنيّة) . أو هتافات ساخنة في تأييد سعد الحريري وتيار المستقبل وقوى ١٤ آذار.. إضافة إلى الأعلام اللبنانية الكثيفة التي صبغت الميدان باللون الأحمر، كانت تنتشر في أرجاء الساحة لوحات عليها صورة رفيق الحريري وابنه سعد، وكتب عليها (الحبيب ابن الحبيب)، ولوحات أخرى تحمل ذات الصور وكتب عليها (عمّر، علّم، حرّر) . إضافة للوحة ضخمة ومعبرة، عليها صورة رفيق الحريري وقد بدا مبتسماً وهو يضع يده على خده، وبجانبها كُتِب (والله اشتقنالك).

يمكن لي أن أتفهم لم كل هذا الحب الذي تبديه قطاعات واسعة من الشعب اللبناني ـ وبخاصة من الطائفة السنية ـ تجاه رفيق الحريري، ليس فقط لأنه لم يسفك قطرة دم في الحرب الأهلية، وكان عوناً على إنهائها، وأحد أهم عرّابي اتفاق الطائف، ولكن أيضاً لأنه كان يحمل الهم الشعبي العام، لذا كانت كل جهوده تتركز على إعادة إعمار البلد بعد خراب الحرب الأهلية، وبنى الوسط التجاري (السوليدير) الذي يُعد تحفة معمارية ومقصداً سياحياً، واهتم ببناء الاقتصاد، واستقطاب الاستثمارات الخارجية، وإنشاء المؤسسات الخيرية، التي كان من أعمال واحدة منها فقط ابتعاث أكثر من ٣٥ ألف طالب لإكمال دراساتهم العليا في الخارج . إضافة لكونه حمى المقاومة في الجنوب لسنين طويلة، وبذل جهوداً

سياسية كبيرة كي يستثني حزب الله من القائمة الأوروبية للمنظمات الإرهابية.. أي أنه باختصار جاء إلى المنصب السياسي ليبذل لوطنه، لا ليستفيد من امتيازات المنصب المحدودة في بلد كلبنان .

رأيت أيضاً في أرجاء متفرقة من الساحة بعض أعلام الحزب الاشتراكي الذي يقوده وليد جنبلاط، وأعلام أخرى للقوات اللبنانية التي يرأس هيئتها التنفيذية سمير جعجع ، وحضور محدود لحزب الكتائب ولليسار الديمقراطي .

ما أدهشني هو رؤية عدة رايات وشعارات للجماعة الإسلامية، التي تمثل مدرسة الإخوان المسلمين في لبنان، وذلك لأن الجماعة بدت حريصة على التزام قدر من الحياد بين المعارضة والموالاة، لكن يبدو أنها بدأت تميل إلى كفة الحكومة، خاصة بعد أن تولى رئاسة مكتبها السياسي النائب السابق عن الجماعة أسعد أبو هرموش، المعروف بنزوعه للتقارب مع قوى ١٤ آذار .

وفي قرابة الساعة الواحدة ظهراً خفتت أصوات الأغاني الحماسية.. وبدأت الخطابات السياسية .

ابتدأ الكلام أحد قيادات ١٤ آذار.. بدأ كلمته وسط ترقب الجماهير بأن ألقى جملة استعراضية خاطب فيها المعارضة، وذلك حين قال : (فاجأناكم، مو)، وإذ بالجماهير تضج بهتافاتها المؤيدة وبأعلى أصواتها كي تشير إلى حجم الحشود وامتدادها .

توالت بعد ذلك عدد من الخطابات الحماسية لعدد من قيادات ١٤ آذار.. كان بعضها يدعو إلى التوافق، ويذكّر المعارضة والشعب اللبناني أجمعه بفاجعة اغتيال الرئيس رفيق الحريري، التي يجب أن تكون قطرة الدم الأولى في سبيل وحدة هذا الشعب.. بينما اتسمت خطابات أخرى بنزعة التحدي والمواجهة، وقالت أن قاطرة السيادة والاستقلال تسير باندفاع نحو الحُلم، وإذا أراد عملاء عهد الوصاية مواجهتها، فستدهسهم، وتلقي بهم في قارعة الطريق .

وبعد عدد من الخطابات ألقى الدكتور سمير جعجع خطاباً حماسياً امتلأ بنزعة التصعيد ضد المعارضة، وقال إن الشعب اللبناني لن يرضى بالعودة إلى الوراء، كي تحكمه يد البطش والقتل مرة أخرى، وأن مطلب السيادة الاستقلال لن يتوقف

إلا مع آخر قطرة دم لآخر لبناني شريف في هذا البلد .

ثم أمسك بالمايكروفون الزعيم الدرزي وليد جنبلاط . وألقى خطاباً مثّل قمة التصعيد والتوتير ضد المعارضة، وخصص المساحة الأكبر من خطابه لنقد وشتيمة نظام عهد الوصاية والرئيس السوري . حتى أنه تلفظ بشتائمٍ وصِفت بالبذاءة التي لا تليق بخطاب سياسي .

وفي خاتمة هذه الكلمات تقدم سعد الدين الحريري زعيم تيار المستقبل لإلقاء خطابه وسط فورة هائلة من الهتافات الترحيبية التي ما تلبث أن تهدأ ، إلا وتعود كي تتصاعد مرة أخرى مع كل جملةٍ ساخنة أو مقطع من مقاطع خطابه.. اللافت أن خطاب الحريري اتسم بقدر واضحٍ من الهدوء والتوازن، وذكر أن يده ستظل ممدودة للشراكة مع المعارضة على أساس المحكمة الدولية وحكومة الوحدة الوطنية . وقال أن هذا الشعب له مصير واحد، إمّا أن نتعاون ونتشارك سوياً في بناء وطننا المستقل، وإلا فلن نجد أمامنا غير الخراب والدمار لهذا البلد .

بدا واضحاً أن روح التصعيد هنا، والتهدئة هناك، كانت جزءاً من لعبة توزيع الأدوار السياسية.. وفي حال قام زعيما الكتلتين الأقل حضوراً في ١٤ آذار بالتصعيد، يقوم زعيم الكتلة الجماهيرية الكبرى بالتهدئة ومد يد الشراكة.. والمعارضة فعلت في أحايين كثيرة الشيء ذاته .

وحين وصل هذا المهرجان الحاشد إلى مراحله الأخيرة، خُتمت الخطابات السياسية الملتهبة بكلمة وجدانية، ألقتها نازك الحريري زوجة رفيق الحريري، خاطبت فيها زوجها الراحل، الذي اغتالته يد الغدر، واغتالت معه حياتها وروحها كما تقول، وصارت تكتفي بالعيش على ذكراه ، لا يرافقها إلا ابتسامته الحانية التي لا تفارق خيالها ووجدانها، ومشروعاته الإنسانية التي لا تكف عن سماع كثيرين ممن لا تعرفهم وهم يلهجون بذكره الحسن وأعماله الخيّرة .

بدأت الجماهير الحاشدة تسير بانتظام خارج ساحة التظاهر، وأيديهم لا تكف عن التلويح بأعلام الوطن .

* * * *

خرجت من ساحة الشهداء قرابة الرابعة عصراً، وقد تلازم في داخلي إنهاك الجسد، ووهج الروح، وصخب الإثارة السياسية.. تناولت وجبة سريعة في أحد المطاعم القريبة، ثم قفلت إلى غرفتي كي ألقي بجسدي المتداعي على الفراش، لأنعم بقدر من الراحة والنشاط، قبل أن أقوم مرة أخرى لموعدٍ مسائي .

في الساعة الثامنة كنت على موعد مع الدكتور حسينٍ رحّال، مسؤول العلاقات الإعلامية في حزب الله . كنت حريصاً على أن ألتقي معه في ذات اليوم الذي أقيمت فيه تظاهرات ١٤ آذار، بهدف أن أسمع الانطباعات الطازجة للمعارضة عن هذا اليوم الحاشد .

كنتُ قد اتفقت مع د.حسين على أن نلتقي في مكان شهير على تخوم الضاحية الجنوبية، اسمه (مطعم وساحة القرية التراثية)، وهو مركز سياحي كبير، بُني على شكل قلعة تاريخية، ويحوي مطعماً ضخماً ومتحفاً ودكاكين تراثية، حتى أن كثيراً من حلقات برنامج (حوار مفتوح) الذي يقدّمه ويعدّه غسان بن جدو على قناة الجزيرة ، تسجل وتُبث من إحدى ساحات القرية.. هذه القرية التراثية تملكها (جمعية المبرّات الإسلامية) التي تعمل تحت إشراف السيد محمد حسين فضل الله، وهي ليست تجارية الطابع، بل يصب دخلها لصالح الأعمال الخيرية . وهذه الجمعية بالطبع مقربة من حزب الله، إن لم نقل أنها إحدى أذرعته الاجتماعية .

وفي حدود الساعة الثامنة والربع كنت مع د.حسين رحّال على طاولة واحدة في إحدى صالات المطعم . تحدثنا ابتداءً عن بعض القضايا العامة التي تخص الحزب، وعن موقف السعودية من حرب تموز، وعن بطولة رجالات الحزب الرائعة في مواجهة العدو الصهيوني.. ثم سألته عن انطباعه عما جرى اليوم في ساحة الشهداء . وكما هو متوقع ، حاول التقليل من حجم الحضور، وقال أنهم ربما لا يتجاوزون الثلاثين أو الأربعين ألفاً !! -رغم أن بعض وكالات الأنباء العالمية قدّرت الحشد بأكثر من نصف مليون متظاهر-، وأردف بأن لعبة التصوير وحركة الكاميرا تظهر دائماً الأعداد بأكثر مما هي في حقيقتها .

بعد أن قضينا المدة اللائقة ذوقياً لتبادل المجاملات، توجهت إليه بعدد من

الأسئلة عن مواقف الحزب وتصريحاته، ونشاطه السياسي بعد حرب تموز على وجه الخصوص.. ويبدو أن أسئلتي استطاعت أن تتخلص سريعاً من عبء لغة المجاملات . لذا ساد حوارنا كثير من السخونة والحدة . قلت له :

ما قصة لغة التخوين التي بدأ يمارسها الحزب بكثافة تجاه خصومه السياسيين !، لا أظن أن انطوان لحد - قائد جيش لبنان الجنوبي العميل لإسرائيل - تلقى في عشرين سنة منكم قدر الذي تلقاه قادة ١٤ آذار في شهرين! . ثم بعد كل هذا التخوين، تطلبون منهم تكوين حكومة وحدة وطنية! . لا أدري كيف يسوغ أن أقول لخصومي السياسيين (أنتم خونة وعملاء ومتآمرون!، لكن ما رأيكم أن نتشارك سوياً) !!

ثم هل في قاموسكم الأخلاقي والديني يصبح فؤاد السنيورة خائناً وعميلاً، وهو الذي رفض المطالب الأمريكية ساعة الحرب، وأصر على أن يشمل أي قرار النقاط السبعة التي تحفظ للبنان والمقاومة كرامتها، حتى أن حليفكم وقناتكم الإعلامية ساعة الحرب الرئيس نبيه بري سمّى حكومة السنيورة بـ (حكومة مقاومة).. وفي ذات القاموس الأخلاقي للحزب يكون العماد ميشيل عون هو رمز الوطنية والشرف، وهو الذي ما فتئ يفخر بأنه أول لبناني خطب في الكونغرس الأمريكي، ودعا إلى محاسبة سوريا ونزع سلاح حزب الله!، ويتباهى بأنه من كان وراء قرار مجلس الأمن ١٥٥٩ . وهو الذي زار واجتمع مع مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية في مقر السفارة الأمريكية ببيروت!!

وكيف يكون الآخرون عملاء لدول خارجية، لمجرد أن قاموا بفتح خطوط سياسية - وربما تحالفات - مع دول غربية، وفي ذات الوقت الذي لا تكتفون أنتم بالتحالف السياسي مع دول خارجية، بل إن شاحنات السلاح والذخيرة لا تتوقف عن التدفق لكم عبر الحدود السورية، وخزائن الأموال الإيرانية المفتوحة على مصراعيها لا تكف عن إمدادكم بالسيولة المادية .

وإذا كان مسوّغاً في مشروعكم السياسي القيام بعملية داخل الخط الأزرق، لأسر جنود صهاينة، في أسوأ توقيت سياسي، حيث حكومة أولمرت - الجديدة والمطعون بكفاءتها العسكرية - ما فتئت تتوعد برد عنيف على أي هجوم من قِبلكم

. إضافة إلى أنه كان أمامكم مثال شاخص، وهو ما حصل في غزة، حين قامت إسرائيل بردود عسكرية عنيفة وتدميرية تجاه المدنيين، لمجرد أن بعض المسلحين الفلسطينيين قاموا بأسر جندي إسرائيلي.. لكن مع كل هذه المعطيات السياسية السلبية، قمتم بعملية أسر الجنديين الإسرائيليين، ونتج عن ذلك تدمير لبنان، وسقوط أكثر من ألف ومائتي قتيل لبناني، وتدمير الموسم السياحي الذي يمثل مصدر دخل لقطاعات واسعة من الشعب . كل ذلك كان تحت مبرر كتبه الحزب بخط عريض، هو : (إطلاق سراح أربعة أسرى لبنانيين من الأسر الصهيوني) .

وإذا كان موقف حزب الله تجاه قضية الأسرى اللبنانيين يُعد موقفاً أخلاقياً رائعاً، وإن شاب عملية الخطف سوء تقدير سياسي . فأرجو أن تساعدني حيال عجزي عن تفسير موقف الحزب الذي لم ينبس ببنت شفة ـ فضلاً عن أن يتخذ أي مواقف سياسية أو عسكرية ـ تجاه أكثر من مائة وثلاثين أسيراً ومفقوداً لبنانياً في سوريا، وذلك بحسب إحصاءات رسمية قديمة صدرت عن الحكومة اللبنانية في زمن الوصاية السورية!!

وعلى هذا المنوال من التساؤلات، دخلت مع الدكتور حسين رحّال في نقاش سياسي ساخن، تناول كثيراً من القضايا السياسية الحالية والتاريخية في الشأن اللبناني . وهو بدوره حاول تبرير كثيرٍ من هذه النقاط، وإن كان ـ في تقديري ـ لم يُفلح في إيراد أجوبة منطقية لقدرٍ كبيرٍ من التناقضات التي أبداها الحزب مؤخراً في مواقفه السياسية .

طبعاً كنتُ أدرك أن السياسيين اللبنانيين متمرسون على الحوارات الصحفية التي قد تشوبها بعض الحدة والخشونة، حتى باتت جزءاً من ثقافتهم السياسية، بل ومنحتهم قدراً من الاحتراف والتمكن في السجال السياسي.. وربما لو افتعلت هذه الخشونة مع أحد السياسيين الخليجيين ـ لا سمح الله ـ لصفعني بأقرب ما تطاله يداه من أدوات حادة على طاولة المطعم .

كان د.حسين دائماً ما يركز في حديثه على أن حزب الله هو من تحمل عبء تحرير الجنوب، وأنه ضحى بأكثر من ألفين من خيرة أبنائه في سبيل ذلك . وأنه لا يمكن لأداة خارجية ـ كما تتهم أطراف في ١٤ آذار حزب الله بأنه أداة سورية وإيرانية

ـ بأن يقدم كل هذه التضحيات بنفسه وماله من أجل مصلحة خارجية . وأنه لا يقوم بذلك إلا من كان يؤمن إيماناً عميقاً بقضاياه الوطنية وواجباته الشرعية .

وبعد أن كرر د.حسين عدة مرات أن حزب الله هو من تحمل منفرداً عبء تحرير الجنوب، قلت له بعد أن داخلني بعض الضجر من هذا التكرار : مع كل اعتزازي وتقديري للتضحيات الرائعة التي قدمها شباب الحزب، إلا أنك تعلم أن حزب الله كان يقاوم وحيداً بقرار سوري، وأنه بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ٨٢ لم يكن يقاوم الصهاينة سوى الكتلة الوطنية التي تضمنت القوميين واليساريين، واستمر ذلك لثلاثة سنوات حتى العام ٨٥، ثم جاء القرار السوري، وتمت مضايقة القوى الوطنية حتى استطاعت إنهاء مقاومتها، وفُتِح المجال على مصراعيه لحزب الله كي يتولى المقاومة بمفردة بالتنسيق الكامل مع السوريين .

ورغم أنه لم ينكر ذلك، حاول د.حسين التأكيد على أنه كان بإمكان بقية القوى أن تستمر في مقاومتها بشكل من الأشكال رغم الرفض السوري، ولكن ذلك لم يحدث.

استمر سجالنا الذي كان يهدأ أحياناً، ويشتعل أحياناً أخرى، حتى قرابة الحادية عشرة.. لا أنكر أنني استفدت كثيراً من معرفة رأي الحزب عن كثب في كثير من الموضوعات، وازدادت قناعتي في أن كثيراً من مواقف الحزب لازالت تفتقد للتماسك والانسجام المنطقي، رغم قدراته الإعلامية الفائقة وذكائه السياسي.

خرجت من مطعم القرية التراثية بعد أن ودّعت د.حسين رحّال، وشكرته لوافر لطفه وصبره على فضول صحفي لا يمتلك القدر الكافي من اللياقة واللطف . وخرجت أمشي لبعض الوقت مستمتعاً ببرد بيروت اللذيذ، في طريق مظلم طويل هو طريق المطار القديم، الذي تقع عليه القرية التراثية، وفي داخلي ذهول من حجم هذا التنوع والتضاد في بلد صغير، تقل مساحته عن مساحة دولة قطر، ومع ذلك كان في أحايين كثيرة ، مالئ الدنيا ، وشاغل الناس .

جولة على
دور النشر البيروتية



4

فجر الجمعة، السادس عشر من شباط (فبراير) ٢٠٠٧م :

بدا هذا اليوم ـ الخميس ـ وكأنه يوم استرخاء . لم تكن ثمة تداعيات متسارعة في الارتباطات والمواعيد . . بعد أن استيقظت في التاسعة والنصف، تناولت وجبة الفطور وأنا أتصفح القنوات التلفزيونية، وشربت كوبين من الشاي، ثم قمتُ بترتيب بعض حاجياتي وأوراقي، وأجريت بعض الاتصالات . وفي حدود الساعة الحادية عشرة قررت الخروج .

كنت أنوي القيام بجولة على بعض دور النشر البيروتية . . خلال سنين متوالية من حضور معارض الكتب، نمت علاقة حميمة مع كثير من أصحاب هذه الدور أو العارضين فيها . طلبت من سائق الأجرة أن يأخذني ابتداءً إلى حي الصنايع حيث مقر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وكان من حسن حظي أن وجدت الأستاذ ماهر كيّالي صاحب الدار، الذي كنتُ قد نشرت عنده في المؤسسة العربية كتابي الأول (محاورات) خلال العام المنصرم ٢٠٠٦م . تحدثنا قليلاً حول عدد من الموضوعات، ثم تجوّلت لبعض الوقت عند الرفوف التي تحوي آخر إصدارات الدار . ولم يزد الأمر عن قضاء نصف ساعة، حتى استأذنت بالانصراف .

ذهبت بعد ذلك إلى المركز الثقافي العربي، وسلّمتُ الأستاذ حسن ياغي

مسودة كتاب آخر، كنت قد اتفقت معه قبل شهور على نشره عنده، لكن تأخرت في إنهاء بعض التعديلات عليه، رغم أنه لم يكن ثمة سبب يستدعي التأخير. وبعد أن أخذت جولة أخرى على آخر إصدارات الدار، ودّعته وأنا غير واثق من وعودي له بأن أنهي سريعاً ما تبقى من رتوش طفيفة لإكمال مسودة هذا الكتاب.

أدرت وجهتي بعد ذلك إلى دار الساقي، وحين وصلت، لم أجد السيد عصام حمدان صاحبنا الملازم لجناح الدار في كل معارض الكتب. وبعد تجوال مشابه على إصدارات الدار، توجهت إلى دار رياض الريّس. وهناك رأيت السيد محمد الجعيد، الملازم أيضاً لجناح دار الريّس في كل معارض الكتب، والذي تفضل مشكوراً بإهدائي كتابين من آخر إصدارات الدار.

في الساعة الثالثة كنت على موعد مع الأستاذ ربيع كسروان في فندق البريستول. اسم هذا الفندق حظي بشهرة إعلامية كبيرة، بعد أن صار مقراً لاجتماعات كتلة المعارضة التي كان يتزعمها وليد جنبلاط. كان ذلك في أيام الوصاية السورية وقبل اغتيال الحريري. حيث كان الإعلام دائماً ما يتحدث عن (اجتماعات البريستول) و (كتلة البريستول). وكنت حينها أتساءل عن دلالة هذا الاسم، حتى عرفت أنه مجرد انتساب إلى اسم فندق تجري فيه اجتماعات المعارضة، لملاءمة موقعه أمنيّاً وجغرافياً.. الأستاذ ربيع من أقدم العاملين في مركز دراسات الوحدة العربية، الذي يُعد - في تقديري - أهم مركز عربي للنشر. حتى صار الرجل الثاني في الهيكل التنفيذي للمركز، بعد خير الدين حسيب المثقف والسياسي العراقي العجوز. وكان لقاؤنا مزيجاً من التطرق لشؤون عالم الكتب وتقنيات النشر، والحديث عن بعض الأعمال البسيطة التي كانت بيننا.

في الرابعة والنصف عدت إلى غرفتي لبعض الوقت. نزلت بعدها في الخامسة لملاقاة صديق صحفي شاب، يعمل باحثاً سياسياً، ويدرس الماجستير في العلاقات الدولية بالجامعة اللبنانية. كنا قد اتفقنا منذ أول قدومي لبيروت على أن نلتقي مساء الخميس، لنصعد إلى الجبل للتجول والغداء. رغم أن الطقس بدا شاتياً في بيروت، فكيف إذن سيكون في أعلى الجبل الذي يقصده السيّاح لبرودته صيفاً.. صعدنا إلى منطقة (برمّانا) التي تُعد من أجمل قرى الجبل. وهناك

في مطعم ضخم وشهير اسمه (منير)، نزلنا لتناول الغداء والاستمتاع بموقعه الاستثنائي، فهذا المطعم يملك شرفة رائعة، تُطل على وادٍ كبير، تنتشر على سفوحه عدد من القرى الجبلية التي تلوذ خلف أشجار الوادي، ويطغى عليها الضباب. وإذا أقبل الليل، ترى الأضواء المتناثرة على سفوح الوادي وسط ظلام الليل الدامس، تسكب في دواخلنا كثيراً من الهدوء والسكينة، ولتنقل أرواحنا المنهكة لدنيا الحُلم، بعد أن ضَجرت من ضوضاء المدينة وصخب الحياة.

كنت حريصاً على أن يتزامن قدومنا إلى مطعم منير مع هذا الوقت بالذات، حتى نشهد ساعة من النهار وأخرى من الليل.. وفي حدود الساعة الثامنة مساء، خرجنا من المطعم، بعد أن شكرنا مديره الذي قَبِل بكل ود وترحيب بأن نصلي المغرب والعشاء في إحدى زوايا صالة المطعم رغم ازدحامها.

نزلنا إلى بيروت، وبعد أن ودّعت صديقي، توجهت إلى مقهىً في وسط المدينة. كنتُ على موعد في التاسعة مع شاب ودود من أهل طرابلس اسمه أحمد، وقد جرت بيننا سابقاً عدة أعمال واتصالات بخصوص بعض شؤون النشر والشحن وسواها، ولكننا لم نلتقِ من قبل.

أحمد ينتمي للتيار السلفي، الذي تنتشر فصائله وتنوعاته في طرابلس، حيث تمثل هذه المدينة الكتلة الأكبر للطائفة السنية في لبنان، ومن أكثر المدن محافظةً وتديّناً، وهي التي ينتسب إليها الشيخ رشيد رضا، تلميذ محمد عبده، وأستاذ حسن البنّا.. وقد بدأت أول مظاهر الحركة السلفية بطرابلس في العام ١٩٤٦ على يد شيخ شهير في المدينة لا يزال على قيد الحياة، واسمه (سالم الشهّال)، الذي أسس في ذاك العام جماعة سمّاها (شباب محمد)، وكان يُطلق عليه هو اسم أمير الجماعة. وقد انتشر الفكر السلفي في كثير من أرجاء طرابلس وفي منطقتي عكّار والضنيّة الريفيّتين اللتين تُعدان المخزون البشري الكبير للطائفة السنية، وذلك خلال عقود السبعينيّات والثمانينيّات.. وابن الشيخ سالم يُعد اليوم أيضاً من القيادات السلفية المعروفة في المدينة، واسمه (داعي الإسلام الشهّال)، وقد تمت مطاردته أمنياً في أواخر التسعينيّات وما بعد العام ٢٠٠٠م بتهمة التطرف الديني ودعم جماعات مسلّحة، خاصة بعد أحداث الضنيّة الشهيرة التي تمثلت بمواجهات

بين عشرات من الشباب السلفي وقوى الأمن في جبال منطقة الضنيّة الريفية، في قصة بات معروفاً اليوم دور المخابرات السورية (التي كانت تسيطر على لبنان في ذلك الوقت) في صنعها، وكيف دفعت الشباب المتدين قسراً للمواجهة الدامية مع رجال الأمن .

وفي أيام الحرب الأهلية، انصهرت كثيرٌ من الحركات الإسلامية والسلفية على وجه الخصوص - طبعاً باستثناء الجماعة الإسلامية التي تمثل الإخوان المسلمين- في حركة تسمى حركة التوحيد، وكان يتزعمها الشيخ سعيد شعبان. وقد سيطرت هذه الحركة في العام ١٩٨٣م على مدينة طرابلس، وأقامت إمارة إسلامية استمرت لما يقارب السنتين، حيث أغلقت المسابح والملاهي، وفرضت نظاماً دينياً صارماً.. وكان لحركة التوحيد ولسعيد شعبان علاقات سياسية مميزة، وصلت لدرجة الدعم والتمويل، مع عدد من الحركات والدول، من أهمها حكومة ما بعد الثورة في إيران، التي أمدت الحركة بالسلاح والأموال، ومنظمة التحرير الفلسطينية بزعامة ياسر عرفات، والتي دعمت حركة التوحيد، وتحالفت معها عسكرياً في مواجهة الجيش السوري والتنظيمات الموالية له، وذلك خلال الحرب الدامية التي جرت في العام ١٩٨٥م، كان من نتائجها انحسار حركة التوحيد، وانتهاء هيمنتها على طرابلس، وخروج قوات منظمة التحرير، وهيمنة الجيش السوري وحلفائه على المدينة .

حركة التوحيد ـ مع محدودية شعبيتها الحالية ـ تتواجد اليوم بجناحين، بعد أن شهدت انشقاقاً جرى في أواخر التسعينيّات على إثر وفاة الشيخ سعيد شعبان في العام ١٩٩٨م . يمثل الجناح الأول الذي يُسمى (حركة التوحيد «المجلس الأعلى») بلال شعبان الذي ورث الحركة عن والده، ويمثل الجناح الآخر الذي يُسمى (مجلس أمناء حركة التوحيد) هشام منقارة.. الظريف في الأمر، أنه رغم هذا الانشقاق، إلا أن كلا الجناحين لازال محسوباً ـ حتى بعد زوال الهيمنة السورية ـ على الاتجاه الموالي للنظام السوري في لبنان.

مع ذلك يرى كثير من الدارسين، أن التيار السلفي في طرابلس، رغم خروج اتجاهات عنفيّة محدودة، وفي فترات زمنية متفاوتة، إلا أن غالب اتجاهاته وقفت

موقفاً معتدلاً من السلطة السياسية، وكانت تعتمد منهج النصح والإرشاد وتبيين الأخطاء، دون اللجوء إلى التصعيد أو العنف .

عندما التقيت بأحمد، كنت حريصاً على أن أستمع منه لطبيعة العلاقة بين التيارات السلفية بتنوعاتها مع تيار المستقبل الذي يتزعمه سعد الحريري . وقد أدهشني حين حكى عن تفهم كثير من التنوعات السلفية لتيار المستقبل، بل ودعوة عدد من الشخصيات السلفية إلى مزيد من التقارب مع هذا التيار، لكونه يمثل المظلة الكبرى لأهل السنة في لبنان . كما أن كثيراً منهم لا يُصنِّف تيار المستقبل على أنه علماني التوجه، بل يتم اعتباره تياراً يمثل إرثاً عائلياً تقليدياً، كما هي عادة التقاليد اللبنانية منذ القديم، التي أُوجدت لدى كل الطوائف تجمعات سياسية مشابهة.. يقول أحمد أن كثيراً من الإسلاميين يعتقدون أن تقاربهم مع هذا التيار سيساهم في تصحيح عدد من الأخطاء والانحرافات التي لا يرتضونها .

بعد أن قضينا ما يقارب الساعتين من الحديث والتجول في طرقات المدينة، ودّعت أحمد، وقررت العودة إلى السوليدير حيث أسكن .

وحين وصلت، تجاوزت الفندق الذي أسكنه، واتجهت إلى داخل هذا الحي الأوروبي القديم.. الأضواء الخافتة، وزخّات المطر الخفيف، والريح المحملة بعبق أشجار الجبل، ودوي الرصاص والقصف الذي لا يفتأ طنينه يتردد في أذنيّ من زخم الماضي، ومنظر الوجوه المكدودة والمتحفّزة، وتاريخ الدم الذي أغرق أحجار الأرض، وأزمنة خطوط التماس، والحصار، وحرب الإخوة، وأكوام الجثث . ترتسم أمامي كمشهد سينمائي، شاحب الملامح، داكن الألوان، ويدي تفشل دوماً في طمس هذا السواد، من ذاكرة الأمكنة .

عدت إلى غرفتي، لأبدأ بكتابة هذه اليوميات..

وغداً سأعود بإذن الله إلى الرياض.

الرحلة الثالثة ..

من ٤ إلى ٢٢ آب (أغسطس) ٢٠٠٧م

وأهتف مع حزب الله:
«هيهات منّا الذلة»



1

ظروف العمل الذي أتيت لأجله، لم تُشرِع أمامي كثيراً من الوقت للتجول واكتشاف مزيد من جغرافيا المكان، ولقاء عدد من الشخصيات السياسية والثقافية، إلا على أضيق نطاقٍ . لكن عندما رأيت في بعض شوارع بيروت لوحاتٍ إعلانية لحزب الله، تتحدث عن مهرجان النصر الذي سيقام في ١٤ آب (أغسطس)، وذلك بمناسبة مرور عام على (النصر الإلهي) في حرب تموز التي جرت الصيف الماضي . قلتُ في داخلي : هذه مناسباتٌ تُضرب لها أكباد الإبل . لذا لا يمكن أن أفوِّت حضور هذا المشهد السياسي الاستثنائي تحت أي ذريعة، ومهما كانت ضرورات العمل.. اتصلت بالدكتور حسين رحال مسؤول العلاقات الإعلامية في حزب الله.. وطلبت منه المشاركة بحضور الاحتفال.

كنتُ قد رأيت الدكتور حسين رحال في رحلتي هذه، حيث هاتفته أول وصولي إلى بيروت، واتفقنا على أن نلتقي في مركز العلاقات الإعلامية لحزب الله في الضاحية الجنوبية.. وبالفعل التقينا، وتحاورنا قرابة الساعة والنصف.. وسألته إن كان متاحاً الالتقاء ببعض القيادات السياسية في الحزب، خلال فترة تواجدي في بيروت.. طبعاً هو بدوره طلب مني (رغم أنه يعرفني منذ مدة) أن آتي بصورة لجواز السفر، وصورة للبطاقة الصحفية، وصورة شخصية، إضافة لتعبئة استمارة طويلة تدون فيها أدق تفاصيلك الشخصية.. وفعلت كل ذلك.

الحذر، والقلق الأمني تبدو صفات واضحة عند كوادر حزب الله.. وربما يتبدى هذا بوضوح أكثر عند كوادر الحزب المرابطة في خِيَم الاعتصام.. حين زرتهم هذه المرة، وجدت أن شباب الحزب كانوا الأكثر توجساً من غيرهم، وكانوا قليلي الود في التعامل مع الغرباء . وحين أخبرتهم أنني صحفي من السعودية، بادر بعضهم بطرح سؤال متذاك : من أي المناطق في السعودية!؟.. والسؤال يهدف إلى معرفة ما إذا كنتُ من المنطقة الشرقية أو من سواها (لمعرفة احتماليّة انتمائي للطائفة الشيعية من عدمه).. وهذه عادة لبنانية صارت مؤخراً تدل على نقص في التهذيب . أن تسأل المواطن اللبناني : من أي بلد أو ضيعة هو؟ لأن السؤال هنا يشير مباشرة إلى محاولة معرفة طائفة هذا المواطن! . فإذا قال لك : من قلب بيروت أو من طرابلس أو من صيدا أو من عكار أو الضنية، فهو ٩٠٪ سني.. وإذا قال لك: من الجبل أو المتن أو الأشرفية أو كسروان أو زحلة فهو في الغالب مسيحي.. وإذا قال لك : من الجنوب أو الهرمل فهو في الغالب شيعي.. وإذا قال لك : من الشوف أو عاليه فهو في الغالب درزي.

طبعاً هناك طريقة أخرى للتعرف على الهوية الطائفية عن طريق الاسم.. فبعض الأسماء واضحة الانتماء مثل قاسم وعلي وحسين وهادي وناصر عند الشيعة، وخالد وغسان وعثمان وهشام وموفق وعمر عند السنة، وكثير من أسماء المسيحيين معروفة طبعاً.. أما أكثر الطوائف التي تحمل أسماء مكشوفة فهم المسيحيون الأرمن، لأن أسماءهم أرمنية خالصة (غبريال، بقردون، صموئيل....).

لذا إذا أردت أن تحيّر المواطن اللبناني في انتمائك الطائفي، فقل له : أنا اسمي فارس يوسف، أو عصام سلامه، ومن منطقة البقاع.. هذه الأسماء - وكثير غيرها- تسميها جميع الطوائف، كما أن أعداد المسيحيين والشيعة والسنة والدروز في منطقة البقاع متقاربة، ومناطقهم متداخلة.. وبذلك تستطيع التخفي .

طبعاً هناك كثير من الأسماء المتداخلة بين الطوائف.. بل قد تجد أحياناً أسماء تدل بشكل مباشر على طائفة، وصاحبها من طائفة أخرى.. في باريس رأيت رجلاً لبنانياً هو صاحب مكتبة عربية شهيرة، اسمه معاوية هشام، وهو شيعي يساري..

ولي صديق كان يسكن الجنوب اللبناني، وكانت دراسته وصداقاته غالبها مع الشيعة، واسمه (علي حسين)، لكنه سني، بل هو اليوم متخصص في نقد التشيع السياسي وحزب الله .

المهم.. اتفقتُ مع حزب الله على أن آتي أولاً إلى مجمّع سيد الشهداء، في منطقة الرويس بالضاحية، كي يتم تسليمي بطاقة صحفية أستطيع بها دخول المهرجان.. لكنني في البداية أحببت أن أذهب مباشرة إلى مقر المهرجان، لأرى الإجراءات التي يمكن أن تُتخذ هناك مع عموم المحتشدين.. وإذا ما حصل أي سؤال أمني أو ارتياب، فسأمارس عادة أظنها تنفع في كثير من الحالات المشابهة. ادعاء عدم المعرفة بالنظام تحت ذريعة أنني لست من أهل البلد، أي باختصار شيء من (التغابي) الذي ينفع عادة في اقتحام كثير من الأماكن المحظورة.

الحفل يقام في ساحة داخلية كبيرة وسط الضاحية الجنوبية، اسمها ساحة ملعب الراية، وقد اعتاد حزب الله أن يقيم احتفالاته بها، لكونها آمنة، ومحاطةٌ بأنصار الحزب من جميع الجهات.. أينما تجولت في الضاحية الجنوبية لا تكاد ترى تواجداً لقوات أمنية أو شرطة.. ترى فقط مجموعات شبابية ترتدي بزّات خاصة مكتوب عليها (انضباط)، وهم طبعاً من شباب حزب الله، ويقومون بكل المسؤوليات الأمنية والخدماتية، إلى درجة تنظيم السير في الطرقات .

وقبل قدومي إلى بيروت بأسابيع حصلت حادثة أثارتها كل الصحف ـ باستثناء صحف المعارضة المقربة من حزب الله ـ، وتتحدث عن اثنين من رجال الدرك (الشرطة)، كانوا يقومون بواجبهم الأمني أثناء عِراك حصل بين عدد من السكان في الضاحية الجنوبية، وإذ بكوادر حزب الله تحاصر الموقع، ويقومون باقتياد رجلي الشرطة ـ بعد أن سحبوا بطاقاتهم الرسمية ـ إلى أقرب فرع للحزب، وتعاملوا معهم بخشونة لكونهم داخل منطقة النفوذ الأمني لحزب الله، ثم أفرجوا عنهم بعد ساعات على إثر عدد من الاتصالات الحكومية المستنكرة لتصرف كوادر الحزب، وهو ما أثار مجدداً سؤالاً كبيراً . هل حزب الله يمثل دولة داخل الدولة!!.

وقبل الحفل بيومين فقط أثيرت قضية أخرى تخص ذات الموضوع، بعد أن تم اكتشاف شبكة كيبلات اتصالات أرضية (خاصة) قام الحزب بإنشائها سراً دون

علم الدولة، وتمتد هذه الشبكة من القرى الجنوبية المتاخمة للحدود الفلسطينية، وتصل حتى الضاحية الجنوبية لبيروت . وهو ما يزيد من تعزيز هيمنة الحزب، وانفصاله عن كل أنظمة الدولة وهياكلها المالية والأمنية والخدماتية.

أينما تسير في الضاحية ترى بوضوح صور الخميني، وخامنئي، وموسى الصدر، ومحمد باقر الصدر، ومحمد صادق الصدر، وعباس الموسوي، وحسن نصرالله، وسواهم تنتشر في كل الشوارع الرئيسة والميادين الكبرى في الضاحية.

قبل أن أصل إلى ميدان الاحتفال صادفتني ثلاثة حواجز أمنية خاصة بالحزب، حيث يمنع دخول السيارات من علي مسافة بعيدة عن ميدان الاحتفال، وترى أعداداً كبيرة من الناس بدأت تتوافد سيراً على الأقدام باتجاه الميدان.. في الحاجز الأخير يتم تفتيش القادمين بالحواجز الإشعاعية المعتادة في المطارات، إضافة إلى التفتيش اليدوي، والتأكد من شكل ونوع الكاميرات أو الهواتف المحمولة التي بحوزتك.

في المحيط الواسع حول ساحة الاحتفال تجد عشرات الأشخاص الذين يبدون بأشكال متشابهة.. بدلات سوداء بدون كرافته، لحى خفيفة (عوارض)، وسماعات لاسلكي تتصل مباشرة بآذانهم . إضافة إلى نظراتهم الحادة التي لا تكف عن مراقبة كل شيء.

طبعاً، قمتُ أنا عمداً بارتداء ذات الزي، بدلة سوداء بدون كرافته . ربما هي رغبةٌ في التماهي مع اللحظة.

بعد أن طفت بالمكان، سألت عن مجمّع سيد الشهداء الذي يحوي مقر تجمع الصحفيين، فاكتشفت أنه يقع على مسافة بعيدة بعض الشيء، تبعد قرابة الكيلومتر الواحد.. ذهبت إليه سيراً على الأقدام، وتوجهت داخله إلى المختصين بإصدار البطاقات الصحفية، ولم يستغرق الأمر سوى دقائق إلا وبطاقتي الصحفية جاهزة.. بعدها ركبنا في حافلات خاصة بنقل الصحفيين إلى ميدان الاحتفال، حيث الدخول بدون تفتيش وبلا توقف على الحواجز.. نزلنا من الحافلة، وقام بعض كوادر الحزب بنقلنا إلى مقر جلوس الصحفيين على مقربة من المنصة، كي يتاح لهم التصوير والبث المباشر للحدث.

في هكذا تجمعات عادة ما يلعب اللبنانيون لعبة الأرقام.. فمثلاً يتحدثون عن

أن الحشد في هذا الاحتفال تجاوز المائة ألف إنسان، وفي ذاك تجاوز المليون، وهكذا.. طبعاً الساحة التي تقام فيها احتفالات النصر في حرب تموز بالضاحية ليست بضخامة ساحات وسط العاصمة، أي ساحة الشهداء وساحة رياض الصلح.. في ساحات وسط العاصمة دائماً ما يتحدثون عن مظاهرات مليونية.. لكن الحقيقة أن تلك الساحات بالكاد تستوعب المائتي ألف أو الثلاثمائة ألف على أقصى تقدير.. أما ساحة الضاحية الجنوبية فلا أظن أنها تستوعب أكثر من ثلاثين ألفاً أو ربما خمسين ألفاً من المحتشدين في أكثر التقديرات.. لكن المهم أن جميع الأطراف في لبنان يمتلكون تقنيات تصويرية، واحتراف في استخدام الزوايا وقياسات الزوم، يستطيعون بها أن يوهموا المشاهد بأضعاف الأعداد الحقيقية للمحتشدين.

كان حضورنا ـ كما طلبوا منا ـ قبل بداية الحفل بأزيد من ساعتين.. وعلى أطراف الساحة ثمة مكبرات ضخمة للصوت ترج الساحة رجاً.. جلسنا قرابة الساعة على وقع أغاني الحرب والأناشيد الحماسية وهتافات الأنصار.. الاحتشاد لم يكن واجباً حزبياً فقط، كان أقرب لإثبات صدق الإيمان والولاء للفكرة والمبدأ والعقيدة.

بعد ساعة قَدِمت فرقة إنشادية تحظى ـ كما يبدو ـ بشهرة واسعة عند جمهور الحزب، هي فرقة الولاية.. واستمرت تشدو بأهازيج النصر والزهو والقوة، وتصدح بأغاني الوعد والوعيد لإسرائيل.

ثم جاء خطيب من الحزب، وظل يهتف بخطاب حماسي، وعبارات متفجرة، ولغة أدبية منحوتة باحتراف تعبوي مبهر : نحن جنود عباس ـ الموسوي ـ وأبناء الحسين، نحن جيش القدس الآتي من قم المقدسة.. وبين مقطع وآخر، يهتف الجميع : هيهات منّا الذلة . أو يرددون : لبيك يا نصرالله .

أكثر ما يبهر في هكذا مهرجانات، هو قدرة حزب الله الكبيرة في التجييش والحشد وتعبئة الأنصار.. من يصدّق أن هؤلاء هم ضحايا الحرب الأخيرة على لبنان!! . وأن كثيراً منهم فقد بيته أو أحداً من أفراد أسرته!! . ومع ذلك فقد نجح الحزب في توجيه التذمّر مما حصل في الحرب، كي ينصب تجاه الخصوم السياسيين في الوطن.. نجح في تحويل النقمة إلى مزيد انتماء.. طبعاً الحزب يدرك جيداً أن هذا النجاح لم يكن نتاج الخطب الحماسية والولاء الديني للحزب

فقط، بقدر ما كان - وبشكل أكبر ربما- بسبب القوة المالية التي يمتلكها الحزب، والتي دفع بموجبها أكثر من أربعمائة مليون دولار لمناصريه - كما ذكر حسن نصرالله- من الأموال الشرعية النظيفة القادمة من الخُمُس الإيراني . وأن كل هذه المبالغ ليست إلا الدفعة الأولى، ستليها دفعات أخرى في المستقبل القريب .

القوة المالية تفعل فعل السحر عند كثير من الأحزاب السياسية.. وفي لبنان يبدو أن حزب الله تفوق -بقدراته المالية- حتى على الاتجاهات ذات الولاء الخليجي كتيار المستقبل، الذي يمارس نفس اللعبة، وإن بقدرات أقل على ما يبدو .

حتى أنصار حركة أمل يرددون دائماً -في دوائرهم الداخلية التي شهدت بعضها- أن الحزب سحب البساط من تحت أرجلهم لتفوقه المالي فقط، بينما هم (فقراء)، لا يملكون شيئاً يعينهم على كسب الأنصار، أو حتى المحافظة على ولائهم.

ثم جاءت كلمة السيد حسن نصرالله على شاشة كبيرة وسط الساحة.. ولم يتوقف الحشد عن الهتاف والتصفيق وترداد الولاء حتى أشار هو لهم بالهدوء.. وبدأ نصرالله كلمته بإطلاق تحيته الشهيرة (يا أشرف الناس وأطهر الناس وأكرم الناس..).. كانت كلمة طويلة استمرت لقرابة الساعة والنصف.. تحدث في جزء مهم منها - كما يحب أن يسخر بعض الخصوم السياسيين، حين يسمونه في هذه اللحظات بالمحاسب حسن نصرالله- عن كل دولار دفعه الحزب (مع كل الخصومات، لا غنوة لهم عن التعامل بالدولار الأمريكي!)، ١٣٠ مليون دولار لتأجير مساكن مع الأثاث لمن فقدوا منازلهم، ١٩٠ مليون دولار تعويضات لترميم المنازل المتضررة، ٣٠ مليون دولار تعويضات لمحال تجارية تضررت، ٩ مليون دولار للأضرار الزراعية، ٣ مليون دولار تعويضات للصيادين.... وهكذا.

اللافت عند المحللين، أن كلمة نصرالله - على غير عادته - كانت هادئة تجاه خصومه السياسيين، ربما ليفتح الطريق أمام مبادرة رئيس المجلس التشريعي نبيه بري، التي كانت على وشك اكتمال التشكل، بهدف حل الأزمة السياسية الخانقة، قبل حلول موعد الاستحقاق الرئاسي.

كان يجلس في الصف الأمامي للحفل كثير من السياسيين والشيوخ من كل الطوائف.. حيث ترى بوضوح من خلف منصة الاحتفال تجمع لعمائم شيوخ

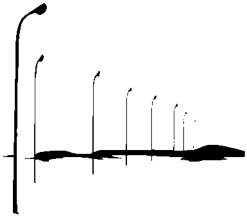
سنة، وتجمع لعمائم رجال دين دروز، إضافة للعمائم الشيعية المتناثرة في كل أرجاء الساحة .

كما حضر كثير من السياسيين من كل تيّارات المعارضة، وحضر أيضاً ممثلٌ لرئيس الدولة إميل لحود، وممثلٌ لرئيس مجلس النواب نبيه بري، وممثلٌ للجنرال ميشيل عون، وعشرات السياسيين الآخرين.

استمرت كلمة حسن نصرالله لقرابة الساعة والنصف.. ولم تتوقف الحشود خلالها عن التجييش والهتاف ورفع الأعلام وترداد عبارات الولاء.

رأيتُ أيضاً عدداً من الضيوف من دول عربية وخليجية . بل ورأيت عدداً من المعممين من شيعة القطيف والأحساء .

خرجت مع انتهاء الحفل، بعد أن كدت أفقد السمع بسبب الارتفاع المفرط للمكبرات الصوتيّة . مشيتُ وسط هذه الحشود الكثيفة، بعدما أسدل الستار، وسمعتُ (خارطة طريق) صوتية لحل كل معضلات الأمة.. ظللتُ أسيرَ في الأزقة الممتدة بين آلاف المحازبين والهتيّفة، في طريقي إلى خارج دولة حزب الله، حيث لا صراخ يصم الآذان.



ومع حزب التحرير ..
أرى الخلافة تلوح من وراء الدخان



2

حجم انتشار المُلصَق لم يكن بالذي يخفى على ضعيف البصر . ربما لا تجد حائطاً في شارع تجاري إلا وعليه أعدادٌ من هذا الملصق، أحياناً عشرات النسخ منه على حائط واحد!.. بل إنني رأيت أعداداً من هذا الملصق في مناطق جبلية وريفية بعيدة جداً عن العاصمة . كما رأيته في القرى القريبة من أعلى قمة في لبنان التي تُسمى (قرنة السوداء)، الواقعة في محافظة الضنيّة الشمالية.. لا أدري إن كانت منظمات الخُضُر قد تُدخل هذا الفعل في إطار تشويه البيئة.. المهم فقط أن إعلاناً كهذا لا يمكن أن تخطئه العين.

رأيت الملصق الإعلاني أول مرة في شارع الحمرا ببيروت، وكان على جدار بناية قديمة. للوهلة الأولى ترى صورة لجامع السلطان أحمد الضخم باسطنبول، وكُتب فوقه بخط عريض (دولة الخلافة).. تساءلت في داخلي ساخراً إن كان هذا الإعلان بقي ملتصقاً منذ أيام الدولة العثمانية!، بحيث لم تفلح حتى الحرب الأهلية في إزالته وطمسه! . لكن بعد الاقتراب أكثر، وإذ به إعلانٌ عن المؤتمر السنوي الثاني لحزب التحرير الإسلامي، الذي سيُقام ـ بحسب الملصق ـ في (ولاية لبنان)!! . وسيُعقد المؤتمر يوم الأحد ١٢ آب ٢٠٠٧ . وهو بعنوان (أنظمة المجتمع في دولة الخلافة المرتقبة).. قلت : لنرى آخر أخبار الخلافة، لأن الجهود الكبيرة في نشر هذا الملصق، ربما توحي بأن الخلافة باتت وشيكة!!

غريب أن يقوم مؤتمر لحزب التحرير علناً في دولة عربية، خاصة وأن الحزب لا يعترف بشرعية الوطن الذي ينشط فيه، وقد كتب على ملصقه أنه سيقيم مؤتمره في (ولاية لبنان)!! . كما أنهم يعتبرون النصارى أهل ذمة (رغم أنهم وفق الدستور اللبناني يعتبرون نصف السكان) . إضافة لكونهم يطالبون علناً بالانقلاب العسكري على الحكام في كل الدول العربية، لأنهم مجموعة من العملاء والخونة الذين يديرون أنظمة كافرة، تبيع أوطانها وشعوبها مقابل حفنة دولارات من المستعمر الأجنبي، إلى آخر ما اعتادوا على ترداده . . وما يزيد الأمر غرابة، أن المؤتمر يقام في قاعة حكومية شهيرة، اسمها (قصر الأونيسكو)!! أي أنهم قاموا باستئجار القاعة من الحكومة (العميلة والخائنة وغير الشرعية) . . قلت في نفسي : جيد أنهم باتوا يجدون مكاناً آمناً لإقامة نشاطهم العلني، بعد أن بدأت أمورهم تتهاوى في لندن وفي بعض العواصم الأوروبية .

في اليوم المذكور، حضرت المؤتمر . . كانت القاعة تتسع لقرابة ألف مشارك . . وفي مدخلها يتوزع عدد من الكوادر الحزبية . ملامحهم المكتنزة بالتصميم، نظراتهم الحادة، الجدية البادية في كل التفاصيل، والود الغائب وراء تروس الصرامة الحزبية، كل ذلك حقن في أوردتي مزيداً من جرعات الجاذبية والشغف، لرؤية هذا التجمع الحزبي، الذي حظي بكثير من المنع والحظر، في عقود مضت .

رغم أنني أعرف جيداً حزب التحرير، وقرأت الكثير من أدبياته الحزبية، والتقيت بعدد من كوادره في الخليج وأوروبا، إلا أن تجربة حضور تجمع علني للحزب، مكتظ بجلبة الكوادر، وصخب الأفكار والسجال، يبدو أمراً جديداً، ومشوقاً.

بعد أن أوشك الجمع على الاكتمال، تقدم مدير الحفل . وبأداء عميق ـ يشبه ذاك الذي يتحدث به الزعماء السياسيون في الأحداث التاريخية ـ افتتح المؤتمر على وقع ترنيمة صوته الوقور (نجتمع اليوم في الذكرى الرابعة والثمانين من الفاجعة . . فاجعة إلغاء الخلافة الإسلامية) . . تنبهت حينها أن تاريخ اليوم (٢٨ رجب ١٤٢٨هـ) هو التاريخ الذي شهد التوقيع على إلغاء الخلافة العثمانية في تركيا.

وبعد فاتحة مجلجلة للحفل . . تقدم أحدهم ليرتل شيئاً من القرآن الكريم . حتى الآيات التي ابتدأ بها القارئ تحمل إشارات مضمرة (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات

إلى أهلها) . أي، أيها الزعماء أرجعوا الخلافة إلى أهلها!، فبحسب أدبيات الحزب لا تعود الخلافة إلا عن طريق طلب النصرة من الحكام وقادة الجيوش.

ثم جاء شاعرهم يهدر هدراً بقصيدة تمتلئ بالعنفوان، وإن بدت ركاكتها واضحة:

يـاربِ وحِّـد بالخـلافة أمـة ... سُفكت دمـاها رحمة بعبادِ
يـاربِ واحـفظ بالخلافة عزّنا ... يـاربِ أرجـع سالف الأمجـادِ
ضاقت بنا الأرض الرحيبة ربنا ... حقق رجـاءَ عبيـدك العبادِ
صـلي وسـلم للحبيبِ محمدٍ ... لـن يُسـلم الله التقاة لعادِ

وفي ثنايا تقديم الحفل، وإلقاء القصيدة، كان عشرات الشباب في القاعة يضجون بالهتاف والتصفيق وترديد الشعارات، بشكل يوحي أننا أمام معركة تصبّحنا أو تمسّينا.

ثم جاء موعد الندوات.. وقد تم الإعداد لتقديم أربع منها، كل واحدة تحكي رؤية الحزب وتصوراته التفصيلية للكيفية التي ستعمل بها بعض قطاعات دولة الخلافة!!.. فإحداها عن نظام الحكم في دولة الخلافة، والثانية عن النظام الاقتصادي، ثم عن النظام الاجتماعي، وأخيراً عن النظام التعليمي .

يبدو أن ولع الحزب في توصيف التفاصيل الدقيقة لرؤيته السياسية، بدت أشبه بمن يملك مخططاً تفصيلياً للكيفية التي تبدو عليها مدينة ما، لكنه في ذات الوقت لا يملك (خارطة طريق) تُعلمه أين تقع هذه المدينة ، وإن كانت هي في قفار الهند! أو على جزيرة في المحيط الهادئ! .

وكما توقعت، لم تزد الندوات عن أن تكون سرداً للأنظمة التقليدية المدونة في العديد من الكتب التي أصدرها الحزب منذ عشرات السنين، مع محاولة تحديث بعض الشواهد والأمثلة التطبيقية كي تتواءم مع المتغيرات والمستجدات التي جرت مؤخراً .

أثناء استماعي لتفاصيل الندوات، كان هرم قناعتي السابقة يزداد ارتفاعاً، بعد أن أضيف له كمٌ جديد من ركام التجارب والتحاور مع كوادر وأدبيات حزب

التحرير، مفاده أن الحزب يمتلك قدرات ذهنية فائقة في البرهنة والاستدلال والمحاجّة والسجال، هو منهمك في توظيف كل هذه المهارات لتبرير قناعات وأفكار هي في غاية السطحية والتقليدية.

المؤتمر كان تبشيرياً بامتياز . هدفه التعريف ببرنامج الحزب، وسردِ بعض من أفكاره ورؤاه، والتحاور حولها مع عدد من المدعوين والمستهدفين . وكل ذلكً في المحصلة يهدف إلى كسب أنصار جدد، وإسماع صوت الحزب للعالم عن طريق تغطية بعض وسائل الإعلام .

طبعاً، أنا لم أكن في منجىً من هذا الاستهداف.. إذ ما لبث أحد كوادر الحزب أن تبادل معي بعض الحديث، الذي لم يتجاوز في بدايته أطر الترحيب والتعارف، ثم ما لبث أن صار سؤالاً عن تقييمي لما أسمع، تخلله انضمام بعض الكوادر الأخرى لحديثنا . ولم تنتهِ الدردشة إلا وقد أخذ رقم هاتفي، بعد أن دعاني للقاء خاص للتعارف والتحاور في إحدى المساءات البيروتية.. في الحقيقة، لم يتجاوز هذا الأمر أن يكون أحد أهدافي المضمرة أنا أيضاً، بغية الاقتراب أكثر من هذه الترسانة الفكرية الصلبة التي تُدعى حزب التحرير.

* * * *

بعد أربعة أيام، جاءني الاتصال، وتم تحديد الموعد، في السابعة والنصف من مساء الغد . وفي التوقيت المحدد، كنت أجول مع سائق التاكسي بغية الوصول لمكان اللقاء . وبعد بعض اللأي من البحث وسط حي شعبي أدخله لأول مرة، رأيت صاحبي يقف على رأس الشارع عند المكان المتفق عليه (عادة ما يكون التلاقي في هكذا مواعيد في رأس شارع، أو دكان معروف، ولا يكون في ذات المكان الذي سيتم فيه اللقاء، ربما لدواع أمنية) .

دخلنا في بناية منزوية ومظلمة، وصعدنا أربعة طوابق وسط الظلام . وبعد طرق خفيف، فتح الباب رجل طويل القامة، بالكاد كنتُ أرى ملامح وجهه . سلمت عليه وأنا أدخل إلى غرفة مظلمة تضيئها بعض الشموع، فباداتهم القول لتلطيف الأجواء: هذا الظلام وهذه الشموع تجعلني أبدو وكأنني في أحد أوكار الماسونية لأداء قسم

الولاء . هنا ضحك الأخوان بصوت مرتفع، وأخبراني عن قصة الكهرباء التي لا تكف عن الانقطاع، منذ أن ضرب المقاتلون في مخيم نهر البارد محطة مهمة للكهرباء بالقرب من المخيم، كانت مسؤولة عن إمداد مناطق واسعة من لبنان بالكهرباء .

ولم تمضِ عشر دقائق، إلا وعادت الكهرباء لتشعل الأضواء . سألتهم في البداية عن قصة الانشقاق الذي حصل بالحزب في ولاية الأردن ـ صرتُ أستخدم مصطلحاتهم ـ حتى صار لحزب التحرير فصيلان، أحدهما يقوده عطا أبو رشته ومعه الجسم الأكبر من الحزب، والآخر يقوده بكر خوالدة . فحكى لي المحاور الرئيس وصاحب البيت عن أن أسباب الانفصال كانت واهية، وأنها نتاج مجموعة من الشباب المتحمس، الذين وضعوا بعض الملحوظات التفصيلية على أداء الحزب، من مثل أن الحزب لازال يعيش مرحلته الثانية (مرحلة التثقيف)، ولا يجب أن ينتقل للمرحلة الثالثة التي يمارسها حالياً، وهي مرحلة طلب النصرة لإعادة الخلافة . كما أنهم اعترضوا على قضايا هامشية، مثل أن الحزب بدأ يغيِّر الصيغة المعتمدة للإصدارات، المعتمدة منذ القديم بشكل محدد، وهو أن يكون غلافها أبيض، ويُكتب عليه العنوان باللون الأحمر، وأن أي تغيير في طريقة وشكل إصدارات الحزب، يُعتبر خروجاً على خطه وتعاليمه!

أظنني أحسنتُ صنعاً يوم بادرته ببعض الأسئلة الاستفهامية، لأنه أمدني ببعض المعلومات الداخلية المهمة، التي لا أظن أنه كان سيبوح بها فيما لو سألته إياها في آخر اللقاء، بعد أن تكون سخونة الحوار قد قضت على رغبته في الإفصاح عن أي معلومات تشير إلى نقاط جديدة، يمكن أن تُستخدم للإشارة إلى ضعف الحزب.. مع ذلك لم يتردد محاوري في أن يقول لي ضاحكاً : ليتني لم أخبرك . وذلك حين استخدمت بعض المعلومات التي ذكرها هو في بداية اللقاء أثناء حوارنا .

وأنا في طريقي إلى مكان اللقاء، قمتُ بتسجيل ما يقارب العشر نقاط، كنت أنوي أن نناقشها بقدر الوقت المتاح . غالبها كان عن تفاصيل برنامج الحزب، ومشروعه السياسي، ورؤاه الشرعية . لكنني حين شرعتُ في الحوار، بدأت بالسؤال حول نقطة هي بمثابة المدخل، وتتمثل في السؤال التالي :

حزب التحرير وضع نظاماً تفصيلياً جداً لطبيعة هيكل دولة الخلافة، ومؤسساتها،

وهياكل صلاحيات كل المسؤولين فيها، وسوى ذلك.. ولكنه في المقابل لم يضع تصوراً لكيفية الوصول إلى إقامة هذه الخلافة!، أي أنه لا يمتلك أي رؤية عملية وواقعية لكيفية إقامة الدولة، وتعتمد طريقته الوحيدة على (طلب النصرة) من الحُكام وقادة الجيوش، أي الطلب من هؤلاء أن يسلموا دولتهم لحزب التحرير ليقيم عليها الخلافة الإسلامية . وهذه الطريقة توقيفيّة عند الحزب، ولا يجوز تغييرها، لأنها ـ كما تقولون ـ الطريقة التي اتبعها الرسول عليه الصلاة والسلام في إقامة الدولة الإسلامية عندما كان في مكة.. وكان في تصور الحزب أن الأمر لن يزيد عن ثلاثة عشر عاماً ـ هي المدة التي قضاها الرسول في مكة قبل الهجرة ـ حتى تقوم دولة الخلافة من جديد . ولكن انقضت حتى الآن أربعة أضعاف هذه المدة، دون أن يظهر في الأفق أي مؤشر يشير لقرب قيام دولة الخلافة المرتقبة! . هل عليكم أن تنتظروا أربعة قرون أخرى لتصلوا بعدها إلى نتيجة منطقية تقول : أن هذه الطريقة لن توصلكم إلى شيء!

هنا تولى مضيفنا الحديث للرد على هذا الاستفسار، وأفاض في شرح رؤية الحزب لتوقيفية طريقة إقامة الخلافة، لأن هذا من أساسيات الدين.. وأفاض أيضاً في طرح رؤيته حول صوابيّة ومعقولية هذه الطريقة . وركز في حديثه على أمرين. الأول أنه مهما طال الانتظار، فإن دولة الخلافة من الممكن أن تقوم بيوم واحد . أي أننا ننتظر حدثاً لا يستغرق وقتاً في قيامه متى ما تهيأت له الظروف، وأن الوقت يمضي فقط في الانتظار وتهيئة الظروف المناسبة لقيام الحدث.. الأمر الثاني أن دور الحزب ينتهي بمجرد قيام دولة الخلافة على أي بقعة من الأرض . أي أنه في حال قامت الخلافة على أي بقعة من الأرض، فإن دور الحزب حين إذن ينتهي ويجب حلّه، ويكون بعدها الدور على دولة الخلافة، المنوط بها دور التوسع ، ومد رقعة الخلافة على كل أرجاء العالم الإسلامي القائم الآن .

هنا سألته سؤالاً استدراجياً، قلت له : يعني أنه بمجرد إقامة الخلافة على أي رقعة من الأرض، تقومون بحل الحزب ، وتتحول بقية المهمة في التوسع وإقامة الشريعة إلى الخليفة ومؤسسات الدولة؟

أجابني : بالضبط ، هذا صحيح .

هنا قلت له ضاحكاً: يا أخي لماذا لم تحكوا لنا ذلك من الأول، كي نقول لأحد التجّار أن يشتري لكم إحدى الجزر النائية في أندونيسيا، لتهاجروا إليها، وتقيمون عليها دولة الخلافة، وتوقفون كل هذه (الزحمة) من النشاطات والإصدارات والبيانات التي يقوم بها الحزب يومياً.

الغريب أن تعليقي الساخر هذا أربكهم بعض الشيء، وقاموا حينها بالحديث عن أن الرقعة التي يجب أن تقوم عليها الخلافة من المهم أن تكون دولة قائمة، لا أي رقعة نائية من الأرض.. قلتُ لهم: طيب، لنفترض أنكم نجحتم في أن تقيموا الخلافة في دولة جيبوتي أو أفغانستان، هل يمكن أن تشرح لي كيف ستقوم دولة الخلافة حينها بالتوسع وفتح الدول الأخرى!؟

قال لي أحدهم بغضب: ولماذا تحاول أن تختار أسوأ الدول وأضعفها كي تقوم الخلافة فيها! . الخلافة يجب أن تقوم في دولة قوية تملك إمكانات اقتصادية وعسكرية جيدة.

أجبته مبتسماً: يا أخي أنتم لم تضعوا اشتراطات لشكل الدولة التي يمكن أن تقيموا عليها الخلافة، في البداية قلتم رقعة من الأرض، ثم قلتم دولة قائمة، والآن تقولون دولة قائمة ذات إمكانات اقتصادية وعسكرية جيدة، ولا أدري إن كنت ستضيفون بعد قليل شروطاً أخرى لشكل الدولة، قد لا تتوافر في أي دولة عربية قائمة!

ثم أضفت: طيب، لنفترض أنكم أقمتم الخلافة في دولة مثل الأردن أو سوريا، ما هي الخطوة التي ستلي قيام الخلافة.

أجابني أحدهم: سنحاول بعدها التوسع لضم الدول المجاورة.

قلت: وهل تعتقد أن بقية الدول العربية ـ فضلاً عن أمريكا وأوروبا ـ ستضع يدها على خدها وهي تراقبكم وأنتم تقيمون دولتكم، وتبدؤون بالتوسع لضم الدول الأخرى!! . صدام حسين لم يستطع البقاء في الكويت رغم علاقاته الوثيقة مع الغرب، وأتى العالم من كل مكان لإخراجه من الكويت. فكيف بكم وأنتم تكفّرون الدول العربية، وتلعنون الغرب صباح مساء!!

هنا تطوع أحدهم للحديث مطولاً عن التوفيق الإلهي، وكيف أن الله ينصر عباده

الصالحين، وكيف أنني بهذا الحديث أثبط الهمم العالية، إلى آخر هذا الكلام.. أي أننا انتقلنا من الكلام السياسي، إلى الحديث الوعظي .

قلت له بلطف : ولكن يا سيدي الله أمرنا أن نقوم بتقدير الأمور، وحساب موازين القوى، لذا صالح الرسول عليه الصلاة والسلام كفّار قريش في الحديبية، ولم يقل: بما أن الله معنا إذن سنقاتل دون حسابات وتقدير.. وإلا لماذا خسرت طالبان بأفغانستان في حربها مع أمريكا . ولماذا خسرت المحاكم الإسلامية بالصومال في حربها مع أثيوبيا.. خسروا لأنهم أساؤوا التقدير، ولم يقيموا اعتباراً لحسابات الممكن والمتاح عسكرياً وسياسياً .

قال لي : لا يمكن المقارنة بين حزب التحرير وطالبان والمحاكم الإسلامية . هؤلاء لديهم بدائية سياسية مفرطة، وحزب التحرير يُعتبر حزباً سياسياً متقدماً في قدراته التحليلية والثقافية.. قلت : بمعزل عن تقييم القدرات السياسية، إلا أن طالبان والمحاكم الإسلامية يرون إقامة دولهم الإسلامية بقوة السلاح، ولم يفعلوا كحزب التحرير الذي يكتفي بإرسال خطابات إلى الزعماء وقادة الجيوش كي يقولوا لهم ـ وهنا استخدمت العامية اللبنانية ـ : (مشان الله سلموا لنا الدولة حتى نقيم الخلافة)!!

قالوا بغضب : (إحنا بنقول لهم هيك)!!

قلتُ : إذن ماذا تُسمّون خطاباتكم التي أرسلتموها لمعمر القذافي، ولعدد من قادة الجيش التركي، ولسواهم، تطالبونهم فيها بتسليم الدولة لكم كي تُعيدوا إقامة الخلافة!

قالوا : هذه سنة الرسول عليه الصلاة والسلام . وأنت ربما لا تعلم أن الشباب الذين سلموا هذا الخطاب لمعمر القذافي قام بقتلهم جميعاً . كل ذلك تضحية في سبيل إعادة إقامة الخلافة الإسلامية على هذه الأرض .

واستمر السجال لساعات على هذا المنوال .

ولم نشعر إلا وقد أمضينا ما يقارب الأربع ساعات من النقاش، دون أن نجاوز بعد هذا الموضوع الذي كنتُ أفترض أنه مجرد مدخل للحوار.. لكن يبدو أن مداخل الحوار مع حزب التحرير ليس لها نهايات، وتمتد طويلاً لتستنزف كل ما

يتوافر لك من لياقة حوارية .

وفي قرابة الساعة الثانية عشرة ليلاً استأذنتهم بالانصراف، بعد أن طلبوا أن نقوم بتكرار اللقاء لإكمال الحوار أثناء تواجدي في بيروت . لكن أخبرتهم ـ بعد أن شكرت لطفهم ـ أن تراكم الأعمال، وقرب عودتي إلى الرياض، ربما تحول دون ذلك. على وعد أن نلتقي في أقرب زيارة لي إلى بيروت .

خرجت لأسير لبعض الوقت وسط هذا الحي الشعبي الهادئ، بعد أن ركن الجميع إلى النوم، ونسائم الطقس العليل تهب محمّلة برائحة البحر المنعشة . والذهول الذي يملأ عقلي لا يكف عن الضجيج لحجم الهوة الزمنية التي تفصل شباب حزب التحرير عن الواقع السياسي المُعاش.. ولكنني مع ذلك أكبرتُ فيهم ضخامة الطموح، وصدق اللهجة، وحرارة الصمود، وزخم الاستعداد للتضحية، من أجل حُلم كبير، نحتوا على جدرانه حروف دولة الخلافة، شوقاً لزمن القوة، والوحدة، والكرامة .

غادرتهم وصخب سؤال لجوج في داخلي يقول : ما قيمة أن نسلِبهم لذة الأمل، ونُزيل عن عيونهم غشاوة الحُلم .

وفي الكويت ..
نحتسي الشاي بصحة الخلافة



* هذه المادة سبق نشرها في كتابي الأول (محاورات).. وقد تم إعادة نشرها هنا بهدف ترابط الموضوع حول حزب التحرير.

لازلت أذكر ذاك اللقاء العرضي الذي جرى في العاصمة التشيكية براغ قبل عدة سنين، حين التقيت بشاب عربي يدرس الطب في إحدى الكليات التشيكية، أثناء تواجدي في المركز الإسلامي الوحيد في العاصمة . ولكوني بقيت في العاصمة عدة أيام تكررت لقاءاتنا وحواراتنا حول قضايا كثيرة ومتفرقة، اكتشفت من خلالها أنه ينتمي لحزب التحرير الإسلامي، الأمر الذي أثار فضولي وجعلني شغوفاً بمقاربة هذا الفكر من الداخل واكتشاف الشوارع الخلفية الخافتة التي تُطبع فيها أفكار هذا الحزب الذي يبدو غامضاً وطوباوياً إلى حدٍ كبير، مما جعل هيئة السائل المستكشف تطغى في داخلي على روح المحاور والناقد .

ولكوني - أحسب نفسي - من المتابعين لشؤون الفكر الإسلامي بمدارسه وأطيافه، فقد كنت حريصاً على الفهم الأعمق لمدرسة حزب التحرير الفكرية والتنظيمية خارج إطار الأدبيات المكتوبة والبيانات التي تصدر من وقت لآخر، وإن بدا هذا الأمر صعباً لصعوبة الالتقاء بشخصيات تملك الجرأة أن تعلن انتماءها لحزب التحرير، لما يكتنف ذلك من خطورة أمنية كبيرة .

حتى جاء الصيف الماضي محملاً بزخم المفاجأة.. كنت مع اثنين من الأصدقاء في زيارة لدولة الكويت . وفي ليلة قضيناها عند صديقنا الدكتور محمد العوضي، دار نقاش طويل عن تنوع التيارات الفكرية الموجودة في المشهد الثقافي المحلي .

وتحدث د.العوضي عن وجود مجموعات تنتمي لحزب التحرير . بادرته بسؤال إن كانت هذه المجموعات تعمل وتتحرك بسرية تامة . فأجابني : بل تعمل بوضوح ويعلم الجميع بوجودهم .

قلت : هكذا في العلن ؟! قال : نعم.. قلت دون أن أشعر: لتحيا الحرية.. أريد أن أراهم.. ولكنٍ محمد العوضي بادرنا بقوله : قد لا يكون اللقاء دون عواقب.. عندها التفت إلي وقال : أنت تعرف ما قد يترتب على لقاء كهذا.. قلت له : ليكن، أريد أن أراهم.

حزب التحرير حزب سياسي إسلامي، أسسه في الأردن تقي الدين النبهاني – وهو فلسطيني – عام ١٩٥٢م، ويهدف الحزب إلى إقامة الخلافة الإسلامية من جديد في العالم الإسلامي عن طريق تقويض كل الحكومات والدول الإسلامية القائمة لكونها حكومات كافرة ودول غير شرعية. والحزب يعمل بسرية فائقة وينتشر بأعداد محدودة في الدول الإسلامية، إلا أن أعضاءه مطاردون أمنياً في هذه الدول . وله حضور أكثر كثافة في الدول الأوربية، خصوصاً في ألمانيا وبريطانيا . وهو يرى أن الطريق الوحيد للعمل هو بتكوين التكتلات الحزبية المتشبعة بثقافة وأدبيات الحزب . لذا تُمارس عملية تثقيف عميقة وطويلة للأعضاء في شتى العلوم الشرعية والإنسانية . إضافة إلى التمرس على الجدل والحوار لكونها الطريقة الوحيدة المعتمدة لاستقطاب الأعضاء .

الحزب يرى أن إقامة الخلافة الإسلامية يتم عن طريق طلب (النصرة) . ويقصد بها نصرة بعض القيادات السياسية أو العسكرية في الدول الإسلامية للحزب بعد الاقتناع بأدبياته . وإذا ما تم إقامة الخلافة في إحدى تلك الدول التي استجابت لواجب النصرة وجب على كل مسلم في العالم مبايعة الخليفة الذي سيتزعم مسيرة الجهاد والامتداد إلى الدول الإسلامية الأخرى . لذا لا يكل الحزب عن إرسال الخطابات والبيانات الحزبية للقادة والزعماء السياسيين والعسكريين في الدول الإسلامية طلباً للنصرة وإقامة الخلافة . وهم بذلك يتأسون بفعل الرسول عليه الصلاة والسلام، عندما كان يطلب النصرة من القبائل ووجهائها للقيام بأمر الدين، وهو في مكة قبل هجرته إلى المدينة . حيث يرون أننا نعيش من جديد مرحلة الدعوة المكية . ولكوننا في هذه المرحلة يرون عدم جواز القيام بأي أعمال أو نشاطات ذات طابع دعوي أو

سياسي أو اجتماعي في الدول الإسلامية قبل إقامة الخلافة، لكون هذه النشاطات تشغل من جهة عن السعي لإقامة الخلافة، وتعطي من جهة أخرى مشروعية للحكومات القائمة، لأن هذه النشاطات ستكون بالضرورة وفق الأنظمة والقوانين السائدة في تلك الدول . لذا فكل الجماعات والحركات الإسلامية التي تشارك في العمل السياسي أو النقابي أو التي تدير جمعيات خيرية ومؤسسات دعوية هي آثمة بفعلها هذا، وأن كل الجهود التي تبذلها لا قيمة لها ولن تحقق أي نتائج ملموسة على الأرض.. يجب فقط أن تتركز كل الجهود لإقامة الخلافة الإسلامية .

قاد الحزب بعد وفاة النبهاني عام ١٩٧٨م عبد القديم زلوم - وهو فلسطيني أيضاً - وقد أحيطت تحركاته ونشاطه بسرية تامة بشكل لم يعد معه أحد يعلم بمكان وجوده، وإن كان لازال على قيد الحياة أم لا . حتى أعلن الحزب عن وفاته قبل عدة أشهر - بدايات ٢٠٠٣ - في لبنان . عندها فقط علم المتابعون أنه كان على قيد الحياة طوال السنين الماضية .

* * * *

أجرى د.محمد العوضي اتصالاته لعقد اللقاء . وبالفعل تم ذلك في مساء الغد عند الساعة التاسعة في استراحة بضواحي المدينة . كنا أربعة أشخاص، وفي المقابل كانوا هم أربعة أيضاً معظمهم من المتقدمين في السن . جلسنا في غرفة واسعة ووحيدة على ما يبدو تحوي في جانب منها مكتبة مكتظة . وتشغل بقية جوانبها مقاعد الجلوس العربية . الغريب أنهم كانوا جميعاً ممن يدخنون السجائر، وهو أمر غير مألوف عند الحركات الإسلامية . وبعد السلام والترحيب ومجموعة من الافتتاحيات التقليدية حول ما جرى وما يجري في العالم دخلنا في صميم الموضوع . طبعاً لم نكن قد أتينا لنسمع فقط . فقد سمعنا وقرأنا كثيراً عن أدبيات الحزب وإنتاجاته الفكرية والسياسية، جئنا لنتحدث أيضاً .

وبعد أن قدم لنا أحدهم فناجين الشاي العراقي التي يعدها - كما ذكر لنا - أفضل طريقة لإعداد الشاي بادرناهم بالحديث.. قلت لهم : خمسون عاماً مضى على تأسيس حزب التحرير كلها انقضت في تكوين التكتلات الحزبية والتثقيف وطلب

النصرة، ولكن لا شيء تحقق . كانت أدبيات الحزب تتحدث عن ثلاث عشرة سنة في طلب النصرة – وهي الفترة التي قضاها الرسول في مكة قبل الهجرة – وبعدها تتحقق الخلافة . وبعد أن انقضت المدة مُددت لثلاث عشرة سنة أخرى، ثم ثالثة ولا شيء تحقق، ألا يدعوكم هذا لمراجعة آليات العمل الحزبي ومدى جدواها؟! . هل أنتم على استعداد لقضاء مائة سنة أخرى تكتفون بها بالتثقيف الحزبي وطلب النصرة؟! .

أجاب أحدهم بعد أن أخذ نفساً عميقاً من سيجارته : أولاً لا يجوز الحديث عن تأخر (النُصرة)، لأن من قال ذلك فقد زعم أنه على علم بموعدها المفترض، وهذا ما لا يمكن معرفته لأن الله طالبنا بالعمل ولم يخبرنا بموعد النصر والتمكين . الأمر الآخر أننا لسنا مكلفين بالنتائج . المهم هو العمل لإقامة دين الله في الأرض وإعادة الخلافة الإسلامية كي تسود من جديد . يجب أن نعمل بكل الوسائل لإعادة الخلافة لكون ذلك واجب شرعي على كل مسلم يأثم بتركه .

قلنا لهم : ولكن لا يعقل أيضاً أن يتم صرف جهود كبيرة تستمر لسنين طويلة بمعزل تام عن النتائج على الأرض . هل أنتم تعملون فقط لإبراء الذمة ؟

أجاب : لا طبعاً نحن نسير وفق خطط وبرامج، ولكن تعليق نشاطنا على مدى تحقق النتائج على الأرض أمر لسنا مطالبين به . نحن نسعى لتحقيق أفضل النتائج، ولكن إن لم تتحقق فذلك بتقدير الله، وعلينا فقط العمل لإقامة شرعه وتنصيب الخليفة .

– ولكن هل آلية طلب (النصرة) يمكن أن تحقق شيئاً ؟! أنتم ببساطة تطلبون من الحكام والزعماء التخلي عن كراسيهم وتسليم مقاليد الحكم لكم.. بصراحة هل تتوقع أن يحدث هذا يوماً ؟

– هذا هو المنهج الشرعي في العمل نحو تحقيق الخلافة وهو ما قام به رسول الله في دعوته المكية . نحن لا نؤمن بالوسائل العنيفة في التغيير، ولا نؤمن بالطرق الانقلابية التي تمارسها بعض الجماعات الإسلامية، ونعتقد أنها وسائل غير شرعية ولن تحقق نتائج على الأرض، وأن الناس لا تثق أبداً بمن يجري انقلاباً....

قاطعته : ولكنكم في خطاباتكم لطلب النصرة تخاطبون أيضاً قادة الجيوش، وكبار العسكريين في الدول الإسلامية، ماذا لو قبل بعضهم بنصرتكم؟ .

قال : وماذا في ذلك؟

قلت : كيف سيسعى قادة الجيوش والعسكريين للسيطرة على الحكم سوى بالطرق الانقلابية؟ ألن تكونوا بهذه الحالة انقلابيين أيضاً؟

أجاب : هذه الحالة مختلفة، فالعسكريون هم من داخل السلطة والنظام، وإذا ما حدثت صراعات داخل هذه السلطة فلا بأس بدعم طرف على آخر .

- كل ما في الأمر أنكم انقلابيون عن طريق وسيط، والآخرون انقلابيّون بالأصالة.

- لا، لا طبعاً الأمر مختلف . الجماعات الجهادية تمارس الأعمال المسلحة والضرب والتقتيل، ويموت بعملياتهم كثير من الأبرياء، ولديهم أجنحة مسلحة وتدريبات، ومنهجهم غير واضح فيما لو وصلوا للسلطة . هم لا يملكون أي إمكانيات لإدارة دولة، ولا يفهمون أبعاد السياسة .

سألناهم : وماذا عن الجماعات السلمية التي تؤمن بالديمقراطية، والعمل السلمي، وتدخل البرلمان، وتشارك في الأنشطة الاجتماعية والثقافية والنقابية، وتؤمن بالعمل المتدرج لتكوين المجتمع المسلم؟ .

أجاب آخر : أنت تقصد الإخوان المسلمين . انظروا ماذا حقق الإخوان المسلمون بعد ثمانين عاماً من العمل.. ببساطة لا شيء.. كلما تقدموا ببعض المناحي ضربتهم السلطة وأرجعتهم إلى المربع الأول، الحكومات تضع لهم سقفاً وحيزاً للتحرك لا يمكن لهم تجاوزه، وهم كلما حققوا إنجازاً ضئيلاً وهامشياً فرحوا به وجعلوه نصراً للإسلام، ويشغلوننا بعد ذلك بالحديث عن إنجازاتهم الضخمة . ثم بعد قليل من الوقت تضربهم السلطة ويخسروا كل شيء . هذا دأبهم منذ ثمانين سنة . هم يصرفون جهوداً كبيرة قد تستمر لسنين من أجل أن يقوموا بتعديل مادة في الدستور أو في الأنظمة الفرعية، وينسون أن كل هذا الدستور غير شرعي . هم في عملهم اليوم يضفون الشرعية على الأنظمة الكافرة، ويساهمون في تكريسها، ويشغلون أوقات الشباب ويصرفون جهودهم في قضايا هامشية لا قيمة لها . بعضهم في الحقيقة لا يسعون لإقامة شرع الله بل لتحقيق مصالحهم الذاتية . نحن نعتقد أن كل نشاطاتهم وممارساتهم السياسية والاجتماعية غير شرعية ولا يجوز الانخراط بها،

ويجب توجيه كل الجهود نحو إقامة الخلافة، لأن الوصول إلى رأس السلطة هو الطريق الوحيد لإقامة الشريعة والإصلاح وصناعة القوة العسكرية والمادية والتقنية . وكل الجهود في غير هذا الطريق لا قيمة لها ومضيعة للوقت .

قلنا: ولكن كيف تتجاهل بعض التقدم الذي حققوه . هم شاركوا في حكومات، واستطاعوا تعديل بعض القوانين، وأداروا بعض الوزارات، وهم ينخرطون في كل الفعاليات الاجتماعية والسياسية وبصماتهم واضحة في عدة دول؟ .

أجاب : كل ذلك لا قيمة له وهو داخل إطار المساحة المسموحة التي رسمتها السلطة . ولا يستطيعون التقدم أكثر من ذلك في الوقت الذي يقدمون فيه كل يوم مزيداً من التنازلات . وإلا هل يمكن أن تسمي الحكم في السودان حكماً إسلامياً وهم يقرون في دستورهم حق المسيحيين والوثنيين والعلمانيين في المشاركة بالسلطة، وإقامة الأحزاب والتعددية الدينية، ويُلغُون حد الردة والجهاد وأشياء أخرى كثيرة.

دخل أحدهم على الخط وقال : هناك دراسة لنقد دستور السودان أصدرها الحزب، وأظهرت للجميع كذب دعوى الدولة الإسلامية التي يتحدثون عنها .

قلت له : نعم قرأت هذا الكراس قبل مدة .

أكمل الأول : انظر إلى أين بلغت التنازلات إلى الحد الذي يعتبرون فيه حزب العدالة والتنمية التركي حزباً إسلامياً وزعيمه يعلن أنه يؤمن بعلمانية تركيا ويقسم وهو يقف بإجلال على قبر الزعيم التركي أتاتورك أنه سيحافظ على الدستور وعلى علمانية البلاد.. ثم بعد تصريح بهذا الوضوح والفجاجة لازال الكثيرون يعتبرونه حزباً إسلامياً .

قال أحدنا ضاحكاً: ماذا تريده أن يفعل؟! . أن يعلن في يومه الأول كفر النظام والدستور ويسحق بقدميه قبر الزعيم التركي ويعلن إقامة الخلافة الإسلامية . هل تظن أنه سيبقى دقيقة واحدة بعد ذلك؟!.. للسياسة اعتباراتها يا سيدي.. ثم هم يختلفون معكم في الأولويات، بل ربما لا يرون مشروعكم بكامله . هم يركزون على الإصلاح الاقتصادي، والتنمية، وتطوير التعليم، والقضاء على البطالة، وخفض مستوى الفساد المالي والإداري وتحقيق الرفاه . هم يركزون على الإنسان، حاجياته، وتطويره، وتكوين الفرد الحضاري المنتج والفاعل في المجتمع .

رد منفعلاً : تلك قضايا شرعية غير خاضعة للتكتيك السياسي . يجب أن يكون واضحاً في دعوته الإسلامية وإعلان كفر الأنظمة السائدة . أن يقول الحق ولو نُزعت منه السلطة . ثم لا تنسى أن حزب العدالة والتنمية لن يُمكنه فعل أي شيء مما ذكرت مادامت السلطة الحقيقية والنافذون في الدولة والجيش يريدون غير ذلك . تلك مجرد شعارات للاستهلاك ولإرضاء الجماهير .

قلت لهم – في محاولة لتهدئة الحوار – ما رأيكم لو انتقلنا لموضوع آخر.. من خلال قراءتي لأدبيات الحزب وطبيعة النظام السياسي المراد تكوينه بعد إقامة الخلافة، لاحظت أن كثيراً من مكونات هذا النظام مأخوذة بالنص من التنظير السياسي في التاريخ الإسلامي كما في كتاب (الأحكام السلطانية) للماوردي وكتاب أبو يعلي الفرّا الذي يحمل الاسم نفسه وكتاب (غياث الأمم) للجويني وسواها . مع أنه يمكن اعتبار (التنظير السياسي) في التراث الإسلامي هو أكثر مواطن العلوم والمباحث تخلفاً وضعفاً وتكريساً للاستبداد . أنتم في الحزب تتحدثون عن (خليفة) و (معاون تفويض) و (معاون تنفيذ) و (قائد الجيش) وسوى ذلك . مما يجعل المتابع يظن أنه يقرأ عن سيرة دولة في القرن الثالث أو الرابع الهجري لا عن دولة حديثة.. شكل وهيكليات الأنظمة السياسية شهدت ثورات هائلة في القرنين الماضيين على كل الأصعدة في اتخاذ القرار، والمشاركة الشعبية، وآليات مراقبة السلطة، والمحاكم الدستورية، وسوى ذلك . لِمَ لم يستفد الحزب من كل هذا التطور في العلوم السياسية .

أجاب أحدهم : ليس هناك ما يمنع من الاستفادة من تطور العلوم السياسية في هيكليات السلطة . ونحن في الحزب كتبنا مشروع دستور لدولة الخلافة يحوي (مجلس أمة) منتخباً، وسلطة قضائية، ويمكن للمرأة أن تكون عضواً في مجلس الأمة، وأن تتولى كثيراً من المهام القيادية في الدولة، وهناك تقسيمات للولايات والمناطق وتوزيع واضح للصلاحيات . ولكننا أيضاً لنا خصوصيتنا الثقافية . وتراثنا الإسلامي أنتج أنماطاً في إدارة السلطة، إضافة إلى أن الشريعة وضعت أطراً للعمل والممارسة السياسية فلا يمكننا مثلاً الحديث عن الديمقراطية لكونها تعتمد على سلطة واختيار الشعب، وأنه مصدر التشريع ، وفي الإسلام مصدر التشريع هو الله وحده وليس البشر . عموماً ما وضعه حزب التحرير في تصورات لهيكلية السلطة هي

اجتهادات غير مُلزِمة، ويمكن لأي أحد تطويرها والإضافة إليها على شرط الالتزام بالمنهج الشرعي . لا كما تفعله بعض الجماعات الإسلامية التي تجعل كل القرارات مرهونة بإرادة الشعب .

قلت: المشكلة تكمن هنا في (المنهج الشرعي) الذي تفهمه كل جماعة بطريقتها الخاصة، وبحسب أدواتها في الاستدلال والفهم للنص الشرعي . لذا لنتجاوز المزايدات حول من يلتزم بالمنهج الشرعي، وليكن حديثنا عن التصورات التي وضعها الحزب لشكل السلطة . مجلس الأمة الذي يضعه الحزب هو مجلس منتخب، ولكن مهمته استشارية وليست ملزمة للخليفة، أي بحسب تعبير الفقهاء (مُعلمة) وليست (مُلزمة) . والمجلس لا يحق له عزل الخليفة . الشخص الوحيد الذي يحق له عزل الخليفة هو (قاضي المظالم).. جيد.. ولكن السؤال المهم هنا من يعين (قاضي المظالم) ؟ يقول الحزب الخليفة هو الذي يعينه . إذن عدنا إلى صميم المشكلة . الشخص الوحيد الذي يحق له عزلي كخليفة أنا من يختاره . هناك في أدبيات الحزب تقديس للخليفة وربط كل خيوط الدولة والسلطة بيديه . إضافة إلى كونه يبقى في السلطة مدى الحياة . فلا وجود لمدة زمنية وهذا أكثر ما يكرس الاستبداد.. في أدبيات الحزب تعويل كبير على تقوى وصلاح الخليفة ومعاونيه . وهو أمر قد يتسبب بكوارث إذا ما انتفت هذه التقوى.. ليس هناك آليات وقوانين تضمن عدم تغول السلطة .

قال : ولكن التعويل على صلاح وتقوى وخيرية الخليفة أمر مهم لا يمكن لك تهميشه، وقد وضع الحزب شروطاً عديدة وصارمة في اختيار الخليفة بحيث تضع أكبر قدر من الضمان لملاءمته للخلافة . نحن لا نريد رجلاً لا يملك أي وازع ديني، وأتى على أكتاف مجموعة من الناس انتخبته بعد أن خدعها بشعاراته الانتخابية . وعند وصوله للسلطة يحاول البحث عن أي ثغرات دستورية وقانونية ليحقق منها مصالحه الشخصية . اعتبارات التقوى والصلاح في الخليفة تجعل عنده رقابة ذاتية وعدالة في أحكامه . ثم لا تنس أن هناك جهازاً قضائياً له الحق في محاسبة الخليفة وعزله حين يقوم بممارسات غير مشروعة ومضرة بالمجتمع .

استمر الحوار بين مد وجذب عدة ساعات . كانت أصواتنا ترتفع أحياناً لدرجة

يحسب من يمر بجانب الغرفة أننا في عراك . فتحنا العديد من الملفات وتناقشنا حول كثير من الجزئيات والتفاصيل . كان حواراً ساخناً ومتواصلاً لم ينتهِ إلا بعد أن نفدت كل لياقتنا في الحوار، وبحت أصواتنا بعد أربع ساعات من الحديث المتواصل. لكن ما فاجأنا هو استعدادهم لمواصلة الحوار حتى الصباح . فهم يملكون لياقة كبيرة في الحوار والجدل . عند الساعة الواحدة ليلاً قلنا لهم يكفي نرجوكم.. لقد تعبنا.. نحن نرفع الراية البيضاء .

أثناء تناولنا لبعض قضايا السياسة الدولية والتاريخ السياسي للمنطقة العربية، وعند حديثنا عن بعض تعقيدات القضية الفلسطينية قال أحدهم : النبهاني عقلية سياسية فذة . لقد تنبأ في الخمسينيّات عن أنه ستجري عملية سلام بين العرب واليهود في المستقبل!! قلت في داخلي : هنا أيضاً يتحدثون عن الزعيم الملهم .

لم يكن التنبؤ بحدوث عملية سلام بين العرب واليهود أمراً صعباً وفق المعطيات الدولية وموازين القوى . وهناك عدد ممن تنبأ بذلك . لكن أن يكون هذا التنبؤ خرج على لسان (الزعيم) فالأمر مختلف حتماً، ويصب في خانة الإلهام والقدرات العقلية الفذة والعبقرية الاستثنائية .

أحياناً وأثناء تطرقنا لبعض الجزئيات يقوم أحدهم ويأخذ أحد الكتب من المكتبة ويتصفحه قليلاً ثم يقول: الرد على ما قلتم كذا، والدليل على هذا الرأي كذا، وهذا ما قاله الشُرّاح في معنى الحديث.. كنت أسأله مباشرة عند كل مرة يقوم بهذا الفعل، ما هو الكتاب الذي تقرأ منه، فيقول لي كتاب (التكتلات الحزبية) للنبهاني أو كتاب (الدولة الإسلامية) للنبهاني أو كتاب (كيف هُدمت الخلافة) لعبد القديم زلوم .

مفردة (الخلافة) تكررت في حديثنا مئات المرات وسط أجواء مشبعة برائحة الدخان، وعبق الشاي العراقي، في غرفة تقبع في ضاحية منسية على أطراف إحدى المدن.

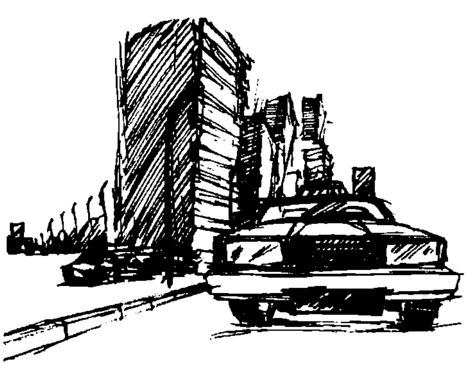
لما حان وقت انصرافنا نظرت إلى فناجين الشاي التي لم تُشرب بعد.. التفت إلى أصحابي وقلت لهم: اشربوا الشاي بصحة الخلافة.

لوحات
قاهريّة

الرحلة الأولى ..

من ١١ إلى ٢٣ يناير ٢٠٠٦م

الحج إلى
معرض الكتاب



1

لا أدري كيف باتت القاهرة في داخلي جزءاً حميمياً من عصف الشتاء وروحانيّته.. منذ ثمان سنين وأنا أتردد عليها ساعة يهطل البرد . في الوقت الذي تُشرع فيه أبواب المعرض الدولي للكتاب، آخر شهر يناير من كل عام.. للقاهرة في الشتاء مذاق خاص، وفي صقيع الليالي القاهرية فقط تستطيع أن ترى هذه المدينة المكتظة وهي فارغة، تسير وحدك، تتأمل الأبنية والدكاكين المغلقة، تُحدث رفاقك بهدوء وأنت تجول في الطرقات، دون أن تلجأ للصراخ بسبب هدير السيارات العتيقة، وتتنفس ما تشاء من الأكسجين دون ضريبة.

غدت رحلتنا كل عام لحضور معرض القاهرة الدولي أشبه بحج سنوي، لا يمكن أن نرتكب جريرة الغياب عنه، مهما كانت الأسباب.. نكون عادة بين أربعة وثمانية أشخاص، ونقضي ما يقارب العشرة أيام، وسط تقاليد يومية لا تتعرض لكثير من التغيير . قضاء أول النهار في المعرض، وحضور بعض الفعاليات الثقافية المصاحبة له. تليها لقاءات مع بعض المثقفين والأصدقاء، ومن ثم تناول الغداء قبيل المغرب في أحد المطاعم الهادئة على النيل .

ومنذ خمس سنين وأنا أسكن في نفس المكان، فندق أم كلثوم بالزمالك . هذا الفندق يقع في عمارة مرتفعة تسمى (برج أم كلثوم)، بُنيت على أنقاض فيلا أم كلثوم المطلة على النيل.. يبدو هذا الفندق رائقاً بعض الشيء، حيث يرقد في

منطقة هادئة كانت مقراً للأرستقراطية المصرية في (الزمنات)، ويتميّز بخلوّه من المرافق الليلية التي يرتادها روّاد العالم السُفلي، وهو ما يُلقي عن كاهليك عبء رؤية الوجوه الليلية المهووسة، التي قد تُرغم على مشاهدتها في الفنادق الأخرى.

تعرفت على هذا الفندق من صديق نزل فيه قبل سنين.. قال لي: ربما يبدو صعباً الحصول على الهدوء في القاهرة، لكن ثمة مكانٌ يمكن أن يمنحك شيئاً من ذلك.. حين تدخل إليه، ترى عدداً من الصور والمقتنيات التي تخص أم كلثوم معروضة في أروقة هذا الفندق وصالاته، وصوتها يتردد في بهوه وممراته. حتى غرف النوم تم تسميتها بحسب أغنيات الست.. أضاف صاحبي ساخراً: يمكن لك أن تسكن مرة في غرفة (الأطـلال)، فإذا ازدادت رومانسيتك في أحد المساءات، يمكن أن تطلب المبيت في غرفة (سيرة الحب)، أما إذا ارتفعت روحانيتك بعد صلاة جمعةٍ في الأزهر، فليس لك تلك الليلة إلا المبيت في غرفة (يا راحلين إلى عرفات).

في هذا العام، بدا كل شيء كما تركته العام الفائت، رجل الأمن الذي يرتجف من البرد أمام مدخل الفندق، ونادل المقهى الذي نلتجئ إليه قبيل الفجر لتصفح النت، والشوارع، والسيّارات، والصّخب، والناس، وحارس العمارة المجاورة، وحارس العمارة التي تليها، وبقية الأشياء الجميلة.

شاركني القدوم هذا العام في نفس الطائرة اثنان من الرفاق، يوسف وأحمد.. كنتُ أرقبُ أول دخولنا إلى فندق أم كلثوم الاسم الذي سأعيش معه عشرة أيام.. منحوني غرفة اسمها (حيرت قلبي).. الظريف في الموضوع أن الغرفة التي كتبها القدر لـ يوسف ـ وهو متردد بطبعه ـ كانت تحمل اسم أغنية (أروح لمين).. قلت له: يجب أن تؤمن أن هكذا أمور لا تحصل جِزافاً، ها أنت ترى برهان ربك، ليعلمك أيَّ تيه تعيش فيه يا رفيق القاهرة.

أشياؤنا المقدسة في مساءات القاهرة لم تتغير أيضاً، عشاء متأخر على النيل، ثم مقهىً لتناول (أم علي) ـ الطبق المصري الشهير ـ، نسير بعد ذلك على الأقدام لمسافات طويلة في طرُقات القاهرة العتيقة، بعد أن يخلد الجميع إلى النوم، وسط صقيع يبعث في أجسادنا روحاً يمازج الدفء الكامن في دواخلنا المشتعلة.. ثم

ننهي ليلنا مع اقتراب الفجر في مقهى سيقما نت القريب من الفندق، لنقضي ساعة تصفح للبريد وصُحف الصباح .

مرة، ونحن نتناول طبق (أم علي)، أرسلت لزوجتي رسالة جوال، قلت فيها: (قررت يا زوجتي أن أعترف لك بالحقيقة مهما كانت تبعاتها، أنا حين أقدم للقاهرة أسهر كل ليلة مع السيدة «أم علي»، فأنا مغرم بها، وأنت جديرة بأن تغفري لي نزواتي).. لكنني فوجئت صباح الغد أن الرسالة قد وصلت مقطوعة!، وكانت على النحو التالي : (قررت يازوجتي أن أعترف لكِ بالحقيقة مهما كانت تبعاتها، أنا حين أقدم للقاهرة أسهر كل ليلة مع السيدة......وانقطعت الرسالة هنا)!!.. صدقاً ما رأيكم بهذا الحظ العاثر!

وفي إحدى الليالي، كنتُ أتسامر في غرفتي مع بعض الرفاق، فاتصلتُ على مطعم الفندق، وقلتُ للنادل : (عاوزين أم علي ياباشا) . أجابني النادل بظرافة : (إديني ربع ساعة بس، أزحلق أبو علي، وأجيب لك أم علي)!!

الجديد في رحلة هذا العام هو مشاركة (يوسف)، الذي قرر أن يكتشف العالم الجديد هنا . العالم الجديد في جمهورية إمبابة، وشبرا، والعتبة، وبولاء الدكرور، والحسين، وفي بقية العشوائيّات القاهرية!!

عادة ما نلتقي كل عام بعدد من المثقفين والسياسيين المصريين، الذين تطورت العلاقة ببعضهم، وغدت أشبه بالصداقة، بسبب التواصل الدائم معهم منذ سنين. ولأجل (يوسف) نفكِّر جدياً هذا العام بلقاء المطرب الكبير شعبان عبدالرحيم، حتى نتزود بشيء من ذائقته الموسيقية الرفيعة (على فكرة، يوسف مغرم بالصخب حتى الثمالة، أي نوع من الصخب، ولو كان خليطاً من عواء بعارين، على صراخ أطفال، على موسيقى أفريقية، على صوت دريل يستخدمه عامل بناء، على أصوات شخير، أي شيء، أي شيء) ؟

لأحدثكم قليلاً عن يوسف .

السيد يوسف قرر قبل عامين البدء بمسيرة اكتشاف العالم، بعد أن اتخذ قراراً تاريخياً بإصدار جواز سفر، وبعد أن أنهى جولته الخليجية قبل شهور، قرر الهجرة لـ فتح مصر في وقت معرض الكتاب لهذا العام.. السيد يوسف كانت دوافعه ثقافية

محضة، لذا قرر السفر إلى القاهرة بتاريخ ١١ يناير، والعودة - لظروف طارئة كما يدّعي - في صباح ١٧ يناير (علماً أن المعرض يبدأ في مساء ١٧ يناير).. ولكن المشكلة الاستراتيجية الرئيسية التي كانت تشغل باله، تتمحور حول سؤال كبير، يمكن تلخيصه في الجملة التالية (ماذا سيرتدي في القاهرة ؟!!).. حاول يوسف الاستعانة بذائقة أحد الأصدقاء، لكن هذا الصديق بكل أسف (ما عطاه وجه)، وقال له : دبّر عمرك.. أنا بدوري - ولمعرفتي المسبقة بذائقة يوسف المضروبة - قمت بتحذيره قائلاً: شوف، إذا قَدمت إلى القاهرة بملابس من أذواق الستينيّات، أو أي حركات (نص كم)، على أمَل أن تكون (سبور)!، فإنني أعلن لك مقدماً اعتذاري عن مرافقتك لأي زيارة لأحد المثقفين، وذلك لما سيترتب على شكلك من تبعات مدمِّرة!

أظن أن تهديدي هذا أتى بنتائج معقولة، فيوسف استطاع شراء بدلة جينز (ماشي حالها) موديلها ظهر بعد الثورة الإيرانية بقليل.. يعني حديث نسبياً!.. ولكنه مع ذلك أصر أيضاً على شراء (بنطلون برمودا) - تحت الركبة بقليل - يصلح مثلاً لشايب يُحِب المشي (وقت القايلة) على شواطئ الدانمارك!!

أول ما وصلنا إلى القاهرة، اختار لنا (أحمد) - باعتباره خبير في البلد - سائق تاكسي مضروب، منحه الله قدرة على التحدث بسرعة ستة آلاف كلمة في الدقيقة!!.. طبعاً يوسف الذي كان يلفه الذهول وهو يكتشف العالم الجديد، صار كلما تكلم سائق التاكسي بحكاية سخيفة، يلتفت إلي ويقول : وش يقول؟؟.. صبرت عليه قليلاً، وقمت في البداية بعملية ترجمة معقدة لإفهام يوسف المضامين الفلسفيّة في كلام السائق!، لكنني اكتشفت بعد ذلك أنه (مطوّل)!! وينوي متابعة كل (سوالف) سائق التاكسي بدقة، قلت له بعد أن فرغ صبري : هل تعتقد أنه يتحدث بلغة أفغانية!!.. بالله عليكم ياجماعة، من لا يعرف اللهجة المصرية ماذا تعلم من حياته!.. خاصة إذا كان مثل يوسف، الذي تمتّع في طفولته بأكثر من تسعة آلاف ساعة مشاهدة لمسلسلات مصرية!!

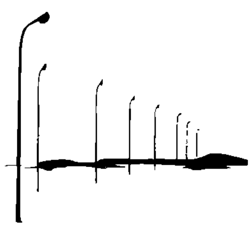
في القاهرة اكتشفت أن ليوسف وجوهاً وأمزجة متقلّبة ، تكفي لإشباع برنامج الاتجاه المعاكس بالضيوف المتناقضين لمدة ستة شهور!؟ . وعنده بعض التصرفات، إذا ما أردت أن تعرف كنهها، تحتاج إلى اللجوء لتكتل من تسعة أطباء نفسيين، كي

يقوموا بتفكيك شفرتها، ومعرفة النوازع البشرية الصانعة لها .

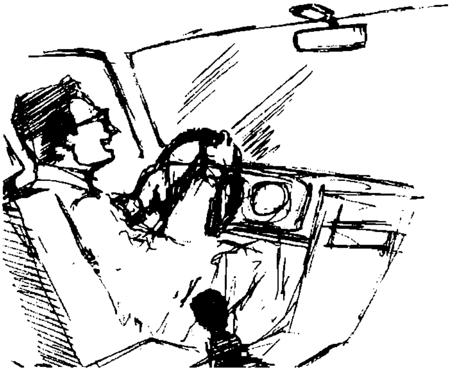
اكتشفنا أيضاً في القاهرة، طبيعة الساعة البيولوجية ليوسف، وتداخلاتها الفكرية والأيديولوجية.. فيوسف في النهار يهوى الضجيج والإزعاج، ويحب البهجة والتسكع في الطرقات، ويسعى لاقتحام الأماكن (المشبوهة!!) لولا تدخلنا في الأوقات الحرجة . وفي النهار يردد دوماً على مسامعنا (انتو مطاوعة)، (خلونا نكتشف الدنيا)..... الخ.. ولكن بمجرد أن تتجاوز عقارب الساعة العاشرة ليلاً، ويكون حينها قد انتهى من كل مُتَع الحياة بحسب ما أتاحته الرقابة الأخلاقية الصارمة التي ضربناها حوله، تبدأ عنده مرحلة مختلفة، هي خليط من الهوى الجهادي والنزوع لليسار الثوري!، فهو يرى أن أيمن الظواهري هو أكثر نماذج الإسلاميين وضوحاً في المنهج والمشروع، وأن مواجهة الإمبريالية الأمريكية الشريرة صارت ضرورة إنسانية، ويتحدث باستمرار عن وجوب استنهاض قوى النضال الثوري لصنع التحرر العالمي.. ثم لا يكتفي بإتحافنا بآرائه (المضروبة) حول النضال والثورة، بل يستمتع كثيراً عندما يمارس دور الواعظ وهو يكرر علينا: أنتم تفتقدون إلى كثيرٍ من الجديّة!! ولا تعملون في مشروعات ثقافية مفيدة!!.... الخ.

في أحد المساءات حضر يوسف مع أحمد ندوة عن أزمة اليسار المصري، ولم أستطع ساعتها مرافقتهما لارتباطي بموعد آخر.. الندوة امتدت من الساعة السادسة وحتى التاسعة مساءً.. وحين التقيت بعد ذلك بيوسف سألته : ما أخبار الندوة؟.. عندها تقمّص يوسف دور المحلل السياسي المرموق، وقام يشتم المستوى المتدني الذي سمعه في هذه الندوة، وأضاف : كلامهم سخيف وقديم، لم يتجاوز بعد أطروحات اليسار في الستينيّات.. المهم أنه أعطاني انطباعاً سلبياً عن الندوة.. طبعاً لمعرفتي بدقة النقل التي يمتاز بها يوسف!، أحببت التأكد من كلامه.. وحين قَدِم أحمد، قلت له : هاه، ما أخبار الندوة، يوسف يقول أنها كانت (كلام فارغ)!!.. عندها قال أحمد والدهشة تعلوه : أصلاً يوسف كان نائماً طيلة الندوة!؟.. وأضاف: المشكلة أن يوسف ـ وبعد انتهاء الندوة ـ كلما رأى أحداً وقف بقربه، وقال له مع ابتسامة فخر صفراء : أنا صحفي من الرياض!! حتى كدتُ أظنه يعمل مديراً

لوكالة رويتر للأنباء، لا مجرد (صحفي بالقطعة) يعمل متعاوناً في صحافة الدرجة الرابعة!!.. طبعاً هذا بمعزِل عن تخصصه الدراسي في الهندسة الكهربائية ، الذي لا أدري كيف استطاع إتمَامه ، رغم أن علاقته بالرياضيّات تشبه علاقة أُمي بدوري الكرة الليبيّة!



كوميديا يومية اسمها
(سيّارات الأجرة)



2

يوم الجمعة بدا مختلفاً في القاهرة.. طوال النهار والمسجد المجاور للفندق يتلو أدعية وتراتيل عبر مكبرات الصوت.. والشوارع تبدو هادئة بعض الشيء.. حتى دوي السيارات بات خافتاً.. قررت أن أصلي الجمعة في الجامع الأزهر.. الذي يُعد من أعرق المساجد وأقدمها في القاهرة.. وهو يتوسط منطقة الحسين الضاربة في القِدم، وبجواره مقر إدارة جامعة الأزهر.. وبسبب تاريخيّة المسجد وموقعه المهم، تجري فيه كثيرٌ من النشاطات السياسية، والخطب، والتظاهرات، وخصوصاً بعد صلاة الجمعة.

وصلتُ إلى المسجد قبيل دخول الخطيب، ولم يكن مزدحماً كما ظننت، لذا استطعت أن أجلس في مكانٍ لا يبعد كثيراً عن منبر الخطبة.. دخل الخطيب بعد دقائق، وبدأ بإلقاء خطبة كان فيها بادي الانفعال . وعرّج على قضايا المسلمين في فلسطين والعراق وسواها.. لكنه في خطبته أكثر من توجيه كلامه للأمة! (على الأمة أن تنهض من كبوتها)، (على الأمة أن تعي ما يُحدق بها من أخطار)، (على الأمة أن تقاوم الطغيان الصليبي والصهيوني)...الخ، وكأنما كانت الأمة شخصاً يشاركنا الصلاة، وينتظر التوجيه من خطيب الجمعة!.. وحين استمرّ الخطيب في تكرار توجيهاته لـ (الأمة!)، طاف في ذهني خيال أنني أقوم وسط المصلين، وأقول بصوتٍ مرتفع : (ياجماعة حد بيعرف «الأمة» علشان يبلغها كلام الشيخ؟!).

الظريف في الأمر أنه بعد انتهاء الشيخ من الصلاة، قام أحد المصلين المعمّمين من وسط الزحام، بإلقاء خطبة ارتجالية عصماء، وبصوت مرتفع جداً أشبه بالصراخ - طبعاً دون ميكروفون - ، ضمّنها مجموعة من اللعنات لكل العالم الخارجي والداخلي الذين يتآمرون عليهم . وبعد أن انتهى من خطبته، قام بإخراج مجموعة أوراق كان يخفيها تحت رداء يلبسه، ورماها بشدة باتجاه السقف، لتتناثر على المستمعين المتزاحمين حوله.. القَدَر حينها أشبع فضولي، إذ جاءت إحدى الأوراق فوقي مباشرة (لأن الناس اختطفت الأوراق بشكل مريع). وإذ بالورقة عبارة عن بيان سياسي، أصدرته حركة سياسية تُطلق على نفسها اسم (حركة ١٤ مارس) أو تاريخ مشابه، تضمن البيان حديثاً عن الإمبريالية والاستعمار والخصخصة وسواها من مفردات تتكرر عادة في خطاب اليسار.. بعد خروجي من الجامع، اتصلت على أحد الأصدقاء المصريين المهتمين بتفاصيل المشهد السياسي المحلي، وسألته عن ماهية هذه الحركة، فقال لي : (دي حركة ماركسية ثورية تشكلت حديثاً!؟).. عرفتُ حينها أنها مجرد حركة يسارية حديثة، غاية ما ستصنعه هو إضافة رقم جديد إلى تسعين حركة يسارية مشابهة من ذلك النوع الذي يتم تفريخه يومياً . لأنه من المشهور عن اليساريين، أنه إذا اختلف خمسة منهم على موضوع في أحد المساءات، يتم الإعلان غداً صباحاً عن تأسيس سبع حركات يسارية جديدة!!

لكن بالله عليكم ما رأيكم بهذا المشهد.. حركة ماركسية ثورية توزع بيانات سياسية بعد صلاة الجمعة في الأزهر!!؟

قلت لصاحبي والدهشة تعلوني : إذا كان هذا هو فعل الماركسية الثورية!! . إذن فالقوميّون واليسار الديمقراطي هنا يقومون بعمل حلقات لتحفيظ القرآن بعد صلاة الفجر!!

طبعاً لم يكن ذاك (الماركسي الثوري الأزهري المُعمم) هو الخطيب الوحيد!، بل قام بعده عِدة خطباء، كان أحدهم مجدي حسين، الامين العام لحزب العمل المجمّد، الذي يبدو أنه يخطب في الأزهر على الدوام عَقِب صلاة الجمعة .

بعد صلاة العصر، قررت الذهاب برفقة يوسف إلى منطقة (الفِجالة)، وهي

عبارة عن عدد من الطرقات والأزقة الضيّقة، التي تحوي كثيراً من المكتبات القديمة، مثل (مكتبة مصر) التي تُصدر عادة كل روايات نجيب محفوظ، و (مكتبة نهضة مصر) و (دار المعارف)، وعدد من المكتبات الأخرى.. في وسط حارات الفجالة وطرقاتها تشعر بكثير من المتعة. خاصة حين تتجول في أزقتها الضيقة، التي لا يتجاوز عرض بعضها المتر الواحد، ومع ذلك هي مكتظة بعشرات الدكاكين المتخصصة في بيع القرطاسية والكتب، إضافة إلى عدد من المقاهي المنثورة هنا وهناك.. في دكان لأحد المسيحيين، مخصص لعمل رسومات وتماثيل (مريم العذراء) و (صلب المسيح)، اقترحت على يوسف أن أشتري له هدية عبارة عن صورة لمريم العذراء، وأوقع له عليها (روح القدس تباركك وتخصك بالرعاية).. ولكنه ـ للأسف ـ رفض عرض الهدية، وقال: (أنت ناوي توديني بداهية!!)

داخل مكتبة عتيقة قضينا بعض الوقت في تصفح الكتب.. كان واضحاً أن المكتبة تعود لأحد اليساريين القدامى، لكونها مختصة بإصدار الكتب لمجموعة من رموز اليسار المصري القديم والحديث، كسلامة موسى وفرج فودة وكثيرين سواهم. وتحوي كثيراً من الكتب التي تشن هجوماً عنيفاً على التيار الإسلامي، كما هي عادةُ كثيرٍ من مثقفي اليسار.. أثناء تصفحي لأحد كتب فرج فودة، دخلت علينا امرأة محجبةٌ كبيرة في السن.. قالت للبائع: هل أجد عندك كتاباً عن العشرة المبشرين بالجنة؟.. لا أدري حينها كيف رددتُ عليها مبتسماً: (ياست مافيش حد هنا في الجنة!!.. هنا بتوع النار بس!!). غفر الله لي هذا التجاوز.

في مساء هذا اليوم، وباعتباره من أهم الصحفيين العاملين بالقطعة، سألني يوسف: برأيك ماذا يمكنني أن أكتب عن القاهرة؟.. قلت له: اكتب عن سائقي السيّارات السوداء.

سائقو التاكسي هم أكثر من يكشف لك عن العالم الحياتي البسيط في أي مدينة، بدون رتوش وأقنعة تسعى لإبراز شيء وإخفاء أشياء.. إضافة إلى أنهم يملكون وفرة في الثرثرة حول أي موضوع. حاول فقط أن تتيح له مجالاً للحديث ـ طبعاً هذا إن كان من النوع الذي ينتظر أن تتيح له مجالاً ـ عندها سيأتيك ما لا راد له إلا الله!

مرة ركبت مع سائق تاكسي في ساعة متأخرة من الليل، كان خطئي الوحيد أنني قلت له : الشوارع في القاهرة رائقة ليلاً.. الرجل سمى بالله وبدأ : (شوف ياسيدنا، مش كل سوّاء سوّاء ـ يعني سوّاق ـ، سواء الليل بيختلف عن سواء النهار، في النهار كل حد بيسوء، أما بالليل ما بيسوءشي إلا الناس الرايئة، حتى الزباين بيختلفوا عن بعض، البهوات ما بيطلعوش إلا بالليل، الناس في الليل بتكون مرتاحة وموراهاش حاجة، كمان الناس بالليل بتدفع كويس، أما بالنهار فالناس الكحيانة هي الي بتركب، أنا شخصياً من زمان مابطلعش إلا بالليل، أصل مش غاوي بهدلة.....الخ!!)

وكلام طويييل ـ بعيد عنكم ـ عبارة عن مقاربات في سيكيولوجيا الكائن الليلي!!

أمس، وأنا عائد من المعرض، ركبت في سيارة أجرة . يبدو أن سائق التاكسي – وبكل أسف – توسّم في وجهي خيراً، فراح طيلة الطريق يحكي لي انه لم يشرب (ويسكي) في حياته!!، وانه رجل مستقيم و (مالوش) في الحشيش والمخدرات والحَاجات دي أبداً أبداً.. ويحكي لي بكل حماس، ويردد كل فينة : تصدق بالله أنه عمري (ماشربتش حشيشة).. وأنا جالسٌ بجواره أردد في داخلي : إنا لله وإنا إليه راجعون، بعد أن عرفت أن الله ابتلاني بسائق تاكسي تربّى في حي الباطنية الشهير بالمخدرات!

مرة أزعجني سائق أجرة وهو يردد طيلة الطريق : شوف ياباشا أنا مستعد أجيب لك أي حاجة تطلبها!! يعني أي حاجة تخطر على بالك، انتا تؤمر بس وأنا خدّامك، أي حاجة ياباشا.. أحسست أنني من إلحاحه أُصبتُ بغرغرينة في الدماغ، قلت له بعد مدة : أنا أريد منك شيئاً واحداً فقط . هنا أَشرق وجهه وقال : إنتا تؤمر، عاوز إيه؟.. قلت : عاوزك توصلني بسرعة وانتا ساكت.

قبل ثلاثة أيام قررت أن أتبع استراتيجية جديدة في تحديد ميكانيزمات العلاقة مع سائقي التاكسي، تتمثل في أن أُقضي وقتي بقراءة كتاب خفيف، خاصة على الطرق الطويلة التي نسلكها يومياً بين المعرض والفندق، لذا أخذت معي مذكرات غيفارا التي سمّاها (يوميات دراجة نارية) . ولكن سائق التاكسي الذي أزعجني في

ذاك اليوم، لم يعتقني لوجه الله ويتركني أقرأ بهدوء، فبدأ يثرثر حول الإجراءات الأمنية المصاحبة لإحدى البطولات الرياضية المقامة في القاهرة، وأنه شخص لا يتابع المباريات لأنها كلام فارغ ومضيعة للوقت....الخ، وكلام آخر كثير.. قلت له : (معليش ياباشا) عندي غداً امتحان مهم، ويجب أن أدرس (وأشرتُ له إلى الكتاب).. وبحمد الله وتوفيقه نجحت الخطة، وأكرمني عندها بسكوته.

أذكر مرة أنني قلت لسائق تاكسي كبير بالسن : أنت تشبه عبدالحليم حافظ.. عندها بدأ الرجل ومسك الخط : تصدق بالله أن كل العيلة عندنا (مابيسمونيش إلا سي عبدالحليم)، حتى عيال الحِتّة دائماً ما ينادونني بـ (عمو عبدالحليم)، أنا مرة كنت في (عزومة) ولما الناس شافوني....الخ، طبعاً يمكن لكم أن تتخيلوا بسهولة بقية الحكاية!!

أحاديث السياسة
في مقاهي القاهرة القديمة



3

البارحة، وأنا أسير نهاراً في أحد الطرقات، ألحّ علي صبي صغير يشتغل بتنظيف الأحذية، على أن يقوم بعمل واجب الضيافة تجاه حذائي، وكان حينها متسخاً بعض الشيء، فقلت له : إتوكل على الله.. الولد بدأ يلمّع، وينظّف، ويلف، ويدور، ويستخدم أحياناً مواد طبيعية من فمه (لا يمكن التوضيح أكثر) . وبعد عشرة دقائق من الصراع مع الحذاء، ظهرت النتيجة.. الصبي - والشهادة لله - كان يملك قدرات استثنائية على زيادة اتساخ ما هو متسخ أصلاً، وعلى إخفاء اللون الحقيقي لحذائك، وعمل موديل جديد على الموضة، يتمثل في جعل حِذائك مكون من أربعة ألوان، موزعة بحسب الجغرافيا الجلدية!!

وحين التقيتُ مساءً بالدكتور جمال عبدالجواد، حكيت له - ونحن نتجول وندردش - قصة الصبي الإسكافي.. فحكا لي د.جمال قصة مشابهة، قال : كنا في الصيف الماضي في رحلة مع مجموعة من الأساتذة والباحثين بالمركز - يقصد مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية - إلى شرم الشيخ، وكانت رحلتنا في حافلة كبيرة، وبعض الأساتذة الذين معنا كانت زوجاتهم أمريكيّات، احتاجت إحداهن إلى دورة المياه.. قلنا للسائق : هل يمكن أن تتوقف عند أقرب دورة مياه من أجل السيّدة؟ (وما تخجلناش مع الخواجات)، أخبَرنا السائق أنه لا يمكنه التوقف، وقال: في آخر الحافلة دورة مياه يمكن للسيدة استخدامها.. يقول د.جمال : عندما

رأيت دورة المياه الموجودة في آخر الحافلة وجدتها في غاية القذارة.. قلنا له : (مايصحش ياعم دا الحمام مش نظيف).. قال لنا السائق وهو غاضب : إزاي!! أنا منظف الحمام بنفسي، وهو زي الفل؟!!

عندها قال د.جمال ببحة صوته الجميلة وهو يبتسم : هو لم يكذب علينا، هو قام بتنظيف الحمام فعلاً!! والحمام (زي الفل فعلاً!!)، لكن وفق معايير الجودة لديه.. الصبي الذي قام بتنظيف حذائك قام بكل ما يمكنه القيام به فعلاً، ربما شيء واحد لم يصارحك به، هو أن حذاءك قبل تنظيفه كان أنظف مما تستطيع أن تفعله قدراته الشخصية!!

بصراحة.. طَربت لفكرته كثيراً

د.جمال عبدالجواد شخصية في غاية اللطف.. يرأس وحدة العلاقات الدولية بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.. وهو يمتلك قدرات رائعة في التحليل السياسي.. مرة دعانا للتجول سوياً - برفقة أحد الأصدقاء - في بعض حارات القاهرة القديمة.. وأثناء تجوالنا كان يُشير إلى بعض المقاهي التي نمر بها ويقول : هذه (قهوة التقدم) يجلس بها عادة اليساريون الثائرون على سياسات حزب التجمع اليساري.. وهذه (قهوة الطليعة) يجلس بها بعض الفنّانين.. وهذه (قهوة شباب مصر) يجتمع بها عادة بعضُ الناصريين ومؤيدي حركة (كفاية).

أما نحن فجلسنا آخر التجوال في قهوة (دار الثقافة).. وقضينا فيها ثلاث ساعات مكتظة بالحوار حول شؤون السياسة العربية، وكانت من أمتع لحظات تلك الرحلة.. أذكر أننا بعد جلوسنا بمدة، طلبتُ من النادل أن يقوم بتصويرنا، قلت له: (تعرَف تصوّر؟)، أجاب : (أمّال، طبعاً بعرف).. ومن أجل توفير بعض الوقت، قمت معه لأخبره بكيفية التصوير بالكاميرا، وقلتُ له : ماشي يامعلم، خلاص، عِرفت ازاي تصوّر؟.. وجلسنا ننتظر المعلم يصوّر.. يالله يامعلم.. ماتصور ياباشا.. لكن الأخ اكتفى بوضع الكاميرا على عينه دون أن يفعل شيئاً!!.. قمتُ عدة مرات لأرى إن كانت الكاميرا قد سجلت أي صورة جديدة.. والنتيجة لا طبعاً.. بعد أن مللت قلت له : خلاااص، شكراً يا معلم (كلو تمام)، شكراً لك.. ولما سألني د.جمال : هل تم هذا المشروع التاريخي بنجاح؟.. قلت

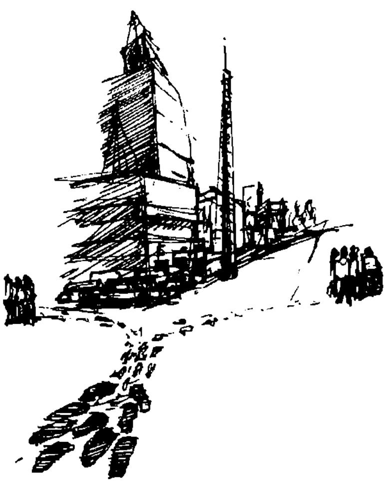
له : للأسف كان الفشل حليفنا، لم يلتقط أي صورة!!

وبعد جولة أخرى من الشاي والنقاشات، وبعد أن بدأ يخدم طاولتنا نادل جديد، قلت لرفاقي : لنجرب حظّنا هذه المرة، ولأن المكان كان مشبعاً بعبق القاهرة القديمة، لم أرغب أن تفوتني فرصة التصوير فيه.. ومرة أخرى سألتُ النادل الجديد : يا معلم تعرف تصور.. أجاب : أكيد، طبعاً بعرف!!، طيب ممكن تصورنا من هنا.. وقمت معه، وأعطيته دورة تدريبية أخرى!، وعدت إلى مكاني.. يالله يامعلم.. ماتصوّر ياباشا.. ومرة أخرى يضع النادل الكاميرا على عينه دون أن يبدي حراكاً.. وبعد أن اجتاحني الملل من جديد، وأدركت حرَج المرحلة، وصعوبة الموقف، ودقة الظرف الاستراتيجي، قلت له : خلاااص، شكراً يامعلم، أعطني الكاميرا أرجوووك!

طبعاً كانت المفاجأة حين رأيت الكاميرا، وإذ بـ (المعلم) كان قد صوّرنا ثماني عشرة صورة متتابعة!!، طلع الأخ ضاغط على زر التصوير دون توقف، حتى انتهى الفيلم!!

قررتُ بعدها أن أفتح دكاناً متخصصاً في بيع صور مقهى دار الثقافة في القاهرة القديمة!!.. أسرع فالكمية محدودة.

إجراءات أمنية..
وتمويه حركي.. قبل لقاء شباب الإخوان



4

ربما لا تخضع قائمة الشخصيّات التي نقابلها كل عام لتغييرات كثيرة، إسلاميون (من الإخـوان والتيّارات السلفية وبعض المثقفين والسياسيين المستقلّين)، ويساريون (من حزب التجمع و من المثقفين المستقلين)، وقوميون ناصريون، وبعض المحللين والباحثين الليبراليين الذين يشكلون حضوراً طاغياً في مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجيّة (وهو أكبر مركز للدراسات السياسية في مصر).. مصريون، وغير مصريين من الذين قدموا لشهود معرض الكتاب.. أحياناً يكون اللقاء في مكتبِ أو منزلِ أحدهم، وفي مراتٍ أخرى نلتقي على وجبة عشاء أو غداء في أحد المطاعم الهادئة .

مرة، وفي لقاء لنا مع أحد قياديي جماعة الإخوان، قال لنا : ما رأيكم باللقاء والتحاور مع مجموعة من شباب الإخوان؟.. طبعاً بدورنا رحّبنا بالفكرة . عند ذلك قال لنا أنه سيرتب الأمر، وسنتلقى اتصالاً من أحد الشباب لترتيب الموعد.

بعد يومين جاء الاتصال . أخبرني المتصل أنه من طرف (فلان)، وسيمر عليّ في الفندق مساء اليوم.. وفي الساعة المحددة جاء الأخ (مصطفى) كما عرّفنا بنفسه، وتبادلنا الترحيب، وجلسنا لبعض الوقت في بهو الفندق.. ما فاجأنا للوهلة الأولى أن هذا الشاب الذي انتظرناه ليتولى ترتيب اللقاء، كان في حقيقته كهلٌ تجاوز الخمسين من العمر!، قلت لرفاقي بعد ذلك : يبدو أن

معايير السن عند الإخوان باتت مرنة بشكل يدخل فيها ضِمن فئة الشباب من هو دون الستين من العمر!!

اتفقنا على الموعد، عند ذلك طلب مني هاتفي الجوال ليقوم باتصال قصير!. اتصل على القيادي الذي لقيناه أول مرة، وقال له في مكالمة قصيرة جداً : (نصف ساعة وحكون عندك) . طبعاً ليقوم بتبليغه بموعدنا .

في هذه الأجواء السياسية المحتقنة، ووسط هذا القمع الذي يتعرض له الإخوان، تلجأ كوادرهم عادة إلى عدم إثارة انتباه الأمن، حتى في تحركاتهم ولقاءاتهم الشخصيّة والبسيطة، لذا لا يفضِّل أحدهم أن يقوم باتصال ـ لأمر كهذا ـ من هاتفه الشخصي، ولا يذكر أي تفاصيل أثناء مكالمته الهاتفيّة، وإذا احتاج لتنسيق أمرٍ ما، فإن الوسيلة المثلى هي اللقاء الشخصي، لا استخدام وسائل الاتصال!

وفي الزمن المحدد، كنّا بالقرب من المكان.. طبعاً لم يكن مكان التلاقي هو بيتُ أحدهم، بل كان ناصية أحد الشوارع الكبير، في حي فقيرٍ بعيدٍ عن وسط المدينة (كل ذلك طبعاً إجراءات أمنيّة)، وحين وصلنا وجدّنا في استقبالنا شخصين، أحدهما صاحبنا مصطفى وبرفقته شاب آخر (شابٌ حقيقي هذه المرّة)، وبدورنا كنّا نحن خمسة أشخاص . وبعد التحية والسلام، ركِبنا جميعاً حافلة صغيرة (ميكروباص عمومي)، دخلت بنا في دهاليز هذا الحي القديم، وتوقفت عند أحد التقاطعات الصغيرة . وبعد نزولنا، قال لنا مصطفى : (الأفضل أن ننقسم إلى قسمين)!، وبالفعل ذهب ثلاثة منّا مع مصطفى، وسِرنا أنا ويوسف مع الشاب الثاني . الغريب أن هذين القسمين ذهبا في اتجاهين متعاكسين!، وبعد عشر دقائق من السير في أزقة هذا الحي، دلفنا إلى عمارة متواضعة، وصعدنا حتى سطحها، وهناك دخلنا في شقة صغيرة عرفنا أنها تعود للأخ مصطفى، ووجدنا رفاقنا قد سبقونا بعدة دقائق في الوصول إلى المكان.. وقبل جلوسنا خاطبنا مصطفى بقوله: (الأفضل أن نضع الهواتف الجوّالة في مكان آخر)!، طبعاً كنّا نتوقع أموراً كهذه منذ البداية، لذا سلّمنا هواتفنا الجوالة، وتم وضعها في مدخل الشقة . أثناء ذلك همستُ ليوسف : يبدو أننا سنتباحث حول مشروع إنشاء مفاعل نووي!!

طبعاً تبدو كل هذه الإجراءات اعتيادية ومُبرَّرة، لأن أي لقاء، أو اجتماع، ولو كان في غاية البساطة وذا صفة شخصيّة، يمكن أن يكون (وثيقة إدانة) تودّي بهم إلى الاعتقال!، كما حصل في مرّات كثيرة!

حضر في ذاك المجلس ـ سوانا ـ ستة أشخاص، كانوا جميعاً من خريجي الجامعات في الهندسة والطب إضافة إلى صحفي، وقد بدا على محيّاهم كثيرٌ من اللطف والود.. بعد أن أمضينا تقاليد الترحيب والتعارف، دار حديثٌ اعتيادي عن أوضاع المسلمين في العالم، وعن التفاعلات السياسيّة في مِصر، والانتخابات، والمشاركة السياسيّة، والأوضاع الاقتصاديّة، وسواها من موضوعات.. بصراحة، لم يتجاوز الحديث الذي دار في تلك الليلة، أحاديث المجالس التقليديّة التي تجري يومياً في معظم المدن العربيّة! . لكن هذه الاحتياطات الأمنيّة التي حفّت باللقاء، جعلت منه أشبه بلقاء سري بين رئيسي الاستخبارات الأمريكيّة والإيرانيّة في متاهات العاصمة الفنزويليّة كاراكاس!!

بعد مضي نصف ساعة على لقائنا، اكتشف مصطفى أن في مجلسهِ شاباً مصرياً لا يعرفه!! (كنّا نحن أربعة سعوديين وبرفقتنا صديق مصري)، سأله وقد استغرب وجوده : إنتا مع فلان؟! (يقصد هل أنت مع الأسرة الحركيّة التي يقودها «فلان» من الإخوان)؟!!، أجابه صديقنا المصري : لأ، أنا قدِمتُ مع الشباب (وأشار لنا).. ربما بدا هذا الأمر مُربكاً بعض الشيء، لكن ما لبثت الأمور أن سارت على خير ما يُرام.

دام لقاؤنا قرابة الثلاث ساعات، في آخره وضع مصطفى مائدة كبيرة، عليها عددٌ متنوّع من أطباق الطعام التي دلّت على ارتفاع الكلفة الماديّة لهذه المائدة، والاستعداد المبكّر لها، رغم وضعه المادي الذي بدا متواضعاً من بيته وأثاثه، ومع أننا اتفقنا معه منذ البداية على ألا تتجاوز ضيافتنا أكواب الشاي (بل قلنا له أيضاً ـ إمعاناً في التأكيد ـ أننا مرتبطون على العشاء في مكان آخر) . لكنه مع ذلك أصرّ على إكرامنا بسخاءٍ أخجلنا كثيراً .

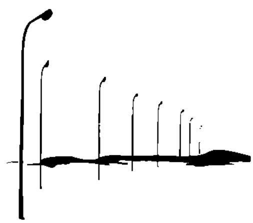
خرجنا من شقة مصطفى قرابة الساعة الحادية عشرة.. تجولنا قسراً في هذا الحي الفقير ونحن في طريقنا إلى أقرب شارعٍ رئيسي، كانت الطرق الضيّقة

والأزقة المُعتمة تُحيط بنا من كل مكان، والطقس البارد يزيدنا تدثّراً بمعاطفنا الشتويّة، وسط شعورٍ بالود لهذا الشباب الصادق، المؤمن بقضيته ومشروعه، حتى لو ناء كاهله بحملٍ كثيرٍ من التبعات الأمنيّة، والخسائر الدنيويّة الرخيصة.

كانت هذه آخر ليالَينا في القاهرة،،

القاهرة ،،

٢٣ يناير ٢٠٠٦م



محاورة على وقع
الفطير المثلث



1

زرت القاهرة ليومين في رحلة عمل سريعة.. وحادثت أول ما وصلت إليها الصديق عمرو عزّت . واتفقنا على أن نلتقي مساء اليوم الثاني في ميدان التحرير.

عمرو شابٌ في أواخر عقد العشرين، تخرج من كليّة الهندسة بتفوق. ولغرامه بالقراءات الفلسفية، قرر الانضمام مجدداً إلى الجامعة لدراسة البكالوريس في الفلسفة، التي قضى منها حتى الآن ثلاث سنين . ورغم عمله طيلة النهار في أحد المكاتب الهندسية الكبيرة، إلا أنه لازال يتصدر المرتبة الأولى في دفعة طلاب الفلسفة.

وهو كذلك ابن صميم للطبقة الوسطى، فوالد عمرو أحد رجالات التكنوقراط المعروفين في القاهرة.. تستطيع أن تلحظ بسهولة مقدار الذكاء واللطف اللذين يتمتع بهما هذا الشاب . وبسبب انغماسه في قضايا المجتمع وهمومه، وانتمائه العميق لهويته الإسلامية، باتت رؤاه وقناعاته خليطاً من الاشتراكية والإسلامية.

التقينا تلك الليلة بميدان التحرير . هذا الميدان شهد كثيراً من الأحداث المصريّة الكبرى، وتاريخه يمتد لأكثر من قرنين من الزمان، حتى بات أشهر ميدان في القاهرة على الإطلاق.. ورغم اتساعه، تحتل الجامعة الأمريكية جزءاً كبيراً من محيطه، وفي طرفه الآخر يقع المتحف المصري، الشهير بطوبه الأحمر وبنائه الإنجليزي، والممتلئ بتاريخ الفراعنة الضارب في القِدم .

عمرو مغرم بالتجول في ساحات هذا الميدان المكتظة بعبق التاريخ، وهو يدعونا دائماً كي نلتقي فيه.. هذه المرة تجولنا حول هذا الميدان وفي الأزقة المتفرعة عنه، وسط أجواء عذبة واستثنائية، لم تخلُ من زخّات المطر الخفيف.. وبعد ساعة من التجوال، دعاني عمرو للعشاء في مطعم معروفٍ بذات المكان، متخصص بعمل الفطير المشلتت، الذي يُعد من الوجبات الشعبيّة الشهيرة في مصر.

في بداية جولتنا، تحدث عمرو عن حوارٍ كنتُ أجريته مع د.عبدالوهاب المسيري في صحيفة الشرق الأوسط، ودار حولٍ موقفه من (الماديّة) باعتبارها أبرز مكون للمنظومة الفلسفية والاجتماعية في الغرب اليوم.

أعتقد أن الدكتور عبدالوهاب المسيري من الشخصيّات الثقافية الاستثنائيّة في العالم العربي.. فهو رغم اطلاعه العميق على المنظومات الفلسفية الغربيّة، وتأليفه لمدونات فكرية ضخمة، كان أولها موسوعة اليهود واليهودية والصهيونيّة، التي تقع في ثمانية مجلدات ضخمة، وامتد عمل المسيري بها لأكثر من عشرين سنة. وليس آخرها كتابه الضخم حول (العلمانيّة الجزئية والعلمانيّة الشاملة)، الذي يقع في أربعة مجلدات كما ذكر الدكتور في مقدمة كتابه، وصدر منها حتى الآن مجلدان اثنان، إضافة لعشرات الكتب الفلسفية الأخرى. جعلته يُعَد اليوم من أبرز مفكري (الصف الأول) في العالم العربي.. ورغم أن الدكتور المسيري مصاب بأمراض صعبة منذ بضعة سنين، أحدها سرطان الدم، الذي يضطره للخضوع لجلسات علاج معقدة ومنهكة، حدَّت كثيراً من قدرته على النشاط والحركة، كما أنها تلتهم - إضافة إلى صحته - عدة شهور علاجيّة من كل عام.. رغم كل ذلك، لا تستطيع إلا أن تقف مبهوراً أمام زخم نشاطه السياسي، وحيويّته الثقافية التي تتجسد في كثافة التأليف والكتابة، إضافة إلى الحضور والمشاركة في العديد من الفعاليات الثقافية والفكرية.

وهو في مثل هذه المرتبة الثقافية الرفيعة، التي يتعالى أصحابها عادة عن النزول والمشاركة في تفاصيل المشهد السياسي اليومي. لم يبحث د.المسيري عن تكريم السُلطة، بل على العكس، انغمس بكل قواه في مجموعات المعارضة السياسية المطالبة بالإصلاح، وتراه على الدوام يسير - بجسد أنهكه المرض - في مقدمة

المشاركين بالمظاهرات السياسية المطالبة بالديمقراطية والإصلاح، والتي كثيراً ما تتعرض لممارسات قمعية شديدة من السلطة، جعلته يتعرّض للسقوط عدة مرّات في هذه التظاهرات، ويُصاب برضوض وكدمات . ولم يكتفِ حتى بكل ذلك، بل تولى في الآونة الأخيرة موقع المنسق العام لحركة (كفاية)، التي تُعد الحركة الأكثر معارضة وشراسة تجاه السلطة في مصر .

كما أنه لم يتردد في الانضمام إلى حزب الوسط الناشئ، ذو المرجعيّة الإسلامية، الذي يقوده المهندس أبو العلا ماضي، ليغدو د.المسيري أحد أبرز مؤسسيه . رغم الضغوط العديدة التي واجهها من سياسيين ومثقفين، طالبوه - باعتباره من أبرز الشخصيات الثقافية في مصر - أن يبقى محايداً ومستقلاً، وألا ينغمس في تفاصيل المشهد السياسي بانضمامه إلى أحد الفرقاء السياسيين، كي يبقى مرجعاً فكرياً للجميع .

في كل رحلة لنا إلى القاهرة، كنّا نزور د.المسيري في منزلة . ورغم الحرج الذي نشعر به من زيارتنا المتكررة، خشيةً من الإثقال عليه، إلا أن ترحيبه، ولطفه الغامر، ودعوته لنا كي نزوره في كل مرة، رفعت عن كاهلنا ذلك الحرج .

حديثي مع الصديق عمرو عن د.المسيري ورؤاه وأفكاره استهلكت كامل جولتنا المسائية في ميدان التحرير. . ورغم إجلالي الكبير للمسيري، بدا واضحاً من حواري الصحفي معه أنني متحفظ على توصيفه لحجم اجتياح المادية للمجتمعات الغربية، وحرصه - الذي أظنه أكثر مما يجب - على تنقية الهوية الثقافية العربية والإسلامية من أي دواخل ثقافية أخرى، خاصة حينما يتحدث عن بعض تجلّيات الغرب الحديث في الأكل واللباس وسواه ، كحديثه عن أنك حين تأكل سندوتش (الهامبورجر) وترتدي (التي شيرت) وتشرب (الكوكاكولا) فإنك تمارس حالة من (العلمانيّة الشاملة مُنعدمة الأخلاق)! . أو حين يقول : (أنت حين تأكل الهامبورجر فإن هذا الأمر يُعيد صياغة وجدانك)! . . وهو ما أحسبهُ تصعيداً مفرطاً للقلق أكثر مما يستوجب!.

بدوره حاول عمرو - وهو المؤمن بآراء المسيري - أن يبرر هذا الموقف القلِق من التداخل الثقافي والاجتماعي بين الحضارات، وسعى لإقناعي بأهمية المحافظة على

الخصوصية الثقافية والاجتماعية والإنتاجية للمجتمعات، لكن يبدو أنه لم يقل في تلك الليلة كل ما يريد .

بعد عودتي بيوم، وجدت على بريدي الإلكتروني، رسالته التالية :

* * * *

العزيز نواف

السلام عليكم ،،

كيف هي أحوالك اليوم؟

استمتعت جداً بأمسيتنا تلك، وبصحبتك .

وأرجو ألا أكون قد أشغلتك عن موعد آخر أكثر أهمية .

نسيتُ أن أشكرك على إرسالك لي حوارك مع جمال سلطان .

ما لا تعرفه، أن جهازي هو أحدث الأجهزة التي تم بيعها في العام ١٩٩٧م.. ولذلك فهو الآن يعاني من أزمات الشيخوخة، وتعتريه أحياناً حالات مزاجية سيئة!. خاصة عند فتح ملفات تم حفظها بواسطة وورد ٢٠٠٠، أو برامج أحدث، من تلك التي لا يقدر عليها إلا أحفاده .

لذا فقد قرأت الحوار مباشرة من موقع صحيفة الشرق الأوسط.. وسأكون سعيداً جداً أن أتابع حواراتك وملفاتك الشيّقة .

موضوع التفاعل الثقافي مع الآخر، هو موضوعٌ أراه هاماً جداً لكل نهضة محتملة.. وأرى أن ميزاناً يستطيع التفريق بين (الحكمة) التي هي ضالة المؤمن، وبين نهج (حذو القذة بالقذة) الذي سيوصلنا دون شك إلى (جُحر الضب)، ضروريٌ لتبيان الفارق بين التفاعل الثقافي الواعي، والناقد والمبدع في مرحلة لاحقة . وبين (النقل) الثقافي، انصياعاً لحركة السوق، ورأس المال، ومزاج أصحاب التوكيلات، ورجال التسويق والإعلان والترويج .

ما أردتُ توضيحه في ذاك المساء ـ و لم أوفق كثيراً ـ، أن العديد من مظاهر الاستهلاك الأمريكية والغربية، أصبحت أسلوباً للالتحاق بالآخر ـ الغربي ـ في أسوأ صورة: الاستهلاك بالنسبة للطبقات العليا المالكة لرأس المال، والتي تُمثل شريحة كبيرة من النخبة الحاكمة أيضاً، ثم وبالتوالي يصبح هذا الأسلوب في الاستهلاك طريقة لالتحاق الطبقة الوسطى بالطبقة العليا.. وطبعاً النواتج الاقتصادية والثقافية لهذا الالتحاق هو تكوّن طبقات ممسوخة، غير قادرة على التكيُّف في مجتمعاتها، فضلاً عن الإبداع أو التوثب لنهضة ما .

ليس حديث المسيري عن (سندوتش الهامبرجر) يعني أنه بهذه الخطورة باعتباره خبز ولحم وإضافات!.. إنما أفهم من حديثه عنه أنه يعتبره عنصراً في نسق، والثقافة نسقٌ مترابطٌ وليست خليطاً، وكل عنصرٍ يرتبط بعلاقاتٍ مع بقية عناصر النسق الأخرى .

أنا الآن أفهم إشارة طه حسين، حين قال : (يجب أن نقبل الحضارة الغربية بحُلوها ومرِّها، وخيرها وشرِّها) . لا أعتقد أن طه حسين مبتهجٌ بقبول شرّ الحضارة الغربيّة ومرّها!، وإنما هو يُعبر عن فكرة مفادها أن (اتباع النموذج) لا مجال فيه للترقيع ، لأنه نسق متكامل .

ولكن رداً على أطروحته، أعتقد أن إمكانيّة الاستيعاب والتجاوز ـ لا الاتباع ـ ثابتةٌ تاريخياً ونظرياً . غير أن هذا الطريق غيرُ مرسوم بعد، لذا يبدو في بعض الأحيان عسيراً على التصوّر . بينما (نموذج الاتباع) جاهزٌ ومتحققٌ في الحاضر، وضاغط بثقله علينا، وهو أقرب إلى التصور .

فالطعام اليومي لبلد ما مرتبطٌ بالغلة الرئيسية لها، أو بمحصول وفير ورخيص.. ثم تُعبِّر طريقة طهيه، وتقديمه، والإضافات عليه، عن ذوق ما، وتفضيل جمالي معين.. ثم طريقة تناوله أيضاً تُعبِّر عن أسلوب ما.. وتوقيت أكله في اليوم، يُعبِّر عن نمط الحياة اليومي، وتوقيت الأعمال والدراسة وغيرها.. والطعام الذي يستغرق طهيه وتناوله وقتاً طويلاً، يُعبِّر عن سرعةٍ أو بطءٍ في إيقاع الحياة..

وأسلوب التناول (جماعةٌ في صحنٍ واحد ، جماعةٌ كلٌ منهم في صحنٍ مستقل، فُرادى) يُعبِّر أيضاً عن مزاج اجتماعيٍ ما.. أظن أن علاقة تقاليد الأكل بالثقافة واتصالها بها باتت بديهية وواضحة.

طبعاً لا يوجدُ نقاءٌ ثقافيٌ كاملٌ لجماعةٍ ما . إلا أن سير التفاعل الثقافي، يُعبِّر عن تماسك أو انحلالٍ في النسق الحضاري . ويعبِّر أيضاً إما عن التوجه الواعي، أو عن الالتحاق اللاواعي بـ (الغالب) الآني .

وكلمة على جنب كده :)

أنا أشعر بالضيق حين أدخل محلاً وأقول للبائع : (أعطني تشيكن برجر كومبو)!، فيجيبني : (أوكي) . بينما أعلم أنه يسكن في عزبة الصعايدة بعمارة الحاج متولي!، وأنا مواطنٌ في جمهورية إمبابة، أسكن بعمارة الحاج مصطفى!. بينما الفتاة بقربي في المطعم تهتف (وووبس) عندما يُصبح السندوتش ساخناً، وأنا أعلم أنها من مدرسة باحثة البادية بالكيت كات، وأبوها صاحب محل لعصير القصب!!

شعرتُ في المرات القليلة التي عايشت فيها هذا الموقف، أنني في مسرحيّة هزليّة!!

على فكرة.. رفعوا فيلم أحلى الأوقات الذي حدثتك عنه ذاك المساء .

دمت بخير .

عمرو ،،

* * * *

أهلاً بالصديق ،،

وهل يمكنني نسيانُ مذاق السير بعبثية في طرق وأزقة ميدان التحرير.. التي لم يُفسد مذاقها الرائع شموخ دكاكين (الفاست فود) في كل زوايا الميدان .

خاصة إذا ما خُتم التجوال بعشاء (الفطير المشلتت)، الذي تنبعث منه رائحة صراع الحضارات، والمدافعة الكونية بين الأصيل والوافد، في ذاك الدكّان الذي يرقب بشزر، تلك الدكاكين الأمريكية قصيرة العمر، وهي تُزاحمه أرضه وناسه وهواءه .

أظن يا صديقي أننا حين نُرهق جزئيات حياتنا الصغيرة، ونجعلها تكتنز بمنظومات فلسفية عميقة، ونوغل في التفاصيل حد الملل، ونجهد في استكشاف الجذور تحت جذوع أشجار النسب، كيما نمايز بين الأصيل والوافد، نتاج ثقافتنا أو نتاج الثقافات الأخرى، (إحنا اللي عملناه قبل ألف سنة، ولا هما).. أعتقد أن في الإيغال بذلك هدر لقيم نهضتنا المرجوة، وتشويش على الأسئلة الحضارية الكبرى، التي ما فتئت أجراسها تقرع فوق رؤوسنا صباح مساء، وضياعٌ في سراديب هوامش لا تنتهي، حتى تطلع الشمس من مغربها .

نعم، الطعام واللباس يحملان قدراً من النسق الثقافي الذي تكوّنا فيه.. ولكن السؤال الأهم.. إلى أي حد يشكل ذلك خطورة على منظومتنا الثقافية؟.. ومتى توقفت البشرية طوال تاريخها عن التواصل الحضاري وتناقل المنتجات والأفكار الخلاّقة والعمَليّة.. انظر إلى الحراك الاجتماعي والثقافي في تاريخ الحضارات البشرية . كيف وصلت المنتجات والأدوات من شعوب إلى شعوب أخرى.. خذ مثلاً الكتابة، أنواع الطعام، طرق الزراعة والري، الأسلحة وطرق الحروب، أنماط التجارة ونقل المنتوجات.....الخ، البشرية منذ بدأت وهي قائمة على مبدأ التواصل الثقافي والحضاري، الذي يُنتج في كل مرحلة زمنية، نمطاً من المشتركات الإنسانية السائدة كونياً .

وأنا لا أعلم لم تضيق مثلاً بـ (الفاست فود)، ولا تضيق بلبس البنطال والقميص وربطة العنق (عاوز أشوفك يا مولانا في المرة الجاية باللباس الصعيدي)، ماشي؟

انظر مثلاً إلى اللباس، أيهما أكثر عملية لحياتك اليوميّة، لباسك المحلي التقليدي، أم اللباس الذي تم استيراده من الغرب قبل مائة عام، وصار اليوم جزءاً من هوية مجتمعك؟. هل تستطيع أن تؤدي عملك وأنت مستمتعٌ بارتداء الجلباب الصعيدي؟!

وهل تُدرك حجم الآثار المدمرة، التي يُمكن أن تنتج من تتناول (صحن فول مدمس بالزيت البلدي) في الوقت المستقطع للفطور في بداية وقت العمل؟

يا مولانا بعد وجبة (الفطير المشلتت) التي تناولناها في ذاك المساء الجميل، كنت بحاجة إلى (نقّالة) أُكمل على متنها بقية الطريق إلى مثواي الأخير في ذاك اليوم .

إذا كانت المسألة مجرد ضجر من سماع (تشيكن برجر كومبو)، فيمكن أن تستعيض عن ذلك، بأن تقول للبائع : أعطني قطعة دجاج بين خبزتين مليحتين، ولا تنسى إضافة صلصة الطماطم الحارة مع بعض الخضروات، وتُرفق طلبك بتقطيبة عربيّة أصيلة، وتشارك أكلها بعض (الفتوّات) في جمهورية إمبابة المقدسة.. هل انحلت المشكلة بهذا الشكل؟!

لا تنسَ يا صديقي أن كل منتجات محل الوجبات السريعة هذا، من اللحم، والخبز، والخضروات، وديكور المحل، وحتى مُقدّم الطلبات، كلهم صناعة محلّية أصيلة، مشهود لها بصدق المنبت، وسلامة الطوية .

تفحّص وجوه المشاركين في المظاهرات التي تخرج على الدوام في شوارع القاهرة.. ربما ستجد أعداداً منهم ممن يعملون في مطاعم (الفاست فود)!، بحيث لم تُفلح القِيم الثقافية والفلسفية المكتنزة بقطعة اللحم وقطعتي الخبز في تغيير مواقفهم القومية والوطنية .

ألا تتفق معي أيها الرفيق أن الموضوع أبسط بكثير مما يحسب البعض!

وكما قلتُ لك ابتداءً، أتفق معك في أن الطعام واللباس ـ وغيرهما من منتجات ـ على علاقة وثيقة ببيئاتهما الثقافية التي تشكلتا بها . ولكنني لا أجد مبرراً لحجم التجريم والتضخيم لهذا الموضوع بشكلٍ يوحي بأن الحرب العالمية الثالثة ستنعقد لأجلها، كما يفعل عددٌ من مهووسي الخُصوصيّة الثقافيّة.. كما أنني مؤمنٌ بصيرورة بعض المشتركات الإنسانية، وتنوّع وتغيّر البعض الآخر من عصر إلى عصر، بحسب قدرة الحضارات وفاعليتها في إنتاج الأفضل والأجود والأكثر عمليّة وخدمة للكائن البشري على هذه الأرض.

في العام الماضي أرسلت لي باحثة في جامعة القاهرة دراسة بعنوان (مُدن ضد الإسلام) لنشرها في مطبوعة بحثيّة . وهي بالمناسبة تلميذة نجيبة للمسيري . هذه الباحثة كانت تقول في دراستها أن مدننا لم تراعي القيم الإسلامية الأصيلة، ولا تنسجم مع نمطنا الثقافي في العلاقات الاجتماعية، وهي مدن تُنتج الفقر، و... و... و... إلى آخر ما تعرف.. بعد نشر الدراسة، أرسلتُ لها قائلاً : (ياستي، بدل أن تُطالبي بتقويض المدن حتى يُعاد بناؤها وفق المواصفات والمقاييس الإسلامية المعتمدة، وعلى منهج السلف الصالح، لم لا تسعي لإيجاد حلٍ لملايين المشردين وساكني المقابر، حتى لو كانت مجرد جُدُر تقيهم لفح البرد وضراوة الشمس، ولو كانت وافدة من الأسكيمو)!

يا صديقي في ذاك التنظير رفاهية لا تروق لي!

صدّقني، لستُ أحط من قيمة التنظير المجرد، بل أؤمن بدوره في تنمية العقل الإنساني المبدع، وفي تدشين آفاق جديدة للتطور البشري.. ولكن أحسب أن هذا التنظير لا يعدو أن يكون في بعض المناخات نوعاً من البذخ الفكري المُستفزّ. كمن ينهمك في تعلّم طريقة تحضير الكعك الانجليزي، على ظهر باخرة توشك أن تغرق!!

سأحاول أن أرسل لك النصوص دون ملف، مراعاة لصحة عمّنا أطال الله في عمره على الطاعة .

استمتعت برفقتك كثيراً أيها الصديق .

وأوقاتنا ستبقى حلوة.. ولن يرفعها أحد .

كل الأمنيات

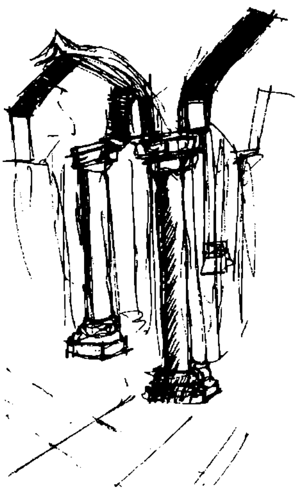
نواف ،،



الرحلة الثانية ..

من ٢٣ يناير إلى ٣ فبراير ٢٠٠٧م

رئيس حزب سياسي
يطلب مني العمل في الرياض!



1

القاهرة من جديد.. تقبّل الله طاعاتنا

رغم محاولات فيصل المتكررة ألا أكتب شيئاً عن يوميات هذه الرحلة، لأنه يريد أن يتحرّك بحريّة، دون أن يكون أحدنا - كما يقول - رقيباً على تصرفاته وأفعاله!، ولأنه يعتقد أن متابعة التفاصيل الحياتية للشخصيّات المهمة - من أمثاله - قد تودي بهم لنفس المصير البشع الذي لقيته الأميرة البريطانية ديانا سبنسر!!.. ورغم أن أكبر نشاط قام به فيصل حتى الآن لم يتجاوز تناول الغداء في مطعم على النيل، وحديثه الدائم عن رؤاه الشرعية والفلسفيّة!

إلا أنني قررت تجاوز هواجسه الطهوريّة هذه.. والكتابة مجدداً

السبب طبعاً لأن فيصل كان أول من انتهك (اتفاق الشنبات) الذي قطعناه في الرياض، بأن يدع نبوءاته ورؤاه الفلسفيّة العظيمة في الرياض، وألاّ يزج بها في كل لقاءاتنا القاهريّة.. لكن يبدو أن هذا الاتفاق كان أكبر من قدرة فيصل على الاحتمال!!

ورغم أن جميع الرفاق استبشروا بمشاركة الشيخ فيصل هذه المرة في حجنا السنوي إلى القاهرة، لأنه - وباعتبار تخصصه في الدراسات الشرعية - كان قد سرّب للجماهير أخباراً عن نيته تقديم مجموعةٍ من (التسهيلات الدينية)!، وأن فضيلته سيشارك في هذه الرحلة تحت شعار (إفعل ولا حرج)، إلا أنه لم يفِ

بوعوده، ولم تتلقَ الجماهير حتى الآن أي تسهيلات تُذكر.

باستثناء الأرستقراطي العريق أحمد ـ الذي قرر السكن في فندقٍ ذي خمس نجوم ـ نسكن جميعاً في فندق أم كلثوم بنجومه الأربع.. العاملون في الفندق، الشرطي المقيم على بابه منذ سنوات، موظفو الاستقبال، كلهم باتوا يعرفوننا ـ بعد أن غدونا طقساً سنوياً ـ، واستقبلونا بقولهم: إنتوا بتوع المعرض!.. قلتُ لرفاقي: بكل أسف، أصبحتم مجرد (بتوع) في القاهرة!!

لا شيء يتغير في هذه المدينة العتيقة!

برفقة يوسف وأحمد وصلنا يوم الثلاثاء.. صديقنا أيمن كان قد سبقنا بيوم.. وفضيلة الشيخ فيصل انضم إلينا في نهار الخميس.

عند وصول فيصل، أحسستُ أن يوسف بدأ يشعر بالهيمنة على القرار السياسي للرحلة، بعد أن صار يمتلك أغلبية برلمانية مريحة. لذا قرر أن يضعنا مباشرة في نهار الخميس أمام محك ديمقراطي حقيقي، عندما طالب بالتصويت على أن نتناول طعام الغداء في مطعم رآه سابقاً على النيل، وكان يعج بدخان الشيشة، وقد رفضنا دخوله من قبل، رغم تأكيداته الدائمة بأن رغبته لا تتجاوز حدود الفضول الصحفي وحب الاستكشاف!!

وخضوعاً للرأي الشعبي، ذهبنا إلى ذلك المطعم.. ورغم خيبة أمل يوسف، بعد أن اكتشف أن الموضوع لا يتجاوز ما هو موجودٌ في مقاهي الشيشة المنتشرة على أطراف الرياض، وأن أي أمور تتجاوز ذلك ستكون محظورة بقوة الدستور!، إلا أننا استمتعنا دون شك بطعام الغداء.

برفقة أحمد صلّيتُ الجمعة في الأزهر.. سائق التاكسي الذي أخذنا إلى هناك قام بتشغيل الشريط المعتاد!، حيث بدأ يحكي لنا عن تجاربه الحياتية، ويروي لنا بعضاً من مواقفه القوميّة والوطنيّة.. بعضُ سائقي التاكسي في القاهرة مثل (صندوق الدنيا)، يبدؤون معك بالحديث عن رؤاهم الأخلاقية والدينية، ونظرياتهم الفلسفية، وتجاربهم العظيمة. وينتهون بمحاولة ابتزازك مالياً كي تدفع أكثر!!

السائق هذه المرة قطع نصف الطريق وهو يتحدث عن إعجابه بنوع سيارة عبرت

أمامنا فجأة، وبدأ يتغزل بها، ويحكي لنا قصته معها، وكيف أنها سيارة عظيمة، وأنه قبل سنة قاد سيارة شبيهة لعدة أيام، فاكتشف أنها أفضل سيارة في مصر!، وبالذات إذا كان لونها (كحلي) كتلك التي كانت معه!.. بعد قليل مررنا على ميدان طلعت حرب بوسط القاهرة، وإذ بالتمثال الذي يتوسط الميدان قد تمت تغطيته لإجراء أعمال صيانة كما يبدو.. حينها قال السائق مباشرة: (همّ قاعدين يروءو طلعت حرب.. دا طلعت حرب من الناس الكبّارا اللي كانوا في البلد)!!

لا أظنكم بحاجة إلى سماع بقية التجارب الحياتيّة لهذا السائق!

غير أنني لم أعرف حتى الآن المغزى التكتيكي الذي جعل هذا السائق يصرف جهداً استثنائياً لإقناعنا بالصلاة في جامع الحسين، بدل الصلاة في الأزهر!: (دا الصلاة في الحسين حاجة تانيه.. أصل جد الحسين ده بيطلع هو الرسول الحبيب عليه الصلاة والسلام - يأله ع المعلومة -، علشان كذا الصلاة في الحسين ببارك فيها ربنا)!!

دخلنا الأزهر، وجلسنا خلف المنبر ببضعة أمتار.. بعد دقائق دخل خطيب الجمعة، وتحدث في خطبة هادئة عن دروس تربوية من الهجرة النبوية.. بعد الخطبة وقف مجدي حسين - الأمين العام لحزب العمل المجمّد - على دكة مرتفعة في وسط المسجد، وبدأ يلقي خطبته السياسية والدينية المعتادة (في كل مرة أصلي فيها بالأزهر، أجد مجدي حسين يقف في ذات المكان ليخطب بعد الصلاة).. طبعاً لستُ في حاجة إلى أن أعيد عليكم تفاصيل خطبته التي تعرفونها.. مجموعة من الشتائم لكل العالم (الغرب، الحكومة، الإمبريالية، العلمانيين، الأقباط.... الخ).. وهو كعادته يبدأ بتحذير الناس من الهجمة الشرسة التي تستهدف الإسلام في مصر، وينتهي بلعن من تسببوا بخصخصة القطاع العام (لا يستطيع إخفاء اشتراكيته)!!.. المشكلة أنه لا يجد حرجاً في تكرار بعض المعلومات المضروبة!، (يقول مثلاً أن ما تم بيعه حتى الآن من القطاع العام هو بقيمة ٨٠٠ مليار دولار!!) وأن الحكومة باعته ببضعة (ملاليم) كي يستفيدوا من ورائه!.. ربما هو لا يعلم أن هذا المبلغ الضخم (٨٠٠ مليار دولار) يتجاوز الدخل القومي لمصر لأكثر من عشرين سنة!!

غدت الغوغائية حرفة أصيلة لبعض السياسيين!

هل حدثتكم سابقاً عن قصتي مع رئيس حزب الأحرار؟

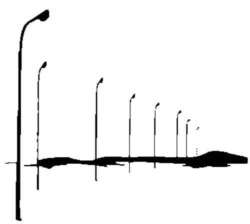
قبل ثمانية أعوام، كنت بالقاهرة في وقت معرض الكتاب، وبرفقة بعض الأصدقاء، وكان من أهداف رحلتي تلك البحث عن محرر صحفي جيد، يستطيع القدوم إلى الرياض للعمل في مشروع صحفي ناشئ.. وقبل قدومي قمتُ بنشر إعلان صحفي بهذا الخصوص في جريدة الأهرام، ذكرت فيه أن من أهم مواصفات الصحفيٍّ المتقدم أن يكون شاباً صغيراً في السن، ومتخصصاً في الصحافة.. المهم أنه أثناء إجرائي لمقابلات المتقدمين، فوجئتُ بتقدم أشخاص لا يطابقون المواصفات المطلوبة على الإطلاق!، وأظنهم يقومون بالتقدم على كل الوظائف المُعلنة، ولا فرق في ذلك بين وظيفة ميكانيكي سيارات ووظيفة خبير في البرامج النووية!! . بعضهم كان كبيراً جداً في السن، والبعض الآخر لا أظنه ينجح في كتابة اسمه دون أخطاء إملائية، وآخرون أتوا للمقابلة ووجوههم تنضح بتعبير يقول : (يجب أن تشكروا الله كثيراً على أن قبِلنا بالعمل لديكم)!!

وقد يبدو كل هذا مقبولاً أمام غرابة أحد المتقدمين.. هذا المتقدم قام بتعريفي بنفسه على أنه (رئيس حزب الأحرار)!!.. وحين رأيت مجلةً كانت برفقته، وجدت اسمه ممهوراً بتعريفه كرئيس لحزب الأحرار!!.. قلت له باندهاش : (يامولانا إنتا عارف إيه الوظيفة؟!).. قال : نعم، محرر صحفي (حيروح السعودية).. قلت له ضاحكاً : (ليه، إنتا نويت تقفل الحزب)!!.. الغريب أنه رغم امتعاضه من سؤالي (البايخ)، إلا أنه قرر مواصلة المقابلة!! .

طبعاً بعد ذلك عرفت أن هذا المتقدم هو أحد الرؤساء المفترضين لحزب الأحرار!!.. لأن الحزب في ذاك الوقت شهد عدة انقسامات، وكان هذا المتقدم رئيساً لأحد هذه الأقسام!!.. أحزاب تبيّض الوجه صحيح!!

تقاليدنا اليومية لم تتغير في هذا العام أيضاً.. المعرض، ثم غداء على النيل، تليه أيٌّ لقاءات ثقافية، أو مواعيد مع أصدقاء . وفي آخر الليل العشاء، مردوفاً بطبق (أم علي)، ثم السير على أقدامنا لمسافات طويلة حتى نصل إلى الفندق، ونختمها بتصفح البريد وصحف الصباح في مقهى سيقمانت .

الغريب أنه رغم كل المتغيرات الكونية وتحولات النظام الدولي، إلا أن (أم علي) لازالت طبقاً مقدساً كل ليلة.. يوسف صار في هذه الرحلة أول من يبادر بتذكيرنا بطقسنا الليلي . ولا أدري إن كان انجذابه لهذا الطقس خالياً من النوازع البيولوجية!، لذا لا أستطيع الجزم إن كان يوسف سيبقى على حِرصه فيما لو تغيّر اسم الطبق إلى (أبو فرغلي) على سبيل المثال!!



حديثٌ عن كرامات الشيخ (فيصل)
على الأرض المِصريّة



2

رغم إيماني بهرطقة أحاديث بعض الصوفيّة عن كرامات الأولياء.. إلا أنني رأيت البارحة برهان ربي، الذي قذف في قلبي أن ثمة (عباد الله مخلَصين)، تحوطهم الحماية، وتنافح عنهم الملائكة!!

البارحة تعرضت لضغوط شديدة من يوسف وأيمن وأحمد، الذين ادعوا أنني قمتُ بمجاملة فيصل كثيراً في رسالتي الأولى!!.. وأنني حنيتُ رأسي لعاصفة الضغط التي أطلقها فيصل تجاهي، من أجل ألا أكتب شيئاً عن تفاصيل زيارته التاريخية إلى القاهرة، حتى لا يلاقي المصير نفسه الذي لاقته الأميرة البريطانية ديانا!!

ورغم أن فيصل حاول طوال اليومين الماضيين التأكيد على أنني (من أعز أصدقائه على قلبه)!!، لذا هو لا يتوقع مني أن أعارض رغبته بعدم التحدث عن شخصيّته العظيمة!!، كما لم يتردد في الاستعانة على ذلك بقائمة من الأمثال التي تستدعي النخوة والفزعة.. إلا أنني مع ذلك قررت أن أفرد حلقة خاصة، أذكر فيها بعضاً من مناقب الشيخ فيصل، وأرد بها على مزاعم المدّعين.

جلست على لوحة المفاتيح أكتب في المقهى المعتاد.. وحاولت أن أستحضر كل ما يمكن تدوينه من فضائل الشيخ فيصل ومآثره على الأرض المصرية.. وحين فرغتُ من الكتابة.. وقررتُ إرسال المادة.. حصل شيء مفاجئ.. حيث تدخلت العناية الإلهية لحماية الشيخ فيصل!.. وإذ بالمقهى الذي نتردد عليه منذ ست أو

سبع سنوات يتعرض لانقطاع مفاجئ في الكهرباء، على إثر ذلك حُذفت كل المادة التي كتبتها!!.. ولم أستطع وسط ذهولي إلا القيام وأنا أسبح الله وأطلب المدد من أوليائه!.. وخرجت من المقهى، تاركاً ورائي النادل الذي لم يمل من تأكيده على أنها حالة نادرة لم تحصل من قبل!، مبدياً عجزه عن تفسير ما حصل!!

لذا سأعود إلى سيرتي الأولى في الحديث بإجلال وتقدير عن سماحة الشيخ فيصل حفظه الله ورعاه، ولو كره الشانئون.

أول ما وطأت قدما فضيلة الشيخ فيصل أرض مصر - التي يزورها فضيلته لأول مرة - سأله سائق التاكسي: الباشا من فين؟.. هنا حاول فيصل أن يستثير في داخله كل مكامن الذكاء والدهاء والفِطنة، كي يقوم بالتمويه اللازم على السائق، حتى لا يتعرض لأي نوع من الاستغلال المادي!، لذلك قال له: أنا من الإمارات!! (أرجو ألا يسألني أحد عن العمليات المنطقية التي أجراها الشيخ فيصل، وتوصل بها إلى أن هذا النوع من الإجابة سيحميه من الاستغلال!!).. هنا رد السائق مؤكداً أن إجابة فيصل تطابقت مع نبوءته: أنا قلت كذا من الأول، أصل بصمات الشيخ زايد واضحة عليك!!

فيصل لا يتردد إطلاقاً في أن يمارس كامل أريحيته وتبسّطه، في أي مكان يجلس فيه.. ولا يرى أن ثمة فرقٌ تستدعيه أصول اللياقة بين (كشتة للصمّان) و (غداء في الشيراتون)!!.. الأمر الذي لم يستطع أن يطيقه حتى يوسف!، الذي اعتبرناه - سابقاً طبعاً - أكثر شخصيّات الرحلة فوضوية وعبثاً! (ظلمات بعضها فوق بعض).. لذا بادر يوسف بتوجيه مجموعة من النصائح لفيصل، تدور حول أصول البريستيج الواجب استحضارها في الأماكن العامة!!.. وقد تطوّع يوسف بتوجيه هذه النصائح، عقب تناولنا البارحة لغداء دسم في مطعم راقٍ، قام بعده الشيخ فيصل بممارسة طقوسه المعتادة - التي يقوم بممارسّتها عادة بعد تناول طبق من الفول في مطعم القرموشي المجاور لبيته - وذلك بـ (التمغّط) بكل ما أُتيح له من قدرة على المباعدة بين (كراعينه) ويديه!، ولو أدى ذلك - كما حصل - إلى أن تغوص يديه في شوشة رجل كانت يجلس خلفه مباشرة!!

وبعد لَمْلمة هذا الموقف، والاعتذار.. حاول فيصل أن يشرح لنا أن هذا النوع

من السلوكيات (عادي هنا)!!.. وأن استنكارنا لفعله ناتج عن جهلنا المفرط في معرفة عادات وطبائع المجتمع المصري!!.. وعندما سألناه عن طبيعة مصادره المعرفية، رغم أنه يزور مصر لأول مرة!!.. أكد لنا أنه اكتسب كل هذه المعرفة في (سيكيولوجيا الإنسان المصري) من خلال العمّال المصريين الذين استأجروا منزلاً لوالده بمدينة الطائف، في ذات الفترة التي قضاها هو في مكة، لإتمام دراسته الجامعيّة في جامعة أم القُرى!!

في حجنا الثقافي لهذا العام، كتب لنا القدر أن نعيش مع نموذجين مختلفين ومتناقضين، هما فيصل وأيمن.

فيصل الذي لا يمل من تذكيرنا بتخصصه العميق في الدراسات الشرعيّة، وأنه امتداد لمدرسة الاجتهاد الفقهية، لا يتردد في السهر بمقهىً غائم بدخان الشيشة، والتسكع في الطرقات حتى أذان الفجر.. وهو مع ذلك يخاف على سمعته أكثر من خوف أحمد الجلبي على علاقته بالبنتاغون الأمريكي!!

أما أيمن، فبرنامجه اليومي في القاهرة، لا يختلف عن برنامج طالب بالمرحلة المتوسطة في أيام الامتحانات!!.. فهو ينام في الساعة التاسعة.. ويستيقظ مع أذان الفجر.. ويذهب لأداء صلاة في المسجد المجاور للفندق.. ثم يُفطر على صحن (فول حار) يستعين به على استنهاض كل مداركه العقلية، ليبدأ بعده بالسياحة في أرض الله الواسعة.

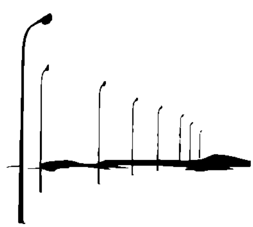
البارحة خرج أيمن مبكراً كعادته إلى معرض (بانوراما ستة أكتوبر).. ولأنه أتى قبل بداية الدوام الصباحي بساعتين!!، اضطر للانتظار على الرصيف المجاور، وقضاء الوقت بقراءة رواية سخيفة.. وبعد دخوله للمعرض وفراغه من التجول في أقسامه، عرض عليه مصوّر فوتوغرافي من محترفي (تركيب الصور) أن يلتقط له صورة يظهر فيها بجانب راقصة شعبيّة.. ولكن هذا المصوّر بعد أن فوجئ برفض أيمن لعرضه، حاول استخدام آخر أدوات الإقناع لديه، حين قال له: طيب إيه رأيك في صورة مع الشيخ الشعراوي!!

أيمن المحافظ سلوكياً، والذي يعتبر أن السهر أمر لا ينسجم مع الجديّة والصرامة الأخلاقيّة، حتى في رحلات الاستجمام!!.. لا يتردد في التصريح بآرائه الثقافية،

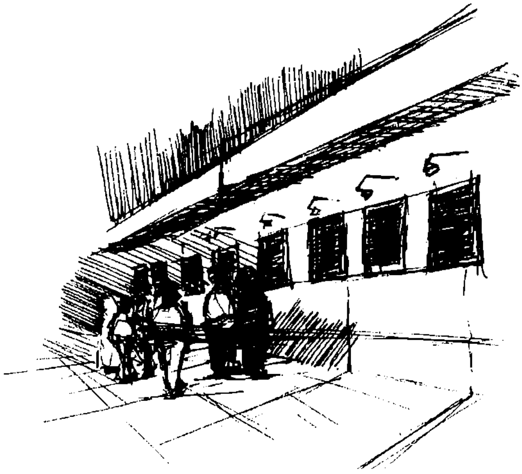
التي لا أشك أبداً في أنها تُعد بمقاييس فيصل من الانحراف الفكري!!

فهو معجب بأطروحات المفكر المغربي عبدالله العروي.. ويرى أن بعض آراء محمد أركون كانت نقداً مفيداً للتراث الإسلامي.. ولا يتردد في الحديث عن أهميّة تدريس الموسيقى بالمدارس السعودية، لأنها من الوسائل الحديثة في تهذيب الأخلاق .

طبعاً لا يمكن أن أتحدث عن التناقضات والتباينات، وأُغفل الحديث عن النماذج المتناقضة والمتضاربة داخل إطار كائن واحد اسمه يوسف، لا زال يرى أن (ابن لادن هو الحل) في الليل، و (أم كلثوم هي الحل) في النهار!!



ملاذٌ قاهريٌ للثقافة والإبداع..
أسفل جسر قديم!



3

الفندق الذي نسكنه يقع في منطقة الزمالك، التي كانت مقراً للأرستقراطية المصرية لسنين طويلة مضت، ويبدو ذلك بجلاء لأي متجول في أزقة هذا الحي، حيث الطرقات الفسيحة نسبياً، والبنايات العتيقة المشيّدة على الطراز الإنجليزي، التي لازالت جدرانها تنز بذكريات ذلك التاريخ الاستعماري الذي امتد لأكثر من سبعين عاماً.

هذا الحي (الزمالك) يحتل المساحة الأكبر من منطقة الجزيرة بوسط القاهرة . والجزيرة هذه تبدأ من المكان الذي يتفرّع فيه النيل إلى فرعين، بحيث يحيط الماء بهذه المنطقة من الشرق والغرب والجنوب، وهذا التفرُّع يُعد من بدايات دلتا النيل المعروفة بتشعباتها الكثيرة.. أحد هذين الفرعين كبير وواسع، وعلى ضفّتيه عددٌ من الفنادق الضخمة والبنايات الكبيرة، والآخر صغير وهادئ، وعليه يقع الفندق الذي نسكنه . والزمالك لازالت تُعد من الأحياء المرموقة في القاهرة، وبها عددٌ من النوادي الثقافية، والمكتبات، والمحلاّت التجارية الراقية .

اكتشفنا قبل سنتين فقط أن بقربنا نادٍ ثقافي مهم، لا يبعد عنّا أكثر من مائتي متر، اسمه (ساقية عبدالمنعم الصاوي).. قَصة هذا النادي تشبه الحُلم . حيث يقعُ أسفل جسرٍ كبير للسيّارات، في مساحة كانت مهمَلة ومليئة بالقاذورات . لكن حماسة بعضِ الشباب، استطاعت تحويل هذه (الخرابة)، التي كانت مكبّاً للأوساخ

تحت (كوبري) قديم ومهمل، لتغدو بعد ذلك ملاذاً قاهرياً للثقافة والإبداع.. مجرد التفكير في أن هذا الملاذ الثقافي يقبع في منطقة منسية تحت جسر عتيق، يسرِّب إلى وجدانك لحظات شاعرية عفوية.

الساقية تحوي صالةً للمحاضرات، ومساحة لعرض اللوحات التشكيليّة والمنحوتات الفنية، ومسرحاً لتقديم العروض الفنية والندوات، ومقهىً صغير ورائق، إضافة لبعض المكاتب.. وتُقيم الساقية برامج ثقافية وفنية يومية طوال العام، تعرضها في بروشور شهري أنيق، يتضمن تفاصيل هذه البرامج، وتقوم بتوزيعه على المهتمين قبل مدة من بداية الشهر.

بدا واضحاً أن بعض الروّاد من الشباب شهِدوا بناء هذه الساقية طوبة طوبة، حتى غدوا جزءاً من روح المكان وهوائه، وغدت علاقتهم بالساقية، تشبه علاقة متشردٍ بجسرٍ قديم، يأوي إليه كل ليلة لينام أسفله، دون أن يعنيه كل الضجيج الذي يجري فوق الكُتل الإسمنتية الصماء التي تُظله.. هو مكان حميمي بامتياز.

وعلى امتداد ذات الشارعِ الذي تقع عليه الساقية، ثمة مكتبة رائقة، اسمها (مكتبة الديوان)، وتحتل رُكناً كبيراً من بناية أوروبية الطابع، وتحوي كتباً بأربع لغات. ورغم محدودية الكتب العربية، إلا أن انتقاءها يدل على ذائقة معرفية رفيعة، وذكاءٍ في الاختيار. كما أن هذه المكتبة تحوي أقساماً متعددة، فركن لعرض أشرطة فيديوٍ، وآخر عليه مجموعات من السي دي، ورفوف تحوي كروتاً ودفاتر وأجندات مصممة بأشكال غريبة وأنيقة، ومجموعات من التُحف واللوحات والمصنوعات اليدوية، وسوى ذلك من معروضات جعلت هذه المكتبة أشبه بمعرض فني للإبداع والجمال.. وبالطبع لا يمكننا أن نخرجَ من مكتبة الديوان، قبلِ أن نتناول كوباً من القهوة، وقطعة من الكعك اللذيذ، في المقهى الذي يحتل أحد الأركان، وسط أجواء ثقافية، وهدوء استثنائي، لا تكاد تجد له مثيلاً في القاهرة.

في الأيام التي مضت، التقينا بعدد من الشخصيات الثقافية والسياسية.. أولهم كان المهندس أبو العلا ماضي، وهو ـ كما تعرفون ـ وكيل مؤسسي حزب الوسط، الذي يناضل منذ العام ١٩٩٥ للحصول على تصريح رسمي لحزب سياسي، آخرها كان في العام الماضي ٢٠٠٦م، حيث رفضت لجنة شؤون الأحزاب للمرة الثالثة منح

حزب الوسط تصريحاً للعمل السياسي .

لا أظن أن رحلة القاهرة يمكن أن تكتمل دون الالتقاء بـ أبوالعلا ماضي، حيث غدت العلاقة معه أقرب للصداقة منها لعلاقة ناشط سياسي بمهتمين . ومنذ ستة أعوام، لم تخلُ رحلة للقاهرة ـ حتى رحلات العمل القصيرة التي لم تكن تزيد عن اليومين ـ من عدة جلسات مع المهندس أبوالعلا.. ورغم أن لقاءاتي به تجاوزت الخمسة عشر لقاءً، إلا أنني لازالت أستمع إليه مبهوراً ـ في كل مرة ـ لكثافة المعلومات والأحداث والتفاصيل التي لم أكن أعرفها من قبل، عن تاريخ الإخوان، والجماعات الإسلامية، والحياة السياسية في مصر.. أبو العلا ماضي مخزن معلومات، وسياسيٌ ذكي . يمكن لمن يجلس معه أن يلحظ بسهولة سرعة بديهته، وتفوّقه في السجال السياسي والحركي، وإدراكه الدقيق لتفاصيل المشهد السياسي المصري وتوازنات القوى فيه، إضافة إلى وضوح أهدافه ومشروعاته، وامتلاكه للنفس الطويل، والهدوء اللازم، للصبر على تنفيذ هذه المشروعات، التي قد تتطلب سنين طويلة.

التقينا أيضاً بالدكتور جاسم سلطان في الفندق الذي يسكنه بمدينة نصر. والدكتور جاسم كان من أبرز قيادات الإخوان المسلمين في دولة قطر، وتميز بطرحه التطويري الناقد لأفكار الجماعة ونشاطها على الأرض، وقد أصدر عدداً من الكتب المهمة والمتخصصة في تطوير المنظومة الفكرية والممارسة الحركية للجماعات الإسلامية، وقام مع مجموعة من رفاقه في أواخر التسعينيّات بخطوة غير معتادة، أثارت مؤخراً بعض الجدل حول دوافعها ومبرراتها، وتمثلت في قرار حل تنظيم الإخوان في قطر، الذي اتخذوه بعد دارسة مستفيضة ـ كما يقولون ـ لواقع الحركة ومدى جدوى بقائها.. تحاورنا مع د. جاسم لأكثر من ساعتين، حول عددٍ من الموضوعات الحركية والفكرية ذات العلاقة بالحركة الإسلامية، وأبديتُ له استغرابي من إنفاقه لجهدٍ كبيرٍ في إنتاج وتأليف عدد من الكتب، كلها تتحدث عن موضوع واحد، هو التطوير التنظيمي والفكري للعمل الحركي، ثم هو ذاته من يقوم بحل العمل الحركي في قطر!، بدل السعي لتطويره وإنضاجه كما يشير في كتبه!.. ورغم تاريخ د. جاسم الطويل داخل الحركة الإسلامية، بدوت في حواري

معه وكأنني أكثر محافظة وميلاً إلى الدفاع عن الحركة الإسلامية ـ رغم نقدي لها بحكم تخصصي الصحفي في هذا الحقل ـ أمام نقد د. جاسم الحاد والجذري!

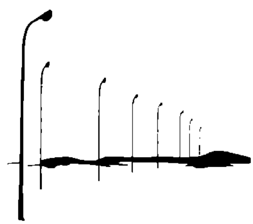
أيضاً زرنا الدكتور عصام العريان والدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح في مبنى (دار الحكمة) ـ اسمه في الأصل دار الحكماء، أي الأطباء ـ الذي يحوي مقرّيّ نقابة الأطباء المصريين واتحاد الأطباء العرب.. وقضينا ساعة ونصف في الحديث عن بعض شؤون جماعة الإخوان ورؤاها المستقبلية، وبعض مستجدات المشهد السياسي المصري . وسألناهم عن الدوافع الحقيقية وراء ما حصل مؤخراً من استعراض عسكري ـ كما يسميه الإعلام ـ لشباب ينتمون إلى الإخوان في جامعة الأزهر . وما تبعه من حملة اعتقالات واسعة في صفوف الجماعة، رافقتها حملة إعلامية وسياسية عنيفة، تتحدث عن نية الإخوان للعودة إلى العنف، بعد كشفهم لتدريبات عسكرية قاموا بها لكوادرهم وشبابهم! . وهو الحدث الذي وصفه الجميع ـ خصوم وأصدقاء ـ بأنه (حماقة سياسية)!، غير مفهومة الدوافع ! . أخبرنا الدكتور عصام أن ما حصل كان خطأً دون شك، وهو لا يعدو مجرد ارتجال قام به عددٌ من شباب الجماعة، بعد أن تعرّضوا لتضييق وقمع عقب إلغاء انتخابات الجامعة التي كانت لصالحهم . وأن الإعلام والسلطة استغلّوا هذا الحدث كي يقيموا (حفلة تحريض وتشويه) ضد الجماعة وتاريخها الواضح في العمل السلمي.. ورغم استغرابي الذي أبديته من قيام نشاط بهذا الحجم دون علم قيادة الجماعة المعروفة بمركزيّتها وحزمها! . إلا أن الدكتور عصام أكد ارتجالية هذا النشاط، وعدم علم قيادة الجماعة به.

كذلك ذهبتُ برفقة يوسف إلى الأستاذ جمال سلطان الذي كان قد دعانا لجلسة مسائية في مكتبه، بحضور عدد من الضيوف والصحفيين . وكان أحدهم هو أخوه محمود، الذي يرأس تحرير موقع (المصريون)، إضافة للدكتور مازن النجار، والأستاذ معتز الخطيب معد برنامج الشريعة والحياة على قناة الجزيرة، وبعض الإخوة الآخرين .

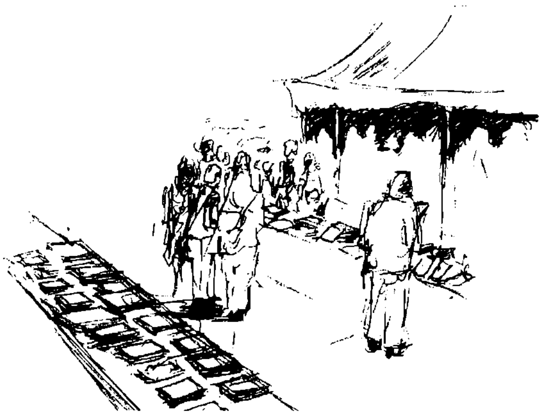
ساعتان قضيناهما في الحديث حول بعض شؤون السياسة والصحافة، وعن العالم الخلفي الذي يدور في أروقة المؤسسات الإعلامية والقنوات الفضائية.. ثم

انطلقت مع يوسف، وبرفقتنا معتز الخطيب إلى مقر موقع إسلام أون لاين، للقاء صديقنا الصحفي حسام تمّام، الذي قضينا معه ما تبقى من الليل، بعد أن تناولنا (أحلى) فول وطعميّة بالبلد، في مطعم شعبي معروف . وبعد أن شربنا الشاي، خرجنا جميعاً لممارسة طقسنا اليومي، بالمشي في شوارع القاهرة وأزقتها، التي تفرغ في الليالي الشاتية من المارّة والمتجولين.

وحين أتممنا ساعة من المشي المتواصل، انعطفنا أنا ويوسف باتجاه الفندق، بعد أن قاربت الساعة من الثانية ليلاً.. أثناء سيرنا توقف بمحاذاتنا سائق تاكسي، وأصر بإلحاح على أن نركب معه . وعندما لم يُفلح في إقناعنا بذلك، استخدم آخر عروضه الترويجية، وقال : (شوفوا، حوصلكوا لأي سهرة انتو عاوزينها ببلاش!!) قلت له: (دنتا بتحب الخير بشكل)!!



جولة في دهاليز معرض الكتاب



4

يُقام معرض الكتاب الدولي سنوياً في أرض المعارض، وهو مركز ضخم، مخصص لإقامة المعارض الدولية لكافة المعروضات والمنتجات . يقع هذا المركز في مدينة نصر، التي تُعد من مناطق القاهرة الحديثة نسبياً، وتحتاج إلى ما يقارب الاربعين دقيقة للوصول إليها من وسط القاهرة، وذلك في الحالات الاعتيادية (في أوقات الزحام الخانق ربما تحتاج إلى ضِعف المدة).

أرض المعارض هذه عبارة عن قرية تجارية، تحوي أكثر من عشرين صالة ضخمة للعرض (سراي)، وفي حال أُقيم معرض الكتاب، فإنه يشغل كل هذه الصالات، بحيث تتخصص كل صالة في عرض نوع معين من الكتب، فهناك صالة يغلب عليها الكتب الشرعية والدينية، وأخرى تسودها كتب الأنظمة والقانون، وثالثة مخصصة لمنتجات المؤسسات الصحفية المصرية من الكتب . أما دور النشر غير المصرية، فتشغل عادة صالتين أو ثلاث، هما في الغالب سراي ألمانيا وسراي أمريكا - لكل صالة أو سراي اسم أو رقم - وتسمى صالات الناشرين العرب، في هذه الصالات تجد كل دور النشر اللبنانية، والسورية، والمغربية، والخليجية، ودور النشر العربية الموجودة في بعض الدول الأوروبية، وسواها.. بالنسبة لي تُشكل صالتا الناشرين العرب ثمانين بالمائة من أهمية المعرض، لكونها تحوي أهم دور النشر العربية، وأكثرها اعتناءً بالموضوعات الثقافية والفكرية والسياسية.. كما أن بعض

دور النشر الكبيرة مثل مكتبة مدبولي، ودار الشروق، ومكتبة العبيكان، لا يكتفون بإقامة أجنحة داخل هذه الصالات، بل يقيمون لهم أجنحة ضخمة ومستقلة، تكون أشبه بصالات خاصة لكل ناشر منهم .

مركز المعارض الضخم هذا ليس مخصصاً فقط لعرض المنتجات، بل في داخله عدد كبير من المطاعم والمقاهي والدكاكين التي تبيع المصنوعات المحليّة، ومعارض ديكور (موبيليا)، وعدد كبير من البائعين المتجولين الذين يعرضون منتجاتهم في الطرقات والممرات بين صالات العرض .

حين دخلت إلى المعرض نهار البارحة، وجدت أمامي بائعاً متجولاً يقوم بالترويج لبعض منتجات القرطاسيّة، ويهتف قائلاً : (لمدة ساعة وحدة بس، كل حاجة بنص السعر) . كان هذا في قرابة الساعة الحادية عشرة صباحاً . وحين هممت بالخروج في حدود الرابعة عصراً، مررت بقربه، وإذ به لازال يردد : (لمدة ساعة وحدة بس، كل حاجة بنص السعر) . . قلت في نفسي : كم تبدو ساعات هذا الرجل طويلة ! !

المعرض يحوي أيضاً عدداً من النشاطات الثقافية، تُقام عادة في خِيم صغيرة، تحوي كل واحدة منها ما لا يزيد عن أربعين أو خمسين مقعداً للحضور، وتتنوع هذه الخِيم بحسب الموضوعات، فخيمة للأدب، تعرض عادة إبداعات الأدباء في الشعر والقصة القصيرة والرواية، وخيمة أخرى للعروض الفلكلورية والفنية، وثالثة مخصصة لنقاش قضايا الشباب، وهكذا . كما أن هناك صالة كبيرة تسمى (تاكي) مخصصة لنقاش وعرض الكتب الصادرة حديثاً، إضافة للصالة الكبيرة والرئيسية في المعرض، والتي تُسمى صالة ستة أكتوبر، وهي التي تختص بالنقاشات والحوارات السياسية والفكرية .

بالنسبة لنا، لا تخلو رحلة من شهود عدد من هذه الندوات والنشاطات الثقافية، التي لا تغيب عنها الحوارات الساخنة والسجالات المتواصلة بين الفرقاء السياسيين، والجدل الذي يدور بين الإسلاميين والليبراليين و اليساريين حول كثيرٍ من مواطن التماس الفكري والسياسي .

مثلاً، حضرنا مرة في قاعة تاكي حواراً حول أحد الكتب الجديدة، التي

تتحدث عن موقف الإسلاميين من القضايا المدنية، كالمواطنة، والديمقراطية، والموقف من العنف، وسواه . وكان الدكتور عصام العريان أحد المناقشين، فيما الدكتور رفعت السعيد (رئيس حزب التجمع اليساري) المتخصص في نقد الإخوان هو المناقش الآخر . وكانت القاعة التي تكفي لحضور ثلاثمائة شخص، تغض بأكثر من خمسمائة شخص، غالبيتهم الساحقة من شباب الإخوان . ووسط النقاش الساخن والممتع، والمناكفات التي تجري بين الضيفين اللذين تربطهما علاقة جيدة رغم الخصومة الفكرية، تسمع هتافات الإخوان المعارضة للخطاب اليساري، والداعمة للدكتور عصام.. هنا قال د.رفعت بأسلوبه الساخر والمميز، وبصوت مرتفع مخاطباً د.عصام العريان : (إيه يادكتور، إنتو حاشدين!!، إحنا ما اتفقناش على كدا)!.. وبعد قليل يواصل د.رفعت مناكفته للإخوان ويقول : (أكبر دليل على عدم ديمقراطية الإخوان هو حكاية «بيعة المقابر»، حين بايعوا مرشدهم الجديد في المقبرة أثناء دفن مرشدهم السابق، دون انتخابات ولا هم يحزنون!) . بعد قليل علّق د.عصام، وابتدأ كلامه مستحضراً ذات القدر من السخرية : (بداية أود أن أبارك للدكتور رفعت وصوله لمنصب رئيس حزب التجمع ـ وكان لمدة طويلة الأمين العام ـ الذي وصل لرئاسة الحزب بالتزكية! ودون إجراء أي انتخابات، ولا هم يحزنون!!).. هنا ضج جميع الحضور بالضحك .

عادة ما نقضي أغلب أوقاتنا في المعرض داخل صالات الناشرين العرب، التي تحوي كبريات دور النشر العربية، كمركز دراسات الوحدة، والمركز الثقافي العربي، والساقي، والمدى، والطليعة، والجمل، والفارابي، ودار رياض الريّس، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، ودار الانتشار العربي، وسواهم . طبعاً كل هذه الدور سالفة الذكر هي دور نشر لبنانية، التي لازالت هي الأكثر اهتماماً بالمضمون الثقافي والفكري والسياسي، والأكثر احترافاً في مجالات التصميم والنشر والطباعة .

أثناء تجوالي في صالات الناشرين العرب، عادة ما أتبع تكتيكاً معيناً كلما شعرتُ برغبة في الجلوس للراحة بعد إجهاد السير الطويل بين الصالات، حيث أتجه لإحدى هذه الدور ـ التي باتت تربطنا بالعارضين فيها علاقات جيدة بعد كل هذه السنين ـ وأبادره بالسؤال عن الوضع في لبنان، مستحضراً الميول السياسية

لبعض الدور : (شو، كيف البلد؟.. هيك بتخلّوا جماعة ٨ آذار يخربوا البلد؟!)، طبعاً بسبب غرام اللبنانيين بالحديث عن شؤونهم الداخلية، أبدو حينها وكأنني مُضطر للجلوس! الذي لا يخلو في أحايين كثيرة من أكواب الشاي أو القهوة التي تُحرِّض على مزيد من (السوالف)!.. قبل يومين، وأثناء ما كانت المعارضة اللبنانية التي يتزعمها حزب الله قد بدأت بالاعتصام في وسط البلد، وقامت بقطع الطرقات، ومنع الناس من الذهاب إلى أعمالهم، قلتُ لعصام حمدان، العارض في الساقي، وهو من منطقة عاليه في جبل لبنان، التي تُعد من أهم معاقل وليد جنبلاط : (شو، شكل الجماعة بدهن يطلعوا إلكن في الجبل؟!).. يبدو أن جملتي هذه نجحت في استثارة كل مكامن الفحولة والمواجهة داخلة، حيث قال غاضباً : (هما بيسترجوا يطلعوا الجبل؟!!)، ولا تسأل عند ذلك عن حوارات (الوقت المستقطع) التي دارت حينها.

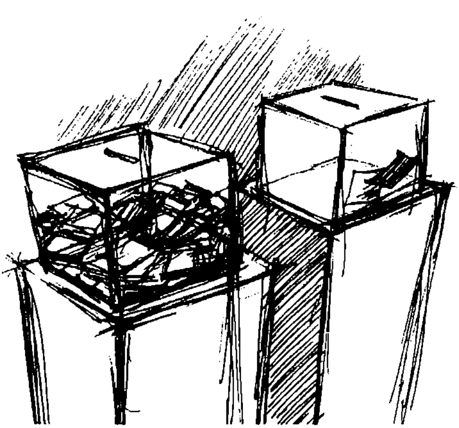
البارحة، قلتُ للعارض في دار الفارابي - وهم شيوعيون - : (هل صرتم آخر الأمر تسيرون خلف ركاب الأصولية الدينية التي يتزعمها حزب الله!! أين شعاراتكم التقدميّة والطليعيّة؟!).. هنا حاول العارض إقناعي بأن موقفهم سيظل محايداً بين كتلتي الموالاة والمعارضة، وقال : (خصومنا هم الذين يروجون هذه الأكاذيب عن علاقة الحزب الشيوعي بكتلة ٨ آذار المعارضة، وهذا بالطبع غير صحيح، لذا نحن لم نحشد أنصارنا في المظاهرات التي حصلت مؤخراً).. طبعاً من يسمع هذا الكلام ربما ظن أن حشود الحزب الشيوعي كانت ستملأ - فيما لو خرجت - كل ميادين وشوارع لبنان وسوريا!!.. رغم أنه يمكن جمع كل أنصار الحزب الشيوعي - الأحياء! - في (باص خمسين راكب)!، مع يقيني أن آخر صفين في مقاعد الباص سيظلان فارغين!!

أثناء جولتي في أروقة المعرض لهذا اليوم، قررت الذهاب إلى إحدى صالات العرض المنزوية، التي تحوي أهم داري نشر متخصصتين في الكتب والإصدارات الشيوعية، هما (دار العالم الثالث) و (دار الأهالي).. في هاتين الدارين تجد عادة كل الكتب الماركسية المدرسية المؤسسة، كتب ماركس، وإنجلز، ولينين، وتروتسكي، وماوتسي تونغ، وسواهم.. يملك دار (العالم الثالث) كاتب

عجوز، هو ماركسي معروف، اسمه (يوسف الجندي)، عمره يتجاوز التسعين عاماً، وكنتُ سابقاً أراه كل عام بهيئته الكادحة يجلس مع زوجته الروسية، كي يبيعا بنفسيهما في جناحهما المتّواضع.. قبل سنين، حكى لي يوسف الجندي جزءاً من سيرة حياته، وكيف عاش في موسكو سنين طويلة، ثم لماذا رجع إلى مصر . وقد روى لي ذلك عندما قلتُ له أنني زرت موسكو قبل بضعة أعوام، وأنني استمتعت برحلتي تلك كثيراً .

في السنتين الأخيرتين، كلما أقبلتُ على جناح (العالم الثالث) أشعر في داخلي بشيء من القلق والتوجس، حين يدور في ذهني سؤال : (هل يا تُرى سأرى هذا العجوز في جناحه المعتاد؟، هل لازال على قيد الحياة؟) . وحين أُقبل على الجناح، ولا أرى هذا العجوز بداخله، أشعر بمزيد من الحرج في السؤال عنه . ولكنني كنتُ أسأل آخر الأمر.. هذه المرة لم أره أيضاً، فسألت عنه العارضة التي كانت تبيع في الجناح، وإذ به لازال موجوداً على قيد الحياة، ولكن صحته المتردية لم تعُد تُسعفه في المجيء.. في هذا العام أيضاً لم أجد (دار الأهالي) في مكانها . سألت عنها البائعة بدار العالم الثالث، فقالت لي أنهم قرروا عدم المشاركة لهذا العام في المعرض.. ثم أضافت وهي تضحك : (الظاهر أنهم افتقروا).. قلت لها مازحاً : (يبأى كدا عوقبالكوا).. قالت : (إحنا إدينا سنة أو سنتين بس وحنفتقر مثلهم)!!

في ضيافة حزب التجمع التقدمي
الوحدوي الاشتراكي الطليعي......الخ



5

صباح اليوم، وقبل ذهابي إلى المعرض، قررتُ المرور على د.رفعت السعيد، رئيس حزب التجمّع اليساري الوحدوي الطليعي الشعبي الاشتراكي التقدمي الديمقراطي...الخ.. الهدف المعلن من هذه الزيارة هو السلام عليه، وإهداؤه نسخة من كتابي (محاورات) الذي تضمن حواراً معه.. أما الهدف المضمر بعقلي الباطن فهو قضاء ساعة من المتعة السياسية مع د.رفعت، المعروف بظرافته، وخِفة ظلّه، وقدراته الاستثنائية على السخرية من كل تفاصيل المشهد السياسي المحلي والدولي!

قبل أربعة أعوام، عندما زرتُ مقر حزب التجمّع (معقل اليسار المصري)، بهدف إجراء حوار مع د.رفعت السعيد في صحيفة الشرق الأوسط، باعتباره متخصص في حقلين مهمين ـ وقد أصدر أكثر من عشرة كتب في كل حقل منهما ـ الأول هو نقد الإسلام السياسي وجماعة الإخوان المسلمين على وجه الخصوص، والثاني تدوين تاريخ اليسار المصري ومحاولة تحديث خطاب اليسار.. في زيارتي تلك، التي كانت أول دخول لي لحزب التجمع، لاحظتُ وأنا أدلف إلى مقر الحزب، أن العيون ترمقني بشزر، إذ أن هيئتي ولهجتي تدلان أولاً على أنني من الإسلاميين (خصومهم التقليديين)! وثانياً على أنني خليجي!، وكلا الأمرين بدَوَا مستغربين وغير معتادين تحت سقف معقل اليسار المصري. حتى أن مسؤول الأمن

في الحزب أوقفني في المدخل!، ورفض إدخالي إلى القاعات الداخلية، قبل أن يتأكد من أنني بالفعل على موعد مع الدكتور رفعت السعيد (وكان في ذاك الوقت الأمين العام للحزب، ولم يُصبح رئيساً له إلا قبل شهور معدودة).

بعد ذلك صِرتُ أتردد على الدكتور رفعت بمقر حزب التجمع في بعض زياراتي للقاهرة.

حين دخلتُ عليه صباح اليوم، وبعد التحية والسلام، وتسليمه نسخة من الكتاب، تظاهرت بأنني على عجلة من أمري، لكوني لا أرغب في إشغاله عن أعماله وارتباطاته.. لكنه أصر على جلوسي، وقال: (ياعم إنتا وراك إيه)!، وأضاف: (قل لي، إزي حالكوا). أجبته بالجملة التقليدية الرتيبة: (ماشي الحال). رد بدعابته المعتادة: (دي الحال منيّلة بستين نيلة، ومش ماشية ياعم!).

وبسبب قرب انتهاء الانتخابات البرلمانية التي لم يمضِ على انقضائها سوى ثلاثة أشهر، وأسفرت عن حصول الإخوان على ٨٨ مقعداً، فيما لم يحصل حزب التجمع إلا على مقعدين اثنين!، قلتُ للدكتور رفعت: (إيه يا دكتور، دول الإخوان حيبلعوكوا)! . هنا بدأ د.رفعت برواية الفيلم المعتاد، حيث تحدث عن دعم الحزب الوطني للإخوان!! وكيف أن الحكومة قرّرت فتح الطريق للإخوان بعد أن تحالفت معهم قبل الانتخابات!! فيما هي تواصل قمع حزب التجمع وبقية قوى المُعارَضة النزيهة!!.. وتحدث أيضاً عن القوة المالية التي نزل بها الإخوان إلى الانتخابات، وأشار إلى أنهم دفعوا أكثر من خمسمائة مليون جنيه لتمويل حملاتِهم الانتخابية!! فيما هم لا يملكون أي إمكانات مالية تساعدهم على مواجهة المد الإخواني المتسلح بالمال الخليجي كما يقول!!.. وحين شكّكتُ بحجم الرقم الذي ذكره، قال: (دا مرشد الإخوان مهدي عاكف كتب في بيانه الأسبوعي المنشور في موقعهم الرسمي، أنه دفع ستة عشر مليون جنيه في منطقة واحدة، من أجل الفوز على «يوسف والي» أحد كبار رجالات الحزب الوطني). ثم أضاف وهو يضحك: (بصراحة، أصل المرشد دا فرصة ما تتعوضش!. كل يوم بيصرح للإعلام، ويكشف حاجة جديدة بيورط بيها الجماعة!. دا راجل أنا بعرفه كويس. كنّا بزنزانة وحدة في السجن لسنين طويلة.. إنتا عارف إنه كان بيشتغل مدرّس

ألعاب رياضية!.. دا كان في السجن هو الفتوة عندنا.. وكان بيضرب أي حد من المساجين بيتكلم ع الإخوان).. طبعاً لا تنسوا أن علاقة الدكتور رفعت السعيد بالإخوان، تُشبه علاقة جورج بوش بأسامة بن لادن!.. أي أنها حميمية جداً!!

كما حدثني د.رفعت عن قلقه من المد الشيعي في المنطقة، وقال بسخريته المعتادة: (دول بعض العِيال عندنا في الحزب قاموا برفع صور حسن نصرالله في مظاهرة بعد حرب لبنان!! ياولاد الـ.....!! إنتوا عاوزين تكونوا يساريين على طريقة ولاية الفقيه!!) .

كما حكى لي كيف غضِب عليه بعض السعوديين، حين كتب مقالاً ينتقد فيه كتاباً لشيخ سعودي، يقولَ فيه أن الرأسمالية كفر، والاشتراكية كفر، والقومية كفر . وأنه حصل على هذا الكتاب من أحد قادة حزب التجمع (الماركسي) الذي ذهب إلى السعودية كي (يعمل عمرة)!!.. ثم أضاف : ولكنني استبشرتُ خيراً حين حدثني الناشر لكتبي أن بعض السعوديين اشتروا عدة نُسخ من ثلاثة كتب لي عن الإخوان (هي : كتاب حسن البنّا لماذا وكيف وأين، وكتاب التأسلم السياسي، وثالث نسيتُ عنوانه) . حيث اعتبر د.رفعت ذلك بداية وعي سعودي!.. قلت له ساخراً : أرجو ألا تظن يا دكتور أن هذا بداية لتشكل تيار يساري جديد في السعودية!!، ربما تجد أن أحد هؤلاء السعوديين الذين اشتروا كتبك، هو ذاته الذي كتب أن (الاشتراكية كفر، والقومية كفر)!!، أظنك تعرف أن هناك خلافات حادة بين التيارات السلفيّة والإخوان في كل الدول العربية . ثم أضفت ضاحكاً: (يادكتور انتا دلوقتي تساهم في تأسيس تحالف جديد بين السلفية والماركسية ضد الإخوان!!).

أيضاً تحدث د.رفعت عن تكريس جماعة الإخوان وقوى الإسلام السياسي للنظام الرأسمالي في البلد، حيث غدت برامجهم الاقتصادية تقارب برامج الحزب الوطني الحاكم.. وقد يحمل هذا الكلام كثيراً من الدقة، لأن غالب الحركات الإسلامية بما فيها جماعة الإخوان، هم أقرب في برامجهم الاقتصادية إلى الرأسمالية منهم إلى الاشتراكية . حتى أن المهندس أبو العلا ماضي حدثني مرة عن امتعاض بعض قوى المعارضة - التي هي في غالبها يسارية وقومية - من البرنامج

الاقتصادي لحزب الوسط، رغم أنه مازال تحت التأسيس، حيث اعتبروه ذا نزعة رأسمالية واضحة، وبعيداً عن القيم الاشتراكية .

طبعاً الصراع بين القوى الاشتراكية والرأسمالية ـ كمنظومات اقتصادية وسياسية ـ قديم ومتجذر، ويمتد لقرابة القرنين من الزمان .

كتبتُ مرة في توصيف هذا التباين والتضاد بين هاتين المنظومتين.. مستحضراً هذا التباين وأنا أقوم باستكشاف التطلعات والتوجهات السياسية لطفليّ التوأم.. وخرجتُ بالنتيجة التالية :

* * * *

ميول طِفلَيَّ السياسية

منذ أن رزقني الله طفليَّ التوأم، وأنا شغوفٌ باكتشاف نوازعهم الفكرية، والتعرف على مزاجهم في التعاطي مع التيارات والاتجاهات السياسية السائدة في العالم اليوم.. لأنني قبِلتُ وأنا بكامل وعيي (ودون أي ضغوط من أحد) أن أُصدِّق هرطقات أساتذة علم النفس، التي تقول أن الطفل قد يحسم بعض خياراته الفكرية والسياسية منذ شهور ولادته الأولى.. لذا بدأت أتأمل في ملامحهم، ونظرات عيونهم، وحركات أيديهم، عن (موقف) واضح من النظام العالمي الجديد، وعن (رأيهم) في السياسات النفطية للرئيس الفنزويلي تشافيز، وعن مدى ضجرهم من الممانعة الدولية تجاه الطموح النووي لكوريا الشمالية.

رغم أن طفليَّ يستمتعان الآن بشهرهم العاشر، إلا أنني استطعت اكتشاف نوازع سياسية مذهلة، تطغى على كامل سلوكهم اليومي في التعامل مع (الرضّاعة) و (المصّاصة) و (السيريلاك)، وتؤثر على مدى اختيارهم للتوقيت المناسب للشروع في استخدام (الحفّاظات).

أحمد (وهو أحد طفليَّ وأكثرهم استمتاعاً بالحياة) اكتشفت ـ بعد طول تأمل ـ أن عنده نوازع رأسمالية طاغية، تتمثل في عدة تجليات.. فهو إذا أراد شيئاً يمارس

حقه الشرعي في البكاء بشدة، دون أن يضع أي اعتبار للعقل الجمعي (نزعة فردانية).. وعندما يتناول وجبة الحليب، يُصِر على أن يضع رجلاً على رجل وهو بكامل الاسترخاء، دون أي احترام للتراتبِية العمرية التي يفرضها وجودي أنا كـ رأس للسلطة السياسية في هذا المنزل (تمرد على النظام الأخلاقي السائد).. وهو حين يَفرغ من شُرب الحليب، يقوم برمي الرَضّاعة جانباً (استنزاف للمال العام).. إضافة إلى أنه شغوف بالاستمتاع - في أوقات فراغه - بمصّاصتة الكوبية (كناية عن السيجار الكوبي).

(أحـمـد) صارحني ذات يـوم - عبر همهمات مشفّرة قمت بترجمتها من الهيروغليفية إلى العربية -، وبعد أن قضى لحظات من التأمل وهو يضع مصاصته بجانب فمه، أنه مرتاح لسياسة أوبك النفطية، ومتفائل بدخول منظمة التجارة العالمية إلى الوطن العربي، وهو يتفهم القلق الدولي من مشروع إيران النووي، ويعتقد أن مفهوم (توازن الرعب) هو من مخلفات الحرب الباردة، كما أنه أشار بإيجاز مُتحفظ إلى أهمية الاستقرار السياسي في المنطقة (مُلمحاً إلى تأييده لعملية السلام في الشرق الأوسط).

(أحمد) طفل ذو مزاج برجوازي واضح، فهو لا يحب شرب الحليب إلا إذا أُضيف له بعض العسل، وهو شغوف بمتابعة الإعلانات التجارية التي تُشبع نزعته الاستهلاكية، كما أنه معجب بـ أرستقراطية مدام (مينشن) في المسلسل الكرتوني (سالي)، ويمقت العبثية والفوضى المسيطرة على حياة الآنسة (فلونا).

أما فهد (وهو طفلي الآخر)، فله ميول مختلفة بعض الشيء، حيث إن أي متابع لسلوكه اليومي سيكتشف بسهولة مزاجه الاشتراكي.. فهو على سبيل المثال لا يستخدم سلاح (البكاء) إلا إذا كانت عنده دوافع نبيلة، مثل أن يراني على وشك الخروج من المنزل (نزعة تحرريّة).. ولا يقفز على نصيب أخيه من البسكويت، ولو كان في متناول يده (مؤمن بتوزيع الثروة).. ويُحِب النوم على صدري بعد أن يُحيط رقبتي بذراعية (امتداد للرومانسية الاشتراكية).. ويضحك كثيراً في وجه خادمة المنزل، ولا يحاول إتعابها حين تتفرغ لمتابعته (تعاطُف مع الطبقة الكادحة).. كما أنه يرفض تخصيص ألعاب خاصة به وأخرى خاصة

بأخيه، لأنه يعتقد أن كل الألعاب المتوفرة في المنزل هي من ممتلكات الأسرة (تأميم الاقتصاد). (فهد) حكى لي ذات صباح، أنه بات مقتنعاً بأن السياسة الاستعمارية الأمريكية هي سبب تعاظم الإرهاب في المنطقة، وأن منظمة التجارة العالمية هي إحدى أدوات الهيمنة الإمبريالية للسيطرة على ثروات العالم الثالث، وهو متفائل بسياسة وزارة العمل في فرض (السعودة) على القطاع الخاص، مما سيُسهم في الحد من تضخّم البرجوازية الجشعة، ودفع البروليتاريا (الطبقات الكادحة) للمشاركة في مشاريع التنمية المحلية، كما أنه لا يجد حرجاً في نقد سياسة الحزب الاشتراكي الفرنسي، الذي يعتقد أنه بات مرتهناً لأولويات الرأسمالية العالمية.

(فهد) طفل ذو مزاج اشتراكي واضح، فهو يُحب تناول وعضعضة الخبز اليابس، ويمكن له أن يستعيض عن الحليب ببعض الماء في حال تعرض الأسرة لمأزق اقتصادي، وقد صارحني مرة أنه يفكر جدياً بالانضمام إلى حركات مناهضة العولمة، كما أنه شغوف بمتابعة قناة الجزيرة، ومُعجب بالسلوك العصامي للمناضل (عدنان) ورفيق دربه المتشرد (عبسي)، اللذين كتبا فصول حياتهما في الرواية الكرتونية الشهيرة (عدنان ولينا).

بعد أن اكتشفت هذه النزعات السياسية المذهلة عند طفليَّ التوأم، اتخذت قراراً هاماً يصب في مصلحة التوازن الاستراتيجي داخل أسرتنا الموقرة، هو أنني سأمتنع عن إنجاب أي أطفال جدد، ما لم يكونوا أعضاءً في (حركة عدم الانحياز).

حكاياتُ ما قبل الرحيل



6

بدا الجو غائماً هذا النهار .. كانت الأجواء مريحة طيلة العشرة أيام التي قضيناها هنا.. ولم يعصف بنا صقيعٌ من النوع الذي يُجبرك على الاعتكاف داخل غرفتك.

أحياناً ، حين يكون الجو رائقاً ، تغمرني حالة من الاسترخاء والرغبة في السكوت والتأمل . ويبدو أنني في هكذا حالة ، حتى ملامح وجهي تختلف بعض الشيء (اكتشفت هذا مؤخراً!) . حيثُ أميل إلى التقطيب قليلاً والوجوم ، من يراني حينها ربما ظن أن ثمة مصيبة قد حلت بي! .. البارحة ، وأنا غارق في حالة الوجوم هذه ، كنت راكباً في سيارة أجرة ، ومتجهاً إلى الفندق . السائق الذي حاول أن يفتح معي موضوعاً للحديث ، لاحظ ألاَّ تجاوب لدي . وكان يختلس النظر لي كل حين . بعد قليل التفت إلي ، وقال بطريقة هي خليط من الظرافة والجد : (إنتا قرفان كدا ليه!!) .. بصراحة ، لم أتمالك نفسي ، وانفجرت ضاحكاً على سؤاله المحمّل بالسخرية.

حين تجتاحني لحظات الاسترخاء هذه ، أحاول دائماً تجنب الجلوس مع يوسف، لأنه (بسم الله ماشاء الله) يملك قدرة استثنائية في تلويث أي لحظات صفاء وشاعرية وتأمل!، وذلك عن طريق حنجرته الذهبيّة ، التي لا تكاد تتوقف عن ممارسة واجباتها الوظيفية مادامت عيونه مفتوحة ، ولم يغلبها النُعاس! ..

بعد أن مررت بتجارب أليمة مع يوسف ، اكتشفت حينها أنه لا يشعر بأي فرق في (المزاج) بين أي ساعة وأخرى من الزمن ، مهما بلغت ظروف اللحظة ، فكل الأوقات عنده سواسية . لذا لا تلمس أي فرق في مزاجه بين اللحظات التي يلتهم فيها (خروف مندي) مع رفاقه في البر ، وبين اللحظات التي يقوم فيها بواجب العزاء بوفاة أقرب الناس إليه! . لا فرق بين ليل أو نهار ، حر أو برد ، مطر أو صحو .. الآن فقط أدركت عظمة الاستنتاج الذي توصل إليه أحد الرفاق، حين قال أن يوسف في حقيقته رجل آلي ، سيظل يتحدث بكامل المزاج ما دام (شابك الفيش)! ، أي مستيقظ!

أيضاً من ميزات يوسف الاستثنائية في الجنس البشري ، أن وتيرة الصوت لديه واحدة . وسيكون من غير المفهوم بالنسبة له إذا ما طُلب منه أن يصرخ مثلاً ، أو أن يُخفض صوته، لأن صوته مصمم على طبقة واحدة ، هي الصُراخ . لذا لا يمكن أن يختلف مستوى الصوت لديه بين أن يُناديك في زحام السير بميدان طلعت حرب ، أو حين يهمس لك في قاعة امتحانات!!

المشكلة أنه في ذات الوقت ، لا يتردد أبداً في أن يُعطي فيصل بعض النصائح ، حول ضرورة مراعاة (البريستيج) في الأماكن العامة!!

يبدو أن يوسف شعر في هذه الرحلة بالانتصار ، لأن كل خياراته كانت مجابة، ولا يستطيع أحدٌ الاعتراض عليه! .. مرة ، قال لي أحمد في لحظة تجلٍّ : ألا تلاحظ أن يوسف مغرم بتقمص شخصية هتلر! ، خاصة وهو يقرأ علينا برنامجنا اليوم الذي يتوجب علينا ضرورة الالتزام به!!

الاعتراض على يوسف يُعد حماقة من القطع الكبير ، لأنه حينها لن يتوانى أبداً عن أن (يقرفك) في عيشتك .. ساعة قررنا القدوم إلى القاهرة ، قلت له : شوف يا إبني ، إذا رغِبت في أن تسكن بفندق آخر غير الذي نسكن به ، فسأعتبر هذا القرار من اللحظات السعيدة في حياتي ، المهم أن (تفكني من شرّك) .. طبعاً قلتُ له هذا الكلام ، لكوني أعرف جيداً مقدار الإذلال الذي سيمارسه تجاهي ، لمجرد الظن أن هناك من أرغمه على قبول مكانٍ لم يحظَ بكامل ارتياح عقله الباطن! .. المشكلة أنه حتى بعد كلامي هذا ، لم يكفّ عن ملاقاتي كل مرة بموشح عن سوء

خدمات الفندق ، وعدم ملاءمته لطبقته الاجتماعية الرفيعة! وأنني أنا المتسبب الوحيد بهذه الكارثة الإنسانية! ، ويظل يقول لي : (ليش ما خليتني - كأنني أمه! - أسكن في فندق جراند حياة)!! .. أظن أن بداخل يوسف جينات تجعله لا يستطيع العيش دون أن يشعر أنه كائن مقموع! .. المشكلة أن قيمة استئجار الغرفة في فندق (جراند حياة) تبلغ مائتي دولار ، وفي الفندق الذي نسكنه تبلغ فقط ثمانين دولاراً ، ورغم ذلك كان حريصاً على أن يسكن مع فيصل - مندوب البروليتاريا في الرحلة - في غرفة واحدة مشتركة!! ، بل وكان يحرّض بعض رفاقنا في الرياض على المجيء إلى القاهرة ، كي يتمكن من إضافة شخص ثالث إلى غرفتهم ، حتى تتقلص قيمة ما سيدفعه كل واحد منهم! ، لأنه - بحسب ما كرره علينا أربعمائة مرة! - ينوي شراء سيّارة جديدة ، لذا يرغب في التوفير!!

من الأسلم لكرامتك الإنسانيّة ولظروفك النفسية ، ألا تبادر باقتراح للذهاب إلى أي مكانٍ مع يوسف! .. دعه هو يختار المكان الذي يريد ، وما عليك إلا اتباعه. لأنك إذا ما اقترحت مثلاً الغداء في مطعم فاخر ، فسيقول لك : أنت دائماً تحاول إيهامنا بأنك متعاطف مع الطبقات الكادحة ، ومع ذلك لا تُحب الأكل إلا في مطاعم الطبقة الأرستقراطية! . وإذا ما اقترحت - قطعاً للطريق على يوسف - أن نتناول الغداء في مطعم متواضع ، فسيقول لك : هل تريد إيهامنا بأنك مُفلِس ، رغم أن راتبك يتجاوز الـ .... (لاحظ أنه يعرف كم راتبي!!).

برفقة يوسف تبدو كل الخيارات صعبة .. حين تجلس مع مثقف أو كاتب ، وتبدي بعض الملاحظات على كلامه ، يبادرك بالقول - بصوته المنخفض! - : (يعني أنت فقط من يفهم)!! .. وحين تمدح مثقفاً آخر يقول : (صاير تمدح! ، واضح أن نقدي لك أصابك بعقدة نفسية ، وتريد أن تُكفر عن سلوكك السابق)!! .. وحين تقول أن كلام فلان بسيط وسطحي ، يبادرك بالقول : (يعني كلامك فقط هو العميق)!! . وحين تقول أن كلام فلان بدا عميقاً ، يقول : (واضح أنك لا تفهم شيئاً! ، هل هذا كلامٌ عميق)!!

في هذه الرحلة ، بدأت أكتشف أن عند يوسف سلوكيات جديدة . فأخلاقه صارت كأخلاق مشجعي الفِرق الإنجليزية .. خذوا مثلاً ، لأنه فاز - بانتخابات

مزوّرة ـ في تولي مسؤولية الصرف المالي من (الصندوق المشترك) للرحلة ، كان حريصاً على ألا يتناول أي وجبة ـ حتى وجبات الفطور ! ـ إلا إذا كانت طبقاً من الروبيان الباهظ القيمة (استغلال جشع للنزعات الاشتراكية للرحلة) .. المشكلة أن مقدار الطعام الذي يطلبه يوسف لا علاقة له بالمقدار الذي يتناوله أي كائن بشري ! . هو يُضاهي ما يتناوله خمسة مصارعين في حفل انتصارهم بمعركة مصيرية ! .. المهم أن مجلس إدارة الرحلة ـ مراعاة لسلوكيات يوسف الجديدة ـ قرر في اجتماع طارئ أن يقوم بِقسمة صندوق الرحلة إلى شطرين متساويين ، أحدهما صندوقٌ للرحلة ، والآخر صندوقٌ للروبيان ! !

وبعد أن يتناول يوسف نصف طن من الروبيان ، ويأتي دوره ـ باعتباره المسؤول المالي للرحلة ـ في تسديد الحساب ، ندخل معه في معارك طاحنة ، لأنه يرى أن مقدار (البخشيش) الملائم دفعه على فاتورة تبلغ قيمتها خمسمائة جنيه ، هو نِصف جنيه فقط !!، وأن دفع أي مبلغ أكبر من ذلك ، يُعد من الإسراف الذي تنهى عنه الأديان السماويّة والقوانين الوضعيّة ! !

ورغم أن مقدار الطعام الذي يتناوله يوسف يكفي لإنهاء مجاعة ثلاث قبائل في أفريقيا، إلا أنه مع ذلك يبدو في غاية النحافة والرشاقة ! ! ، حتى أن فيصل قال له مرَّة: (أنا أبغى أعرف بس أنتا فين تودي كل الأكل هذا) ! ، قال له أحمد : يبدو أن جسد يوسف لا يحوي في داخله أية أعضاء ! هناك فقط فراغ كبير يمتد من أقدامه إلى رأسه ، يقوم بتعبئته بالطعام كل يوم !

يُعد يوسف أيضاً من أبرز المُهتمين بالجانب الثقافي ! ـ طبعاً هو اهتمامٌ على طريقته الخاصة ـ . لذا عندما يقتنع بفكرة ما ، فمن الأفضل ألا تختلف معه حولها ، لأن فكرته تلك تُصبح حينئذ من قطعيّات الشريعة ، ومن المسلّمات الكونيّة ، ومن بدهيات الفطرة الإنسانية السليمة ، التي لا تغيب إلا عن المُغفلين والمعتوهين ! .. وهو لن يتردد ساعتها في أن يوظف كل قدراته العقلية ومخزونه الثقافي ـ إن وجِدا ـ لإقناعك بأن الشيوعية نشأت في جيبوتي ، وأن أبو مصعب الزرقاوي هو مدرّب منتخب تونس للسباحة ، وأن جبال السروات تقع على نفس الارتفاع مع غور الأردن !

وهو من القلائل الذين يملكون قدرات فائقة في معرفة اتجاهات ومواقف وآراء المفكرين والكتّاب دون أن يقوم بالقراءة لهم!! .. وإذا أراد أن يوثّق آراءه معرفياً، فيكفيه أن يقرأ ثلاث صفحاتٍ فقط من أي كتاب يقع في حدود (٥٠٠ صفحة)!، وإذا زاد حجم الكتاب عن (٦٠٠ صفحة) ، فستدفعه الأمانة العلمية إلى رفع مستوى القراءة إلى أربع صفحات!.. ولذلك هو لا يتردد في أن يُتحفنا دائماً بمعلوماته الدقيقة وآرائه الفذّة ، مثل أن يقول : (أن خالد مشعل زعيم حزب الليكود الشيوعي في موريتانيا ، قرر بعد انتهائه من حرب فيتنام التي حدثت بين البرازيل وجيبوتي عام ٨٥١ قبل الميلاد ، أن يعمل ريجيم قاسي ، يؤهله للمشاركة كـ رأس حربة ، في دوري تنس الطاولة ، الذي سيُقام في كازاخستان بعد سنتين)!!

ولأنه كذلك من المُهتمين بمعرفة مستجدات الحراك الثقافي في البلد ، ومتابعة الكتّاب الجدد في الصحافة اليوميّة ، أرسل لي مرة رسالة جوال ، قال فيها : (هل تعرف الكاتب «فلان»؟ أرجوك ، أرسل لي أي معلوماتٍ تعرفها عنه) .. ولأنني لا أحب الرسائل ذات الطابع البوليسي ، أرسلتُ له :

هذا الكاتب هو ابنٌ صميم لكتلة (ليبراليو ما بعد ١١ سبتمبر) ، الذي لا يعرف أحدهم الفرق بين الليبرالية والشطرنج .. ويرى أن كل مشاكل العالم ، وأزمة البطالة، ومأزق التنمية، والغلو الديني ، وظاهرة الاحتباس الحراري ، وضمور المياه الجوفية ، والزِحام في طريق خريص .....الخ ، أن كل ذلك بسبب ظهور الصحوة الإسلاميّة! .. يسكن في الرياض .. ويحب القهوة بسكر خفيف .. ويدخن سجائر أبو بس .. ويغني في الحمام أحياناً .

كما أنني صرتُ مؤخراً أتوجس من تقييم يوسف للأشخاص ، لأنه لن يتوانى عن كيل المدائح تجاه شخص ميزته الإنسانيّة الوحيدة هي أنه صديق له! .. لذا ، إذا قال لك أن فلاناً (أخلاقه عالية) ، فيجب أن تعرف أنه ربما يقصد أن هذا الشخص لا يتعاطى المخدرات (إلا عند الضرورة)! ، ولا تسمح له أخلاقه باختلاس مبالغ ماليّة تفوق المليون ريال! .

قبل شهور قليلة ، لاحظ عددٌ من الرفاق أنه بدأت تجتاح يوسف نزعات غريبة! ، هي خليط من التصوّف والتعلّق بكرامات الأولياء ، يُضاف إليها بعض الشعوذة

والإيمان بخوارق العادات! .. حتى أنه كشف لبعض الأصدقاء عن عزمه القيام بتأسيس تكتل سياسي تحت اسم (دراويش من أجل المستقبل)! ، وجمعيه ثقافية اسمها (الفناء من أجل البقاء)!

وفي ليلة لم تطلع فيها الشمس ، وبعد أن بلغت تجلياتُ روحه حدها الأقصى ، صارحني يوسف عن نواياه الجازمة بافتتاح (مكتب خدمات) ، متخصص في تفسير الأحلام ، وقراءة الكف والفنجان ، وسواها من أعمال جليلة! . كما أنه سيُخصص قسماً خاصاً لخدمات الطبقات الكادحة ، تتمثل في قراءة (كوب الشاي) - وذلك للارتفاع النسبي في أسعار القهوة - وتقديم تعاويذ وتمائم من محلات أبو ريالين! .

ولأنه من أعز الأصدقاء ، قررتُ أن أكون أول المتعاملين مع هذا النوع من (البيزنس التقدمي)! ، فعرضتُ عليه بضعة أضغاث أحلام رأيتها بعد وجبة فطور دسمة .. فما كان من يوسف إلا أن أنزل نظارته على أنفه قليلاً ، وقال بصوت مبحوح يكتنفه الوقار : سيأتيك رزقٌ خلال الثلاثين سنة القادمة ، وستزور أمك قبل انتهاء القرن الحالي ، وستتناول طعام الغداء في غضون الشهر القادم ، وستدخل إلى الحمّام خلال هذا الأسبوع .. ثم أطرق قليلاً وقال بحزن طاغ بدا على ملامحه: وستموت قبل أن تُكمِل عامك المائة والعشرين! .. فانصرفت عنه وأنا ممتنٌ للشهب والنيازك التي لم تدع لشياطينه قدرة على الارتقاء أعلى من سطح بيتهم .

ومن مواهب يوسف الاستثنائية ، أن الله وضع في لسانه مكنة إعلامية ضخمة، يستطيع بها إزعاج أي جهة تحاول الحد من نشاطاته اليوميّة .. لذا عندما أوقفه مرة رجال المرور بسبب قيادته لسيارته المتهالكة بسرعة تتجاوز ١٨٠ كيلومتر في الساعة!، واضطر حينئذ أن يبيت ليلتهُ تلك في (حجز المرور) ، حاول القيام بضجيج إعلامي يُظهر فيه أنه أحد ضحايا حقوق الإنسان في العالم الثالث! ، وأعلن أمام الملا عن نيته البدء في كتابة مؤلَّف ضخم من سبعة مجلّدات ، سيجعله بعنوان (مذكراتي في المُعتقل)!!

وقد ذكر لي يوسف أنه بعد احتجازه اضطر للإدلاء بتصريح صحفي لصحيفة المساء (وهي صحيفة صباحية حائطية تُصدرها ابتدائية خنشليلة للبنات) أعلن

فيه عن عزمه كتابة وثيقة إصلاحيّة يُطالب فيها بإصلاح أوضاع المرور المتدهورة في الدول النامية! . وهدد أنه سيقوم برفع هذه الوثيقة إلى منظمة العفو الدوليّة إذا لم يتم إخراجه في مدة أقصاها ثلاثة أيام من تاريخه (رغم عِلمه أن احتجازه لن يزيد عن يوم واحد)!! .. وقال في تصريحه أن احتجازه مجرد حلقة في مسلسل التهميش والاستغلال الذي تمارسه القوى الإمبريالية والرأسمالية العظمى تجاه المُناضلين أمثاله .. وناشد يوسف جميع الكادحين والشيوعيين في العالم للخروج بمظاهرة شعبيّة جارفة في كل العواصم الأوروبية ، وذلك بعد أداء صلاة الجمعة، انطلاقاً من كاتدرائية الأب كاترينا الثالثة ، للمطالبة بإطلاق سراحه دون قيد أو شرط!

كما وأعلن في تصريحه عن تبرّمه من الظروف الترفيهية الصعبة التي يُعانيها المُحتجزون!.. لذا كشف عن أنه اضطر للقيام بعملية تهريب ضخمة ، تمكّن خلالها من تهريب (ورق اللعب) ، وأقام بعدها دورة تثقيفيّة بعنوان (كيف تلعب البلوت أثناء اعتقالك)!

وفي سؤال للصحيفة عن احتمال حدوث انهيارات مالية في البورصة وأسواق المال جرّاء احتجازه! ، قلل يوسف ـ في تواضع ظاهر ـ من احتمال حدوث هكذا انهيارات .. ولكنه استدرك وقال : أن أي انهيارات مُحتملة جراء اعتقاله تقع على كاهل القوى الامبريالية التي تعبث بمستقبل الإنسانية البريئة المُتمثلة بسعادته!.

وللأهميّة التي أحدثها يوسف ذاك المساء في (حجز المرور) ، قام أحد المصوّرين المحترفين بالتقاط صورة خاصة ليوسف من وراء القُضبان وهو على هيئة في غاية البؤس ، وقال ليوسف أنه سيساومه على شرائها منه بمبلغ مليون دولار استرليني!.. لكن هذا المصور فوجئ حين قال له يوسف : (ما رأيك أن تُعطيني عشرة ريالات وأجعلك تلتقط لي عشرَ صورٍ أخرى)!!

في رحلة القاهرة لهذا العام ، حاول يوسف أن يتفادى الكارثة الذوقيّة التي حصلت في السنة الماضية ، حين ارتدى أزياءً من النوع الذي انقرض قبل الحرب العالمية الأولى ، لذا قرر يوسف أن يستعد لهذه الرحلة بعروض أزياء استثنائية، كي يقطع الطريق على كل من تسُّول له نفسه إبداء أي ملاحظات على نوعية

ملابسه ، وقام بشراء مجموعة من الـ (تي شيرت) من دكانٍ في حي البطحاء متخصص في بيع الملابس المُخلّة بالذوق العام!.. ونحن بدورنا بذلنا جهوداً استثنائية في كبت انطباعاتنا وحبس آرائنا ، بعد أن فوجئنا بطبيعة الرسوم الغريبة التي تتوسط صدر كل القمصان التي يرتديها يوسف! . فمرة شبكة عنكبوت!! ، ومرة أخطبوط!! ، ومرة مصاصُ دماء!! ، ومرة كلامٌ كُتِبَ بلغة غريبة ويتقاطر منه الدم!! .. حتى أن فيصل لم يُطِق احتمال هذه اللوحات السريالية المتحركة ، وقال له بلهجته الحجازية الرشيقة : (إشبك يا يوسف؟! ، من فين جايب الحاجات هذي!!، المرة الجايه لازم تاخذ أمك معاك علشان هي الي تشتريلك ملابس)!!

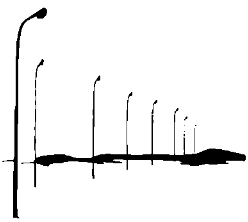
بصراحة .. وبعيداً عن هذه المماحكات التي كان يوسف هو من يحرِّضنا عليها.. يوسف هو نجم الرحلة دون منازع .. لا أدري كيف سنذهب للقاهرة مستقبلاً إذا قالت له أمه : (لا تروح معهم)!! .

القاهرة هي أكثر الأماكن شبهاً بيوسف .. نفس الإزعاج ، والضجيج ، والحميميَّة، وخِفة الظل .. لذا لا طعم لرحلة لم تجمعهما سوياً ..

وداعاً ،،

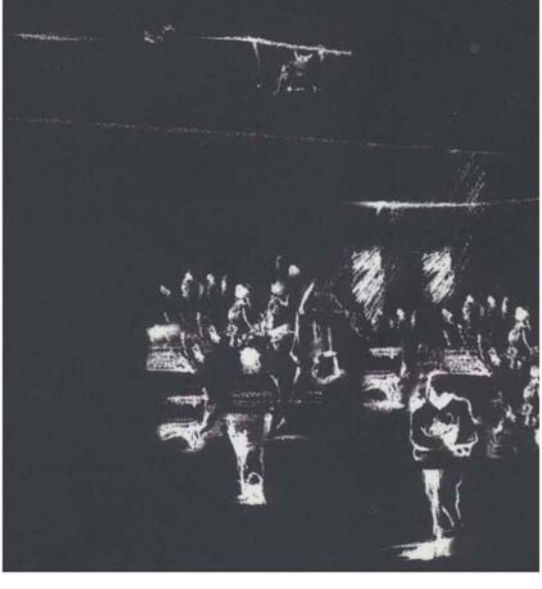
القاهرة

٢ فبراير ٢٠٠٧م



الفهرس

حين وصلت آخر الليل إلى بيروت ، اتجهت إلى داخل الوسط التجاري المُصمم على الطراز الأوروبي القديم. الأضواء الخافتة، وزخّات المطر الخفيف، والريح المحملة بعبق أشجار الجبل، ودوي الرصاص والقصف الذي لا يفتأ طنينه يتردد في أذنيّ من زخم الماضي، ومنظر الوجوه المكدودة والمتحفّزة ، وتاريخ الدم الذي أغرق أحجار الأرض، وأزمنة خطوط التماس، والحصار، وحرب الإخوة، وأكوام الجثث، ترتسم أمامي كمشهد سينمائي، شاحب الملامح ، داكن الألوان، ويدي تفشل دوماً في طمس هذا السواد ، من ذاكرة الأمكنة .



لا أدري كيف باتت القاهرة في داخلي جزءاً حميمياً من عصف الشتاء وروحانيّته .. منذ ثمان سنين وأنا أتردد عليها ساعة يهطل البرد . في الوقت الذي تُشرع فيه أبواب المعرض الدولي للكتاب ، آخر شهر يناير من كل عام .. للقاهرة في الشتاء مذاق خاص ، وفي صقيع الليالي القاهرية فقط تستطيع أن ترى هذه المدينة المكتظة وهي فارغة ، تسير وحدك ، تتأمل الأبنية والدكاكين المغلقة ، تُحدث رفاقك بهدوء وأنت تجول في الطرقات ، دون أن تلجأ للصراخ بسبب هدير السيارات العتيقة، وتتنفس ما تشاء من الأكسجين دون ضريبة.

بمجرد أن تطأ أرض مدينة ، تغدو جزءاً من ترابها، وهوائها، ووجدانها .. وحين تتعفر قدماك بشوائب طُرقاتها المُغبرَّة وأمكنتها العتيقة ، تُصبح حينئذ بعضاً من روحها الحميمة ودواخلها المسيَّجة بالغموض .. عندما تقضي في مدينة بضعة أيامٍ ، أنت تستحوذ على شيءٍ من ذاكرة تاريخها بمقدار ما أهدَرْتَه من زمنٍ في متاهات أزقّتها القديمة ، ليظلّ بعضك فيها، ويبقى أثر خُطاك محفوراً على أرصفة شوارعها ودروبها.

بقدر ما كانت الأرض موغلة في أعماق الأزمنة ، وممتدةً في مسارب ماضٍ مكتظ بسجالات السياسة والأفكار ، بقدر ما يبقى عبق الأمكنة عالقاً في جسدك ، وهواؤه لا يفتأ يتردد في رئتيك ، وتظلّ حروف اسمك منحوتة في مدونة الانتماء لهذه الأرض وإنسانها وتاريخها، دون الحاجة لـ (بطاقة هوية) و (جواز سفر)!

وهج الحياة للإعلام
Wahj Alhayat Communications
إصدارات 2008م - 1429هـ

9425148201